



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله -
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ



الخدمات الصحيّة في العصر العبّاسي (656 . 132 هـ / 750 . 1258 م)

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

إشراف : الأستاذ الدكتور :

غرداوي نور الدين

إعداد : الطالب :

دحماني محمد

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
أ / د : الحاج عيفة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيساً
أ / د : نور الدين غرداوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مقرراً
د : هواري موسى	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الجزائر 2	عضواً
د : خالد عبد الحميد	أستاذ محاضر (أ)	جامعة الجزائر 2	عضواً
د : بن شوش مروان	أستاذ محاضر (أ)	المدرسة العليا للأساتذة	عضواً
د : مبارك بشير	أستاذ محاضر	جامعة تيبازة	عضواً

السنة الجامعية : 1441 هـ . 1442 هـ / 2020 م . 2021 م .

الإهداء

- إلى أعلى شَيْءٍ في حياتي " أمِّي الحبيبة " ؛ حَفِظَهَا اللهُ و شفاها ، و رعاها و أطال
في عُمرها .

- إلى الأخ الأكبر " عبد القادر " و أفراد أسرته " حفيظة " و " محمّد " و
" درّاجي " و " مريم " و " يوسف " .

- إلى إخواني " ساعد " و " حمزة " و زوجتِه " سمّية " و ابنته " مرام " .

- إلى أخواتي " حدّة " و " زهية " و " فتيحة " و أبنائهنّ .

- إلى الزوجة العزيزة و أبنائي الأعزّاء " سارة " و " إسماعيل " و " آدم " و " إبراهيم " .
إلى كلّ من عَرَفَنِي و أَحَبَّنِي .

- إلى كلّ أحرار العالم و أنصار القضايا العادلة في مشارق الأرض و مغاربها .

- إلى إخواني المستضعفين في البلاد الإسلامية ، إلى طلبة العلم .

أُهدي هذا العمل المتواضع .

شكر و عرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث ؛ من قريبٍ أو من بعيدٍ ؛ و أخصّ بالذكر الأستاذ الدكتور : " نور الدين غرداوي " الذي قبلَ الإشراف على هذا العمل ؛ و لم يخل عليّ بنصائحه و إرشاداته القيّمة ؛ التي أفادتني كثيراً ؛ خاصةً من الناحية المنهجية ؛ و في هذا الصدد ؛ لا يسعني إلاّ التنويه بِخِصاله العالية ، و تواضعه الكبير في تعامله مع الطلبة . كما لا أنسى الأستاذة الفاضلة " رافعي نشيدة " التي أشرفت على هذا البحث في بادئ الأمر لكنّها لم تواصل لظروفٍ ما ، و أطلب من الله عزّ وجلّ أن يحفظها و يرعاها و يُطيل في عمرها . كما أشكر كلّ من ساعدني في مراجعة هذا البحث و تصحيح ما يحتويه من الأخطاء اللّغوية و الإملائية ؛ دون أن أنسى توجيهات زميلي في الدراسة الأستاذ : " طارق بن زاوي " ؛ و نصائح زملائي في العمل " بن عشيط " ، " ميراوي " ، " عبد الكريم " " رشيد " " مهّادي " " مسلم " ، " حسني " ، " وحيد " ، " أحمد " و غيرهم .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، و صلّ اللّهُمّ و سلّم على سيّدنا محمّدٍ و على آلِهِ و صحبِهِ أجمعين ، و من سنّ بسنّته ، و أهدى بهديهِ إلى يوم الدّين ؛ أمّا بعد :

لا ريب أنّ ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من رقيّ و إزدهار في شتى ميادين الحياة مرّدُهُ إلى عظمة هذا الدّين الذي حتّى على العلم في أوّل آيةٍ نزلت من الوحي ، و رفع من شأن العلماء و جعلهم في مصافّ الأنبياء مصداقاً لقوله صلّى الله عليه و سلّم : { العلماء ورثة الأنبياء ، و إنّ العلماء لم يُورثوا ديناراً و لا درهماً و إنّما ورثوا العلم } (1) . من هذا المنطلق ؛ خاض المسلمون في مختلف العلوم العقلية و النّقلية ، و أبدعوا فيها و تمكّنوا من إنجاز أعظم حضارةٍ عرفتها العصور الوسطى ؛ بلغت بعظمتها و رقيّها و شموخها مشارق الأرض و مغاربها .

لم تكن إنجازات الحضارة الإسلامية مقصورةً على ديانةٍ معيّنة أو جنسٍ بعينه ؛ بل شملت كلّ من كان في كنف الدولة من العرب و الموالي و أهل الدّمة ؛ ممّا أعطى انطباعاً بأنّها حضارة إنسانيةٍ جامعةٌ ، لأنّ المجتمع الإسلامي الجديد أضحى يمثّل خليطاً من أقوامٍ و أجناسٍ مختلفةٍ في عاداتها و تقاليدِها و تراثها الحضاري ، و تكوّنت بيئة إجتماعية غنيّة في أفكارها و آدابها ؛ فقام هذا المجتمع على وحدة الروابط الدينية بدلاً من الروابط العرقية و القبليّة و بالتّالي ساهم الجميع في بناء هذه الحضارة الرّاقية .

لقد أعطى عباقرة الثقافة الإسلامية عقولهم و تجاربهم ، و برزوا في مجال الفكر ، و عمّت مآثرهم الفكرية البلاد الإسلامية ، و كثرّت إسهاماتهم العلمية في شتى العلوم الحياتية (العقلية و النّقلية) ، و لعلّ علم الطبّ كان أبرزها و أوسعها ، إذ أبدع فيه المسلمون على مدار عصور حضارتهم الرّاهرة ؛ فكانت إسهاماتهم على نحوٍ غير

(1) البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، ج 5 ، دار الهدى ، عين اميلية

مُسبوقٍ ؛ شمولاً و تميّزاً و تصحيحاً للمسار ، و لم يكن هناك حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غيرهم ، إذ كانوا يعتبرون هذه العلوم ميراثاً إنسانياً ، يستفيد منه الجميع ، بما في ذلك الأمة الإسلامية .

لم يقتصر إبداع المسلمين في العلوم الطّبيّة فحسب ؛ بل تعدّاه إلى تأسيس مناهج علمية خاصّة بهم و اكتشاف معارف طبيّة جديدة ؛ إنعكست آثارها الرّاقية على جميع جوانب الممارسة الطّبيّة وقايةً و علاجاً ، أو مرافق و أدوات ، أو أبعادٍ إنسانيةٍ و أخلاقيةٍ راقيةٍ تحكّم الأداء الطّبيّ ؛ ليُسَطِّروا في مسيرة الإنسانية تاريخاً ناصعاً مُشرفاً ، و حلقة مهمّة من حلقاتها لا يُمكن تجاهلها .

دوافع اختيار الموضوع

إنّ دوافع إختياري لهذا الموضوع ؛ أي : **الخدمات الصحية في العصر العباسي** ، نابع من رغبتني في الخوض في الجانب الحضاري للدولة الإسلامية في أزهى عُصورها ؛ أي العصر العباسي ؛ و التركيز بشكلٍ خاصٍ على موضوع العلوم الطّبيّة و الصيدلانية ؛ الذي يحتاج إلى المزيد من الدّراسات التاريخية ؛ تستكمل صورة واقعه التاريخي الحقيقية الأوسع و الأشمل ؛ من خلال معالجة الجوانب المهنية له و لرجاله ، و تقديم صورة واقعية لطبيعة الخدمات الصحيّة في هذا العصر ؛ بما في ذلك إنعكاس الإهتمام الصحي على خطط المدينة الإسلامية ، و تطوّر مراكز الخدمات الصحيّة ، و أثر الدولة في الإشراف على طبيعة هذه الخدمات و نوعيّتها ؛ فضلاً عن دور الأطباء في هذا الميدان باعتبارهم أوّل من يضطلع بهذه المهمة الإنسانية النبيلة . كما أردتُ الرّد على الذين يتّهمون هذا الدّين بالتخلّف و الجهل ، و التذكير بإسهامات المسلمين في مختلف التخصصات الطّبيّة ، و التأكيد على تأثير و فضل الحضارة الإسلامية على الغرب المسيحي في العلوم الطّبيّة ؛ حين كانت البلاد الإسلامية في العصر العباسي مقصداً للأوروبيين إمّا للعلاج في البيمارستانات ، أو لطلب العلم في مختلف الحواضر الإسلامية و إقبالهم على إقتباس و ترجمة

مؤلفات المسلمين في العلوم الطبيّة و الصيدلانية ؛ التي أضحت مراجع مهمّة للعديد من أطباء أوربا في عصر النهضة ؛ عكس ما تشهده اليوم المراكز الصحيّة في البلاد الإسلاميّة ؛ من نقصٍ كبيرٍ في التخصّصات الطبيّة و إنعدام بعضها ، و تديّي الخدمات ، و محدودية الوسائل و التجهيزات الطبيّة فيها ؛ و إقبال المسلمين على بلدان الغرب المسيحي و آسيا ؛ إمّا للعلاج أو إستيراد الأدوية و التجهيزات الطبيّة .

الدراسات السابقة :

تتناول هذه الدراسة أحد جوانب الحضارة الإسلاميّة ، و واحد من العلوم التي أبدع فيها المسلمون في أزهي عصورهم ؛ و يتعلّق الأمر بعلم الطبّ ؛ هذا الموضوع الذي حظي بدراسات تاريخية كثيرة و تفصيلية ؛ إستوفت تاريخه المهني و تطوّره و إنجازاته و أعلامه ، و كلّ ما يتّصل بخصوصياته المهنية الواسعة ؛ فمن تلك الدراسات من حاولت الكشف عن إنجازات العرب و المسلمين في ميدان الطبّ ، و منها من تناولت هذا العلم بصفة عامّة ؛ من خلال التطرّق إلى إسهامات الأطباء المسلمين عربيهم و عجمهم ، و عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي ، و منها من تناولت هذا الموضوع في إطار دراسةٍ شاملةٍ للحياة العلميّة و الثقافيّة في دولةٍ ما ؛ من الدول التي شهدها العالم الإسلامي عبر مختلف مراحلها ، و من تلك الدراسات أيضاً ما ركّز على إختصاصٍ معيّن ، أو شخصيّةٍ طبيّةٍ معروفةٍ سواء كانت من العرب ، أو الموالي أو أهل الذمّة . أمّا الجديد في هذا البحث ؛ فهو التركيز على الخدمات الصحيّة في الفترة العبّاسية ؛ و التي كان يستفيد منها كلّ من يعيش في كنف الدولة من المسلمين و أهل الذمّة و التذكير بالمقوّمات التي قامت عليها ؛ و نظام المعالجة في البيمارستانات ، و دور الحسبة في الحفاظ على الصحة العامّة و سلامة الأبدان ؛ من خلال نظام الرقابة الذي فرضته الدولة على كلّ الصناعات التي تُؤثّر على صحة الإنسان و البيئة التي يعيش فيها .

. إشكالية البحث :

كما أشرتُ إليه سابقاً ؛ فإنّ الجديد في هذا البحث ؛ هو التركيز على الخدمات الصحية في الفترة العباسية و سأحاول بحول الله تقديم صورة واقعية لتطوّر صنعة الطبّ في هذا العصر ؛ مجيباً عن التساؤلات التالية : ماهي طبيعة الخدمات الصحيّة في العصر العباسي ؟ و كيف كان نظام المعالجة في البيمارستانات ؟ و ماهي إسهامات أطباء هذا العصر في مختلف التخصصات الطبيّة ؟ و من هم أهمّ رواد الطبّ في العصر العباسي ؟ و كيف كان لنظام الحسبة دور في حفظ صحة الإنسان و السلامة العامة ؟ و ما أثر إنجازاتهم العظيمة في الغرب الإسلامي ؟

منهج البحث :

إنتهجت في هذا العمل المنهج التاريخي و الوصفي ، إذ حاولتُ وصف الأحداث التاريخية التي تتعلّق بتاريخ الطبّ الإسلامي ، و تطوّر في العصر العباسي ، و بعض أعلامه و إنجازاته ، و أهمّ الخدمات الصحيّة في البيمارستانات و شرح نظام المراقبة الذي إنتهجته الدولة الإسلامية في العصر العباسي على الممارسة الطبيّة ، ثمّ تحليل تلك الأحداث و مقارنتها بواقع الطبّ في الغرب المسيحي في تلك الفترة ، ثمّ إبراز أهميّتها و قيمتها و دورها فيما وصل إليه الطبّ الحديث

5 - خطة البحث :

إنّ هذا العمل تمّ تقسيمه إلى خمسة فصول ؛ تناولتُ في كلّ منها مايلي :

في الفصل الأوّل ؛ الذي عنوانه : **تطوّر صنعة الطبّ في العصر العباسي** ، حاولت فيه التعريف بالطبّ

الإسلامي و تبيين أقسامه الثلاث (الإيمان ، الروحاني ، العلاجي) ؛ موضحاً الفرق بينه و بين الطبّ الجاهلي

و مستدلاً ببعض الأحاديث النبوية الصريحة ؛ التي تدعو إلى الخوض في هذا العلم ، و مبيّناً المنهج الذي قام عليه

الطب الإسلامي . ثم دكرتُ لمحّة تاريخيةً وجيزةً حول تطوّر الطب الإسلامي من العصر النبوي إلى غاية نهاية العصر العباسي ؛ مُركّزاً على دور الدولة العباسية في تطوّر الطب ، و أثر الترجمة في ازدهار هذه الصنعة ، و مكانة الأطباء و أجورهم ، و كذا أهمّ المراكز الصحية (البيمارستانات) في العصر العباسي .

و تحدّثتُ في الفصل الثاني عن أهمّ الخدمات الصحية في العصر العباسي ، حاولتُ فيه التطرّق إلى أهمّ الخدمات الصحية التي كانت تقوم بها الدولة ؛ سواء تعلّق الأمر برعاية المجانين و الإهتمام بصحة المساجين و التكفّل بضحايا الكوارث الطبيعية و الأوبئة و الأمراض ، أو برواد البيمارستانات . و في هذا الشأن ؛ تطرّقتُ إلى تعامل الدولة مع مرضى الطاعون و الجذام ، و ضحايا الزلازل ، و إهتمامها برعاية المساجين ؛ إضافةً إلى إسهام و إبداع أطباء العصر العباسي في بعض التخصصات الطبية ؛ كالجراحة ، الطبّ النفسي ، طبّ النساء و الولادة ، طبّ الأطفال ، طبّ العيون ، طبّ الحيوان .. إلخ ؛ تاركاً المجال لغيري ؛ لمن أراد أن يتوسّع في هذا الموضوع و يتناول إسهامات أخرى لم يرد ذكرها في هذا البحث .

أما الفصل الثالث ؛ الذي عنوانه : دور الحسبة في حفظ السلامة العامة و سلامة الأبدان ؛ حاولتُ فيه التذكير بحرص الدولة الشديد على صحّة الناس و سلامتهم ؛ من خلال تسخير بعض أجهزتها الإدارية ؛ على غرار " نظام الحسبة " ، و تجلّى ذلك في الرقابة الشديدة التي فُرِضت على أصحاب الصنائع ذات الصلة بمهنة الطبّ ؛ كالأطباء ، الصيادلة ، الفصّادين ، البيطرة ... إلخ ، أو تلك التي تتعلّق بالأطعمة و الأشربة التي يستهلكها الناس كالحبازين ، الفرّانين ، الشوائين ، قلائمي السمك ، السمّانين ... إلخ . إضافةً إلى الرقابة التي فُرِضت على الأسواق و الطرقات ؛ حفاظاً على نظافة البيئة و المحيط ، و حرصاً على الآداب العامة .

و في الفصل الرابع الذي عنوانه : رواد علم الطبّ في العصر العباسي ؛ حاولتُ التذكير بأشهر الأطباء

الذين عاشوا في الفترة العباسية ؛ فُقمْتُ بتناول أهم جوانب حياتهم ؛ مُشيراً باختصارٍ إلى إنجازاتهم و مؤلفاتهم في ميدان العلوم الطبيّة . و في هذا الصدد ؛ اكتفيتُ بذكرِ اثني عشر طبيباً من العربِ و الموالي و أهل الدّمة ، ؛ الذين ظهروا في بلاد المشرق الإسلامي ؛ تاركاً المجال لغيري ؛ لمن أراد تناول شخصيات أخرى من الأطباء لم يرد ذكرها في هذا العمل ؛ بمن عاشوا في الأقاليم الإسلامية الأخرى على غرار مصر و بلاد المغرب الإسلامي و الأندلس . و هؤلاء الأطباء هم : ابن ربن الطبري ، الرّازي ، ابن سينا ، ابن أبي الأشعث ، الحسن بن سوار ، الحسن الفمري أحمد بن محمد الطبري ، ابن عباس الأهوازي ، ابن مسكويه ، ابن مندويه الأصفهاني ، النّجيب السمرقندي .

و عاجتُ في الفصل الخامس أثر تلك الإسهامات في الغرب المسيحي ؛ مُحاولاً تبيين فضل هؤلاء الأطباء و أثر إسهاماتهم في الغرب المسيحي ؛ من خلال سببهم في اكتشاف العلل و الأمراض الجسدية و النفسانية التي تُصيبُ البدن ، و وضع معارف طبيّة جديدة ، و إنتهاج طرق و أساليب علاجٍ نادرة ؛ أعطت دفعاً جديداً لهذا العلم ، و أثرت بشكلٍ واضحٍ على الغرب المسيحي ، و لا يزال بعضها مُتبعاً عند الأطباء في الوقت الحالي ، إضافةً إلى منهجهم العلمي الرّاقِي ؛ القائم على التجربة و الملاحظة و الإستقصاء ، كما حاولتُ التركيز على الجانب الإنساني الذي إتبعه هؤلاء الأطباء في تعاملهم مع مرضاهم ؛ لاسيما المصابين بالأمراض العقلية و مقارنته بنظرة الغرب إلى هؤلاء ؛ و معاملتهم القاسية لهم . ثمّ تطرقتُ بعد ذلك إلى أشهر المؤلفات الطبيّة التي تركها أطباء العصر العباسي ؛ على غرار كتب : فردوس الحكمة ، الحاوي في الطبّ ، القانون في الطبّ ، المنصوري ، كامل الصناعة الطبيّة و غيرها من الكتب ؛ التي كانت بمثابة موسوعات طبيّة شاملة ، إستفاد منها كثيراً طلبة العلوم الطبيّة و الصّيدلانية في البلاد الإسلامية ، و تأثّر بها أطباء الغرب المسيحي ؛ الذين عكفوا على ترجمتها و الإستفادة من المعارف الطبيّة النّادرة التي تحويها .

6 - الصعوبات :

أما الصعوبات التي واجهتني في هذا العمل فتمثلت في :

- قلة المصادر المتخصصة ، و صعوبة الوصول إلى العديد منها ؛ نظراً لكون أغلبها عبارة عن مخطوطات ؛ لا تزال حبيسة رفوف المكتبات الإسلامية و الأوربية ، و تحتاج إلى مراجعة و شرح و تعليق ؛ مما تعدد عليّ التوسّع أكثر في هذا الموضوع . و لحسن حظي أتيّ وحدث بعض المصادر المهمة في موسوعة الطب الإسلامي ؛ على غرار كتاب المنصوري للزاري ، و فردوس الحكمة لابن ربن الطبري ، و الملكي للأهوازي .

- إحتواء البحث على مصطلحات غامضة ؛ تتعلق ببعض أصناف العقاقير الطيبة ، و النباتات الطبيعية ، و الأدوية المفردة و المركبة . و رغم الإستعانة ببعض المصادر المتخصصة في ذلك ؛ فإنني لم أفلح في تعريفها ؛ مما جعلني أضطر إلى الإستغناء عن بعضها .

- صعوبة التوفيق بين العمل و البحث العلمي ؛ إذ أنّ طبيعة عملي كأستاذ في الطّور المتوسط تستدعي التفرغ للتلاميذ ، و العمل طيلة أيام الأسبوع ؛ و في الفترتين الصباحية و المسائية ، فلم يكن لي خيار سوى الإستعانة بأيّام نهاية الأسبوع ، و الأعياد الوطنية و الدّينية ، و العطل المدرسية ؛ للتقدّم في هذا العمل .

7 - تقييم المصادر :

أ . المصادر المتخصصة :

إنّ طبيعة بحثي تجعلني أتجنب الدخول في التفاصيل السياسية ؛ بإستثناء ما هو ضروري ، و التركيز على الجانب الحضاري ؛ لاسيّما ما يتعلّق بالجانب العلمي ؛ و بالأخصّ العلوم الطّيبية ، و من أجل ذلك ؛ إعتمدتُ أكثر على المصادر الطّيبية المتخصصة التي تركها الأطباء العبّاسيين . و ما لاحظته من خلال إطلاعي على هذه المصادر ؛ أنّها

تشابهة في محتواها ؛ إذ تتضمّن في مجملها وصفاً دقيقاً لأعضاء الجسم ووظائفها ، و شرحاً وافياً لمختلف العلل و الأمراض التي تُصيبُ البدن ، و طُرُقِ علاجِها ، كما أنّها تحوي آراء و أفكار و نظريات الأقدمين من الأمم الأخرى في بعض المسائل الطبّية ؛ لاسيّما اليونانيين ؛ على غرار " جالينوس " و " بقراط " ، و بعض الأطباء الهنود ؛ ممّا يُثبِتُ الأمانة العلمية التي كان يتّصفُ بها الطبيب المسلم آنذاك . و قد اعتمدت على هذه المصادر في الفصل الثاني ؛ إذ أفادتني في تناول بعض إسهامات الأطباء الموالى ؛ و لعلّ أهمّ تلك المصادر : كتب **الحاوي في الطبّ و المنصوري و المرشد أو الفصول ، و منافع الأغذية و دفع مضارّها للزّازي** (ت 320 هـ / 932 م) كتاب **فردوس الحكمة** لعلّي بن ربن الطبري (ت 232 هـ / 850 م) ، كتاب **القانون في الطبّ ، و الأدوية المفردة** لابن سينا (ت 428 هـ / 1036 م) ، كتاب **كامل الصناعة الطبّية** لعلّي بن عبّاس الأهوازي (ت 384 هـ / 994 م) ، كما اعتمدتُ على كتبٍ أخرى لمؤلّفين آخرين ظهوروا بعد سقوط الخلافة العبّاسية مثل كتاب **مُفيد العلوم و ميّد الهموم** لابن الحشاء ، و كتاب **تذكرة أولي الألباب و الجامع للعجب العُجاب** لداوود الأنطاكي (ت 1008 هـ / 1599 م) ؛ و هُما كتابان يحتويان على شرحٍ مُفصّلٍ لبعض المصطلحات و الأدوية . و العقاقير الطبّية ، و النباتات الطبيعية .

ب . كتب السير و التراجم :

أمّا كتب السير و التراجم ؛ فقد اعتمدتُ عليها كثيراً في الفصل الرابع ، حيث أفادتني في التعريف ببعض الأطباء و التطرّق إلى أهمّ جوانب حياتهم ، و تناول أهمّ إنجازاتهم الطبّية ، و مؤلّفاتهم النفيسة التي تركوها ؛ و أهمّ تلك الكتب : كتاب **عيون الأنباء في طبقات لابن أبي أصيبعة** (ت 668 هـ / 1269 م) ، كتاب **تاريخ حكماء الإسلام** لظهير الدّين البيهقي (ت 565 هـ / 1169 م) ، كتاب **الفهرست** لابن التّدم (ت 385 هـ / 995 م) ، كتاب **تاريخ الحكماء** للقفطي (ت 646 هـ / 1248 م) ، كتاب **معجم الأدباء**

لياقوت الحموي (ت 626 هـ / 1228 م) ، كما استعنت ببعض كتب السير و التراجم للتعريف ببعض الشخصيات ؛ سواء تعلّق الأمر بالخلفاء أو الوزراء أو العلماء ، من تلك المصادر : كتاب الوزراء و الكتاب للجهشياري ، كتاب تاريخ الصحابة للبستي ، كتاب الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي (ت 748 هـ / 1347 م) ، كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي .

ج . المصادر العامة :

أمّا المصادر الخاصّة بالتاريخ العام ؛ فقد أفادني كثيراً في المبحث الثاني من الفصل الأوّل ، و بالرّغم من الإختصار الشديد الذي ميّز تناوُّلي للأحداث السياسية ؛ فإنّني رجعت إلى العديد منها ؛ منها : كتاب تاريخ الرسل و الملوك للطبري (ت 310 هـ / 922 م) ، و كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 630 هـ / 1232 م) ، كتاب مروج الذهب و معادن الجواهر للمسعودي (ت 346 هـ / 957 م) ، كتاب المنتظم في تاريخ الملوك لابن الجوزي (ت 597 هـ / 1201 م) ، كتاب المستوعب لفترة المأمون لطيفور (ت 280 هـ / 893 م) ، كتاب السلوك لمعرفة الملوك للمقريزي ، كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت 279 هـ / 892 م) ، و غيرها .

و فيما يتعلّق بالمصادر الجغرافية ؛ فقد اعتمدتُ عليها للتعريف ببعض المدن و الأقاليم التي وردَ ذكرها في هذا العمل ، و اكتفيتُ بكتاب البلدان لليعقوبي (ت 284 هـ / 897 م) و كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت 626 هـ / 1228 م) ، ثمّ قمتُ بإضافة معلوماتٍ أخرى حول تلك المدن و الأقاليم ؛ مستعيناً ببعض المراجع .

إضافةً إلى هذا ؛ إعتمدتُ على كتب الحديث في الفصلين الأوّل و الثاني ؛ للإستدلال ببعض الأحاديث النبوية الشريفة ؛ التي تحثّ على ممارسة الطبّ و الخوض فيه ؛ و من تلك المصادر : كتاب السنن لأبي داوود ، و كتاب شعب الإيمان للبيهقي ، و كتاب الجامع الصحيح المختصر للبخاري (ت 257 هـ / 869 م) ، و كتاب الصحيح لمسلم (ت 261 هـ / 874 م) ، و كتاب شرح سنن ابن ماجة للسندي ، و كتاب صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان.

د. كتب الحسبة :

أمّا المصادر الخاصّة بالحسبة ؛ فقد إعتمدت عليها في الفصل الثالث لتوضيح دور الدولة في الرّقابة على أصحاب المهّن ذات الصلة بمهنة الطبّ و بائعي الأطعمة و الأشربة ، و حرّصها على نظافة البيئة و المحيط و حفظ الآداب العامّة ؛ إذ إعتمدتُ على كتاب : " نهاية الرتبة في طلب الحسبة " للشيرزي (ت 590 هـ / 1194 م) ؛ الذي أعاد تأليفه ابن بسّام المحتسب (عاش في القرن الثامن الهجري) ؛ إضافةً إلى كتاب " معالم القربة في طلب الحسبة " لابن الأخوّة القرشي (ت 729 هـ / 1328 م) ؛ الذي سار على نهج الإمام الشيرزي في تفصيل أمور الحسبة ، و كتاب " الأحكام السلطانية " للماوردي (ت 455 هـ / 1063 م) .

الفصل الأول :

لمحة عن تطوّر الطبّ الإسلامي

(من العهد النبوي إلى غاية نهاية العصر العباسي) .

- 1 . التعريف بالطبّ الإسلامي .
- 2 . أقسام الطبّ الإسلامي (الإيماني ، الروحاني ، العلاجي)
- 3 . الحثّ على المعالجة و البحث عن الدواء الصحيح .
- 4 . تطوّر صناعة الطبّ في العصر العباسي :
 - أ . المناهج الطبيّة عند أطباء العصر العباسي .
 - ب ، مكانة الأطباء في العصر العباسي .
 - ج ، أجور الأطباء في العصر العباسي .
 - د ، المستشفيات (البيمارستانات) في العصر العباسي .

تُعَدّ مهنة الطبّ من أجلّ و أشرف المهن التي مارسها الإنسان منذ الخليقة ، و ستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض و من عليها ؛ لأنّها صنعة تقوم على كشف و تشخيص و علاج مختلف الأمراض و العِلل التي تُصيبُ البدن و التخفيف من آلام المرضى الجسمية و كُرهِم النفسية . و رغم كلّ ما قدّمته الشعوب القديمة في هذا الميدان ؛ تبقى إنجازاتهم ناقصةً تعجزها العديد من النقائص و الشوائب ؛ و تحتاج نظرياتهم الطبيّة إلى تصحيح و تصويب و إعادة النظر فيها ؛ و هو ما تحقّق بعد البعثة النبوية و ظهور ما يُعرّف بـ "الطبّ الإسلامي " ؛ الذي أرسى دعائمه الرسول محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و طوّره المسلمون من بعده في مختلف مراحل الدولة الإسلامية ؛ خاصةً في العصر العبّاسي ؛ الذي يُمثّل أزهى عصورها . فماذا يُقصّد بالطبّ الإسلامي ؟ و ما هي أقسامه ؟ و كيف تطوّرت صنعة الطبّ في العصر العبّاسي ؟ و بمّ تميّزت المناهج الطبيّة عند أطباء العصر العبّاسي ؟

1. التعريف بالطبّ الإسلامي :

الطبّ الإسلامي هو الطبّ الذي يرجع في قيمته و تعاليمه و أصوله و وسائله إلى معتقداتنا الدينية النّابعة من القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة ؛ و التي يعلمها كلّ من المريض و الطبيب ؛ و هي تُبيّن ما يحتاج إليه المرء في دينه و دنياه ، و قد بيّن الرسول صلّى الله عليه و سلّم سألّه عنه من الكتاب ، و تكفّل الله عزّ و جلّ ما لم يسألوا عنه . و إذا كان القرآن الكريم لم يُفَرِّط في شيءٍ ممّا ينفع المسلم في دينه و دنياه فهو لم يُفَرِّط أيضاً فيما ينفع المسلم في سلامة نفسه و صحّة بدنه و صلاح بيئته .

هذا ؛ و بالإحاطة إلى كتب الله السابقة ؛ لا نجد في التوراة و لا في الإنجيل توجيهاتٍ أو توصياتٍ طبيّة كما هو موجود في القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة (¹) ، مثل قوله تعالى : { وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

(¹) الفنجري ، أحمد شوقي : الطبّ الوقائي في الإسلام (تعاليم الإسلام الطبيّة في ضوء العلم الحديث) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة

لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } (1) . فكلّ هذه التوصيات و التوجيهات الطبيّة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ؛ التزم بها أطباء العالم الإسلامي من عصر النبوة إلى وقتنا الحالي ؛ فهي صالحة في كلّ زمانٍ و مكانٍ ، و لا يكاد يستغني عنها الطبيب المسلم في ممارسة مهنته ؛ و هو ما سنُفصّله في الفصلين الثاني و الرابع من هذا البحث .

2. أقسام الطبّ الإسلامي :

أ. الطبّ الإيماني : يُعتبر الطبّ الإيماني أفضل أنواع الطبّ ؛ لأنّه أسرعها و أكملها و أقلها تكلفة ، و لا يحتاج إلى أبحاثٍ لتشخيص الداء ؛ لأنّ الطبيب يعلم الداء و الدواء ، و قادرٌ على الشفاء ، و وسائل هذا الطبّ في العلاج تختلف عن وسائل الطبّ لعامة المسلمين ؛ إذ تتوقّف على درجة إيمان العبد و صدّقه مع ربّه ؛ فالمؤمن الصادق القويّ الإيمان هو الذي يرى أنّ المرض إمّا ابتلاء من الله عزّ و جلّ أو جزاء انحرافٍ عن منهجه لقوله تعالى : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ، وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } (2) ، و يعتقد اعتقاداً كاملاً أنّ الشافي هو الله ؛ فهو إذنٌ طبّ لا يستفيد منه إلاّ المؤمنين حقاً ، و قد يُتوجّه إلى الله بالدعاء ، أو قراءة القرآن ، أو تقديم الصدقات . و في هذا الشأن يقول " ابن القيم الجوزية " في كتابه (الطب النبوي) : " ... فأما طبّ القلوب ؛ فمَسَلَّمٌ إلى الرّسل صلوات الله عليهم ، و لا سبيل إلى حصوله إلاّ من جهتهم و على أيديهم ، فإنّ صلاح القلوب أن تكون عارفةً برّبّها و فاطرةً و بأسمائه وصفاته و أفعاله و أحكامه ، و أن تكون مؤثّرةً لمرضاته ؛ مُجتنبَةً لنواهيه و مساحطةً ... " (3) .

(1) الآية 82 من سورة الإسراء .

(2) الآية 79 من سورة النساء .

(3) ابن القيم الجوزية ، شمس الدّين بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت 751 هـ) : الطبّ النبوي ، تعليق : عادل الأزهري و عبد الغني عبد الخالق

دار الفكر ، بيروت (د س ط) ، ص. 3 .

لقد وُرِدَت نصوص عديدة من القَصص القرآني و السنّة النبوية الشريفة ؛ أثبتت مدى نجاعة الطبّ الإيماني في علاج الأفئدة و طمأننة النفوس الطّيبة ؛ فهذا خليل الرحمان " إبراهيم عليه السلام " يرّد على سيّدنا " جبريل عليه السلام " حين سألّه و هو مُلقى في النّار : ألكَ إلى الله حاجة ؟ فقال : علّمهُ بحالي يُعني عن سؤالي (1) ، و في قوله : { وَ إِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي } (2) .

أمّا النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فقد أُخْبِرَ الطّبيب الذي أهداه إليه " المقوقس " (3) ؛ أنّ المسلم لا يَأْكُلُ حتّى يجوع ، و إذا أَكَلَ لا يَشْبَع ، و لا حاجة له لطبيب (4) ؛ فهو ليس بحاجة إلى طبيبٍ من البشر لأنّ طبيبه هو الله ؛ و مع ذلك تراه أمَرَ النَّاسَ بالتداوي ؛ فعن ابن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قال : { تداووا عباد الله ؛ فإنّ الذي أنزل الدّاء أنزل الدّواء ؛ علّمهُ من علّمه ، و جهلُهُ من جهلُهُ } (5) . و معنى هذا أنّه يُريد للمسلمين طبّاً يرجع في قيمته و تعاليمه و أصوله و وسائله إلى معتقداتنا الإسلامية التّابعة من

(1) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ) : تاريخ الأمم و الملوك ؛ المعروف بـ " تاريخ الطبري " ، تحقيق : أبو صهيب الكرمي بيت الأفكار الدولية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية (د س ط) ، ص. 84 .

(2) الآية 80 من سورة الشعراء .

(3) المقوقس : حاكم مصر من قبيل البيزنطيين في عهد النّبِيّ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، و قد بَعَثَ النّبِيّ إِلَيْهِ كما بَعَثَ إِلَى " كسرى " و " هرقل " و " التّجاسي " و غيرهم من الملوك رسولاً يُدعوهُ إلى دين الحق ؛ فاستقبلَ هذا الرّسول بكثيرٍ من الإكرام ، و أهدى النّبِيّ جاريتين هما : " مارية " و " سيرين " ؛ فبقيَ عليه الصلاة و السّلام بالأولى ؛ فأُنجبت له " إبراهيم " ، و أهدى الثانية إلى شاعره " حستان بن ثابت " . ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، المجلّد 2 ، دار المنار ، القاهرة 1424 هـ / 2003 م ، ج 3 ، ط 1 ، ص. 88 ، 89 ؛ البعلبكي منير : معجم أعلام المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت 1413 هـ / 1992 م ، ص. 430 .

(4) الفنجرى : المرجع السابق ، ص. 54 .

(5) البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي : الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار الهدى ، عين اميلية (الجزائر) ، ج 5 ، ص. 2151 .

الكتاب و السنّة و الشامل للنّاحية الوقائية و العلاجية ؛ مستهدفاً سلامة النّفس و الجسد في مراحل الحياة المختلفة جنيئاً و طفلاً و شاباً يافعاً و كهلاً و شيخاً .

و ما يمكن قوله في الأخير أنّ الطبّ الإيماني يُفرضُ على الطبيب و المريض و أهل المريض أن يعلموا أنّ لكلّ أجلٍ كتاب ، و أنّ الطبيب المعالج من البشر لا يملك الشفاء ، و لا يستطيع أن يُطيل في عمّر المريض أو يُنقص منه ، و أنّ الله هو الشّافي ؛ سواءً كان المرض ابتلاء من الله أو إنحراف عن منهجه ؛ فإنّ على المريض أن يلجأ إلى الله و التوبة إليه و قراءة القرآن ، و بذل الصدقات ، أو شُرْب " ماء زمزم " لمن كان في رحاب البيت الحرام ، أو استعمال العسل أو الحمامة أو الكيّ ، و تتوقّف الإستجابة على قدر إيمان المُرء برّبّه ؛ فإذا كانت صلّة العبد برّبّه قويّة فإنّ مجرد التوجّه إلى الله بالقلب يكفي ؛ و لنا في سيّدنا إبراهيم أسوة .

ب . الطبّ الروحاني :

على عكس الطبّ الإيماني الذي يعتمد على الصلة بين العبد و ربّه ؛ فإنّ الطبّ الروحاني هو علاج من أُصيبوا بأذى نتيجة مسّ من الجنّ أو تسلّط الشيطان على أفكارهم و الإيحاء إليهم ؛ فيُعلّمونهم كيف يُعالجون المرضى الذين أُصيبوا نتيجة ممارسة شياطين الجنّ هوايتهم في إيصال الأذى للإنسان ، و عدم تمكينه من أداء الأمانة التي حمّلها ، و هي العبادات و التكاليف الشرعية ؛ تطبيقاً لقول إبليس لربّ العزّة : { قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي ؛ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } (1) .

إنّ الطبّ الروحاني يشتمل على الرّقى و العزائم و كتابة التمام و إطلاق البخور ، و الإستعانة بأسماء ملوك الجنّ و الشياطين و تقديم القرابين . هذا النوع من العلاج كان موجوداً قبل ظهور الإسلام ؛ حين كانت ممارسته أكثر شُيوعاً عند العرّافين و فئة الممارسين المحرّبين ، ففئة العرّافين اعتمدت على التكهّن بأسباب المرض ، و سرّه و علاجه ، و الإستعانة بالتعاويد و التّجوم و السّحر ، و كان لكلّ قبيلةٍ عرّافٌ يرجع إليه أفرادها فيما يُصيبهم من

(1) الآية 16 من سورة الأعراف .

أمراضٍ و عللٍ و أحداثٍ مختلفةٍ ، و كانوا يُنزلونه منزلة الكاهن من حيث الإحترام و التقدير ، أمّا فئة الممارسين المجريين ، فقد كانت تُزاول العلاج بالكيّ ، و البتر ، و الحجامة ، و العقاقير و الأعشاب الطّبيّة (1) و لمّا جاء الإسلام جعل لهذا العلم ضوابط شرعية ؛ تستمدّ أصولها و ثوابتها من القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة ؛ فأصبحت ممارسة الطبّ تخضع لأطرٍ و حدودٍ خاصة ، وضعها الإسلام لتكون هادياً لأطبّاء المسلمين ، و لكلّ العلماء و عموم النّاس ، لكي ينجحوا في الوصول إلى الحقّ ، و الخير ، و الصّلاح في كلّ فروع الحياة ، فأصبح الأطبّاء المسلمون يحترمون القاعدة الشرعية التي رواها "أبو الدرداء" ؛ حين روى عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أنّه قال : { إنّ الله أنزل الداء و الدواء ، و جعل لكلّ داءٍ دواءً ، فتداووا ، و لا تداووا بحرام } (2) .

و من هنا قام الإسلام بتقويم و تعديل و تطوير ما اعتمدت عليه فئة العرّافين و الممارسين المجريين ، فلم يعد مقبولاً أبداً أن يُعالج المرضى بالدّجل و الشعوذة و الكهانة و السّحر (3) ؛ باعتبارها من مظاهر الشرك بالله عزّ و جلّ ، كما نُهي عن التداوي بالخمّر أو النجاسة أو الكيّ (4) ؛ و هو ما رواه سعيد ابن جبير ؛ عن ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال : { الشّفاءُ في ثلاثة : شَرْطُهُ عَسَلٌ ، و شَرْطُهُ مِحْمٌ ، و كَيْئُهُ نَارٌ ، و نُهي

(1) محمود الحاج قاسم : الطبّ عند العرب و المسلمين . تاريخ و مساهمات . ، الدار السعودية للنشر ، 1987 ، ص. 47 ، 48 ؛ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1323 هـ / 1935 م ، ط 10 ، ج 2 ، ص. 6 ، 7 ، ؛ الشطّي أحمد شوكت : تاريخ الطب (أعلامه و آدابه) ، مطبعة طربين 1967 م ، ص. 13 .

(2) أبو داوود ، سليمان بن الإشعث السجستاني الأزدي (202 : 275 هـ) : سنن أبي داوود ، تعليق : عزّت عبيد الدعاس و عادل السيّد ، دار ابن حزم ، بيروت ، 1418 هـ / 1997 ، ج 4 ، ص. 134 .

(3) عبد الحق حميش : حفظ الصّحة في الإسلام ، يومية الخبر ، العدد 7396 ، الإثنين 07 جمادى الثانية 1435 هـ / 07 أفريل 2014 ، الجزائر ، ص 19 .

(4) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد ، المجلّد 2 ، ج 3 ، ص. 115 .

أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّْ { (1) ، و بذلك أغلق الأطباء المسلمون هذه الصفحة من العلاج ، التي أثبت الطبّ الحديث أنّها مُجرّد تسكين مؤقّت ، ليس له فائدة حقيقية ؛ و بالتالي وجدوا أنفسهم مُجبرين على العودة إلى الله و تصحيح العقيدة ، و الرقى و قراءة القرآن و الأدعية و الأذكار ، و تقديم الصدقات ، و الإجتهداد و البحث عن الأسلوب العلمي الرّاقى في علاج الأمراض .

ج . الطبّ الوقائي :

الطبّ الوقائي يشمل وقاية النّفس و سلامة الجسد ، و هو ينبع من مجموعة من الأوامر و النّواهي في فرع العبادات ؛ و التي تهدف في غالبيتها إلى المحافظة على سلامة الجسم من الأمراض ؛ حتّى تتمكّن النّفس من القيام بالتكاليف الشرعية على أكمل وجه (2) ، و هو دليل واضح على أنّ موقف الإسلام من الصّحة و الوقاية و سلامة الأبدان موقف لا نظير له في أيّ دين من الأديان ؛ فالنّظافة فيه عبادةٌ و قُرْبَةٌ ؛ بل فريضةٌ من فرائضه و ممّا يدلّ على ذلك أنّ أغلب كُتُب الشريعة في الإسلام تبدأ بباب الطّهارة ؛ أي النّظافة . و قد أشار القرآن و السنّة بالنّظافة و أهلها ؛ فقال الله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } (3) ، و أنّى على أهل مسجّد قُباء ؛ فقال : { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ؛ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رَجُلٌ يُجْبُونَ أَنْ يَطَهَّرُوا ، وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } (4) ، و قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : { الطّهورُ شَطْرُ الإِيمَانِ } (5) ؛ أي نصفه .

(1) السندي ، أبي الحسن الحنفي : شرح سنن ابن ماجة القزويني ، دار الجيل ، بيروت ، ج 2 ، ص . 353 .

(2) الفنجرى ، أحمد شوقي : المرجع السابق ، ص . 11 .

(3) الآية 222 من سورة البقرة .

(4) الآية 108 من سورة التوبة .

(5) مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين النيسابوري : صحيح مسلم ، بشرح النووي ، إشراف : حسن عبّاس قطب ، دار عالم الكتب ، الرياض

(المملكة العربية السعودية) ، ج 10 ، ص . 203 ، رقم الحديث 223 .

و تتجلى النظافة الشخصية في الإسلام في مجموعة من الممارسات اليومية التي يقوم بها المسلم عبادةً لله تعالى وهي : الوضوء (¹) و نظافة الجسد (²) و نظافة الفم (³) و سنن الفطرة (⁴) ، و غيرها من التعاليم و الإرشادات التي تحفظ صحّة الفرد و تُبقيه معافى في جسمه و نفسه .

و لأنّ اليد أسرعُ تلوثاً من غيرها بحكم عمليها ؛ فقد أعطاهما الإسلام عنايةً خاصةً ؛ فسُنَّ استعمال اليد اليمنى في تناول الطعام و المصافحة ، و اليسرى في الإستنجاء ؛ مع التشديد على نظافة اليد بشكلٍ خاصٍ . و في هذا الشأن يروي عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه رضي الله عنهما ؛ أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه و سلّم قال : { إذا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَمَسِّنْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ ، و إذا أتَى الخلاءَ فَلَا يَتَمَسَّحْ بِيَمِينِهِ ، و إذا شَرَبَ فَلَا يَشْرَبْ نَفْسًا

(¹) الوضوء : يتكرر عدّة مرّات في اليوم ، و يُنظّف الأجزاء المكشوفة من جسم الإنسان ؛ و هي الأكثر عُرضَةً للجراثيم ، و قد أثبت علماء الجراثيم وجود أعداد هائلة من الجراثيم ؛ و للتخلّص منها لابدّ من غسل الجلد باستمرار ، و لا غُسل أكثر ديمومةً و تكراراً من الوضوء الذي أمرنا الله به و حتّى عليه الرسول محمد صَلَّى الله عليه و سلّم ؛ الذي أُخْبِرْنَا بعدم جواز الصلاة بدون وضوء ، و أنّ من توضأ فأحسَنَ الوضوء خَرَجَتْ خطيابه من جسده ؛ حتّى تخرج من تحت أظافره . السيد الجميلي : الإعجاز الطبي في القرآن ، تقديم : محمد متولّي الشعراوي ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت 1990 م ، ص. 207 ؛ الفنجري : المرجع السابق ، ص. 18 ، 19 ؛ أسماء يوسف أحمد آل ذياب : الرعاية الصحيّة في القرن الأول الهجري جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة) 1432هـ / 2011 م ، ص 53 .

(²) نظافة الجسد : من أبرز أسرار الطبّ الوقائي في الإسلام أن جعلَ التّظافة أمراً تعبدياً ؛ ممّا يجعل فيها روحاً و ديمومةً . و قد سنّ لنا رسول الله صَلَّى الله عليه و سلّم الغسل في مواقف عديدة ؛ كالغسل من الجنابة و الحيض و النفاس و الجمعة و العيدين و غيره . كلّ ذلك من شأنه أن يجعل المسلم متميزاً في نظافته . الفنجري : المرجع السابق ، ص. 24 .

(³) نظافة الفم : لم يهتم أيّ نظام بنظافة الفم كالإسلام ؛ حيث أنّ نظافة الفم تَرُدُّ في الوضوء (المضمضة) ، و خلخلة الأسنان من بقايا الأكل و استعمال السواك في جميع الأوقات ؛ حتّى أثناء الطعام . الفنجري : المرجع نفسه ، ص. 24 .

(⁴) سنن الفطرة : و هي التعليمات الواضحة التي أطلقَ عليها رسول الله صَلَّى الله عليه و سلّم ؛ و تتمثّل في الإستحداد ، الختان ، قصّ الشارب ، نتف الإبط ، و تقليص الأظافر . النَّسائي ؛ عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن عليّ : المجتبي من السنن ؛ المشهور ب : سنن النَّسائي " ، تحقيق : الشيخ الألباني ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض (المملكة العربية السعودية) 1420 هـ / 1999 م ، ص. 20 .

واحدًا} (1) ، و عن حفصة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَجْعَلُ يَمِينَهُ لِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَثِيَابِهِ ، وَ يَجْعَلُ شِمَالَهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ (2) .

و من أهمّ التعاليم الشرعية التي تحفظ سلامة الأبدان و تقي الجسم من الأمراض هي الرياضة البدنية ؛ إذ حثّنا نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعليم أبنائنا الرّماية و السباحة و ركوب الخيل و تحمّل الأعباء ، كما رغب في العمل و النّشاط و الحركة و البكور ، و كلّ ما من شأنه أن يُقوّي أجسامنا ، و حدّر من التباطؤ و التكاثر و أخبرنا أنّ المؤمن القويّ خيرٌ و أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف و في كلّ خير ؛ لأنّ أصحاب الإيمان القويّ أقدر على الجهاد و تحمّل المشاق في سبيل الدّين و الوطن . إضافةً إلى كلّ هذا ؛ فإنّ الإسلام دين اعتدالٍ في كلّ شيءٍ ؛ فَحَرَّمَ إِرْهَاقَ الْبَدَنِ بِالْعَمَلِ وَ طَوَّلَ السَّهْرَ وَ الْجُوعَ وَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي صُورَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَقَدْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُومَ اللَّيْلَ فَلَا يَنَامُ ، وَ الثَّانِي أَنْ يَصُومَ الدَّهْرَ فَلَا يُفْطِرُ ، وَ الثَّلَاثُ أَنْ يَعْتَزِلَ النِّسَاءَ فَلَا يَتَزَوَّجُ ، وَ قَالَ لَهُمْ : { أَمَّا وَاللَّهِ ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ إِلَى اللَّهِ وَ أَتَقَاكُمْ لَهُ وَ لَكِنِّي أَصُومُ وَ أَفْطِرُ ، وَ أُصَلِّي وَ أَرْقُدُ ، وَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي } (3) .

أمّا فيما يتعلّق بالطعام ؛ فقد قام الإسلام بتنظيم و تحديد ما يأكله المسلم و مقدار ما يأكل ، و كيف و متى يأكل ؛ فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ أَعْمَلُوا صَالِحًا ؛ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } (4) ، و قال

(1) (المنذري ؛ عبد العظيم بن عبد القويّ الحافظ (ت 656 هـ) : مختصر سنن أبي داوود ، تحقيق : الشيخ الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض

(المملكة العربية السعودية) 1431 هـ / 2010 م ، ط 1 ، ج 1 ، ص . 31 .

(2) نفسه .

(3) (البخاري : المصدر السابق ؛ ج 3 ، ص . 427 ، رقم الحديث 5063 .

(4) (الآية 51 من سورة المؤمنون .

أيضاً : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُّ وَ لَحْمُ الْخَنزِيرِ وَ مَا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَ الْمُنْخَنِقَةُ (1) وَ الْمُوقُودَةُ (2) وَ الْمَتْرَدِيَّةُ (3) وَ النَّطِيحَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ؛ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ ، وَ أَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ... } (4) ؛ وَ قَالَ أَيضاً : { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } (5) . وَ قَدْ أُثْبِتَتِ الأبحاث أنّ لحم الخنزير مثلاً عسير الهضم لإحتوائه على الدهنيات أكثر من أيّ لحمٍ آخر (6) ، كما أنّه مصدر للعدوى " بديدان التريخيلا " الّتي تُسبّبُ آلام روماتيزية شديدة في العضلات ، كما أنّها مصدر للعدوى بـ "الدودة الشريطية " (7) هذا فضلاً على أنّ أكل لحم الخنزير لا يُمكن التّقيّة بأقواله و لا بوعوده و لا في صحّته ، و لا يُعتمد عليه في في المسائل القيادية أو المالية ؛ فهو سريع الغضب ، ضعيف الإرادة ، شارد الذّهن ، كثير الهواجس و الأوهام ، فاشلاً في عمّله ، مُشاغباً في بيّته ، عديم الثقة في زوجته و أولاده (8) .

(1) المنخنقة : من المعروف علمياً أنّ الكائن الحيّ إذا احتنق ؛ فإنّه يتراكم في جسمه ثاني أكسيد الكربون السّام ، كما تتراكم جميع الإفرازات السامة الّتي تخرج عادةً من النّفس في عملية الزّفير ، و هذه المواد إذا احتسبت عادت لتمتصّ في الجسم و تُحدث التسمّم في كلّ أنسجته ، ثمّ الوفاة . الفنجري : المرجع السابق ، ص. 43 .

(2) الموقودة : هي الحيوان الذي يُضرب ضرباً يُؤدّي إلى الموت ؛ بعد أن يُثْلِف الضرب أنسجة الجسم و عضلاته . الفنجري : المرجع نفسه ص. 43 .

(3) المتردية : هي من مات عن حادثٍ ؛ كدهم السيّارة أو السقوط من مكانٍ عالٍ ، و كلاهما يُفسد لحمه . الفنجري : المرجع نفسه ، ص. 43 .

(4) من الآية 3 من سورة المائدة .

(5) الآية 118 من سورة الأنعام .

(6) أسماء يوسف : المرجع السابق ، ص. 48 .

(7) الدودة الشريطية : هي دودة يتراوح طولها من 6 إلى 8 أمتارٍ ، بما قرابة 800 قطعة ، لها رأسٌ به أربع ممصّاتٍ وَ صَفَانٍ من الأشواك الكلاية

يبلغ عددها من 22 إلى 32 شوكة ، و تقع اليرقة في عضلات الخنزير ، و تنتقل إلى الإنسان بعد تناوله للحم الخنزير ؛ فتتحزّر اليرقة و تذوب في أمعاء

الجسم و تسري في الدّم ، و قد تصلُ إلى المخّ ؛ فيُصاب الشخص بتشنّجٍ عصبيّ و نوبات صرّع . السيّد الجميلي : المرجع السابق ، ص. 115 .

(8) الفنجري : المرجع السابق ، ص. 262 .

وقد نهى ديننا الحنيف عن الإفراط في الأكل ؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى السمّنة و تصلّب الشرايين ، و بالمقابل فرض صيام شهر رمضان ؛ إذ أثبتت الدراسات الحديثة أنّ الصيام و تقليل الطعام خير علاج ؛ ذلك أنّ المعدة بيت الداء و الحمية رأس كلّ دواء⁽¹⁾ . و بالتالي فإنّ شهر رمضان من الناحية الصحيّة كالإجازة السنويّة للموظف ؛ فهو يُريح المعدة و يُذيب بعض ما تراكَم من دهنيات في الجسم . و للإسلام أيضاً نظرية الاعتدال في الطعام ؛ مصداقاً لقوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا ؛ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (2) ؛ أيّ أنّه نهى على الإسراف في الطّعام و الشّراب خشية الإضرار بالبدن .

لقد حرّم الإسلام كلّ ما من شأنه أن يُذهب العقل و يُلحق الضرر بالنفس و الآخرين ؛ كتعاطي الخمر و الإدمان على المخدرات و المسكّرات ؛ و نحن نعلم تأثيرها على العقل و وظائف الكبد الحيوية اللازمة للحياة بل إنّ الرسول صلّى الله عليه و سلّم أرشدنا إلى كمّيّة الماء التي يجب علينا أن نشربها يومياً ؛ و التي تتوقّف على ما يفقده الجسم من الماء و البول و العرق و النّفس ؛ ليظلّ حجم الدّم في الجسم ثابتاً ، و أخبرنا أنّ من كثّر شربه كثّر دمه ، و من كثّر دمه طال نومه ، و من طال نومه قلت بركته عمره ، و العكس صحيح ؛ أيّ أنّ من قلّ شربه قلّ دمه ، و من قلّ دمه طال نومه ، و من قلّ نومه زادت بركته عمره ؛ لزيادة ساعات العبادة و العمل .

إضافةً إلى تنظيم الأطعمة و الأشربة التي يتناولها المسلم ؛ فإنّ الإسلام حرّم الفواحش ؛ ما ظهر منها و ما بطن كالزّنا و اللواط و كلّ ما يُفضي إليهما من أمراض جنسية خطيرة ، و نظراً لما لهذه الممارسات الخاطئة من آثار سلبية على صحّة الفرد و المجتمع ؛ فقد حرّم الله عزّ و جلّ مجرّد الإقتراب منها و التفكير فيها ؛ مصداقاً لقوله تعالى : { وَ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلاً } (3) .

(1) المرجع نفسه ، ص. 13 .

(2) الآية 31 من سورة الأعراف .

(3) الآية 32 من سورة الإسراء .

و ما يُمكنُ قوله في الأخير ؛ أنّ الطبّ الوقائي في الإسلام أُرست قواعده منذ أربعة عشر قرناً من الزمن ؛ يوم كان العالم في سُبَاتٍ عميق ، و جاءت هذه الأسس على شكل تعاليم ؛ تتضمن أوامر و نواهي يُمارسها المسلم تعبداً لله تعالى ؛ و إن كان لا يعلم حقيقة فوائدها الصحيّة ، و إنّما يُمارسها إمتثالاً لأمر الله ؛ فالطبّ الوقائي يقوم على نظرية الوقاية ؛ إذ تتولّى تلك القواعد الوقائية قيادة أمر المسلم قبل وُقوعه فريسةً للأمراض ، و لا تنتظره حتّى يمرض لتباشر عملها ؛ فهي تسدّ عنه كلّ نافذةٍ قد تُؤذيه و تَضَع دونهما الحواجز و العراقيل حتّى لا تَصِلَ إليه ، و عندما تقدّمت العلوم في القرون الأخيرة ، و اكتشفت الأمراض و مسبباتها ، و عُرفت الجراثيم و وسائل إنتقالها و ظروف معيشتها ؛ بدّأت تتكشف لنا تلك الحقائق الصحيّة و الحِكَم الطبيّة المذهلة التي تنطوي على التعاليم الإسلاميّة الخالدة ؛ التي لم تترك جزءاً من الطبّ الوقائي إلّا و أشار إليه بعموميات ؛ فزادتها نوراً على نور ؛ تاركةً المجال لعقل الإنسان و مختراته ليبحث على هداها .

3. البحث على المعالجة و البحث عن الدواء الصحيح :

إنّ المبادئ التي قامت عليها حضارة الإسلام ؛ أنّها جمعت بين حاجة الجسم و حاجة الرّوح ، و اعتبرت العناية بالجسم ضرورة لتحقيق سعادة الإنسان ، فكان الرسول صلّى الله عليه و سلّم أحرص النّاس على ذلك فقد وردت نصوص نبوية صريحة ؛ تفتح المجال أمام المسلمين للاجتهاد في الأمور الكونية ، التي تستند إلى علوم لا تدخل في مهمّة رسالته ، و لكن ضمن الإطار الأخلاقي ؛ أي تُستخدم لمنفعة النّاس ، و صالح الإنسانية و منها قوله صلّى الله عليه و سلّم : { أنتم أعلم النّاس بديناكم } ⁽¹⁾ . و لعلّ من النصوص النبوية البارزة التي تحثّ على ممارسة الطبّ ، هو ما رواه جابر ، عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أنّه قال : { لكلّ داءٍ دواء فإذا

(1) مسلم : المصدر السابق ، ج 10 ، ص. 141 .

أصاب دواء الداء برأ بإذن الله عزّ وجلّ { (1) ، و روى أسامة بن شريك قال : قال رسول الله عليه و سلّم :
 { تداووا فإنّ الله لم يضع داءً إلّا وضع له دواءً ، غير داءٍ واحدٍ ، المهرم } (2) ، و عن ابن مسعود ، أنّ الرسول
 صلّى الله عليه و سلّم قال : { إنّ الله لم ينزل داءً إلّا أنزل له دواءً ، علمه من علمه ، و جهله من جهله } (3)
 و عُرف عن رسول الله أنّه كان يأمر بالعلاج عند الأمهر و الأتقن ؛ حتّى و لو كان الأمر يتعلّق بالمرأة أو المشرك
 حين أمر أن يُعالج "سعد بن معاذ" (4) عند الصحابية الجليلة "رفيدة" (5) ، لأنّها ماهرة في الطبّ ؛ مع أنّ
 البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعد ألفت معالجة المرأة للرجل ، و لكن لعلمها بالطبّ ، و إتقانها له ، كانت لها

(1) ابن بلبان ، الأمير علاء الدين علي الفارسي (ت 739 هـ) : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1414 هـ / 1993 م ، ط. 2 ، مج. 13 ، ص. 427 .

(2) أبو داوود : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 125 ؛ الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي : الجامع الصحيح ، تحقيق : أحمد محمد شاكر و آخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص. 2038 ؛ السندي : المصدر السابق ، ص. 339 . ؛ البيهقي ، أبو بكر أحمد : شعب الإيمان تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1410 هـ / 1990 م ، ط. 1 ، ج 2 ، ص. 200 .

(3) ابن بلبان : المصدر السابق ، مج. 13 ، ص. 427 .

(4) سعد بن معاذ : هو سعد بن معاذ بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ، كنيته " أبو عمرو الأمسي الأنصاري " ، مات بالمدينة في عهد النبي صلّى الله عليه و سلّم ، بعد قريضة ، و هو الذي قال في شأنه الرسول صلّى الله عليه و سلّم : { إهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ } . البستي ، أبو حاتم محمد بن حبان (ت 354 هـ) : تاريخ الصحابة ، تحقيق : بوران الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1408 هـ / 1988 م ، ص. 112 .

(5) رفيدة : هي كعبية بنت سعد الأسلمية ، المعروفة باسم " رفيدة الأسلمية " ، صحابية جليلة من بني أسلم ، اشتهرت رضي الله عنها بتضميد الجروح ، لذا كانت تصحب جيوش المسلمين المقاتلين ضدّ المشركين ، كما تواتر أن أقيم لها خيمة خاصة و بارزة في مسجد النبي صلّى الله عليه و سلّم كمستشفى لعلاج المرضى و المصابين بالجراحة ، تعتبر أول ممرضة في الإسلام ، ذاع صيتها بين معاصريها في فنّ الجراحة ، لهذا السبب اختارها الرسول صلّى الله عليه و سلّم لعلاج سعد بن معاذ ، عندما أصيب برمية قويّة في غزوة الخندق . ابن هشام ، أبي محمد بن عبد الملك : السيرة النبوية دار الكتب العلمية ، بيروت 1419 هـ / 1998 م ، مج. 2 ، ص. 142 ؛ علي بن عبد الله الدقّاع : رواد علم الطبّ في الحضارة العربية الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1419 هـ / 1998 م ، ط. 1 ، ص. 142 .

هذه المكانة السامية ⁽¹⁾ ، كما أمر الرسول صلّى الله عليه و سلّم سعد بن أبي وقاص ⁽²⁾ أن يأتي الحارث بن كلدة ⁽³⁾ ليعالج عنده ؛ مع أنّ هذا الطبيب لم يثبت إسلامه بعد ، و لكن لإتقانه لحرفته و مهارته فيها ، قبل الرسول أن يعالج عنده مسلم ⁽⁴⁾

رابعاً. تطوّر صناعة الطبّ في العصر العبّاسي :

لقد أدرك المسلمون من خلال هذه النصوص النبوية الصريحة ، أنّ علم الطبّ يحتاج إلى الإجتهد ، و دوام النظر و البحث ، فلم يقفوا عند حدود الطبّ النبوي الذي عُرف عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ، و الذي كان قائماً على الرقية و الحجامة ، و التداوي بالعسل و التمر والأعشاب الطبيعية ، مع إيمانهم بفضله و بركته و إنّما حاولوا الاستفادة من إسهامات الأمم الأخرى في هذا الميدان خاصةً اليونانيين ، و دأبوا على قراءة مؤلفاتهم

⁽¹⁾ راغب السرجاني : قصة العلوم الطبيّة في الحضارة الإسلامية ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة ، 1426 هـ / 2009 م ، ط. 1 ، ص. 31 .

⁽²⁾ سعد بن أبي وقاص : هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف ؛ المكّي ب " أبي إسحاق " ، صحابيّ جليل ، من الأوائل الذين دخلوا في الإسلام و أحد المبشرين بالجنّة ، أسلم و هو في ابن سبع عشرة سنة ، كان أول من رمى بسهم في سبيل الله ، و قائد الجيش الإسلامي في معركة القادسية سنة 14 هـ ، توفي سنة 55 هـ . ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم : المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة 1934 م ط 4 ، ص. 241 ، 242 ؛ منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 237 .

⁽³⁾ الحارث بن كلدة : هو الحارث بن كلدة بن عمر بن علال الثقفي ، و كان من الطائف ، عاش في الجاهلية و الإسلام تعلّم الطبّ في بلاد فارس و أخذ يدرس في جنديسابور و يلاحظ ، و قد دامت مدّة أبحاثه هناك مدّةً طويلةً . لما مرض سعد بن أبي وقاص بمكة ، عاده الرسول صلى الله عليه و سلّم ، ثمّ دعا له الحارث بن كلدة ، فعندما حضر تأمّله ، ثمّ أعلن أن لا بأس عليه ، و أعطاه وصفةً من التمر و الحلبة و السمن تُطبخ ، ثمّ يحسوها فعملوا له ذلك فشفي ، و بقي يداوي طيلة عهد الخلفاء الراشدين ، و قد سأله مرّةً الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : ما الدواء ؟ فقال الحارث الأزم ؛ أي الحمية ، و قد سُمّي يومذاك " طبيب العرب " . ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبي العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د س ط) ، ص. 161 - 167 ؛ علي شلق : العقل العلمي في الإسلام ، منشورات جروس برس ، طرابلس (لبنان) 1413 هـ / 1992 م ، ص. 27 ؛ حسان الحلاق : مقدمة في تاريخ العلوم و التكنولوجيا ، الدار الجامعية ، 1990 ، ص. 32 ؛ الشطّي : المرجع السابق ، ص. 31 .

⁽⁴⁾ راغب السرجاني : المرجع السابق ، ص. 31 .

الطبيّة⁽¹⁾ التي كانت تعجّ بها المكتبات خاصة في مدرسة الإسكندرية⁽²⁾ و جنديسابور⁽³⁾ ، ثمّ عكفوا على ترجمتها⁽⁴⁾ .

بلغت الترجمة ذروتها في العصر العبّاسي ؛ نتيجةً لحرص خلفاء بني العبّاس على العلم و المعرفة و تشجيعهم لترجمة كنوز الأمم الأخرى من الكتب و المؤلّفات⁽⁵⁾ ، و تأسيسهم للمدارس الطبيّة و المستشفيات ؛ و أوّلوها عنايةً فائقةً⁽⁶⁾ . وما يمكن قوله في هذا الصدد ؛ هو أنّ المسلمين كان لهم دورٌ كبير في الحفاظ على تلك

(1) الدقّاع : رُوّد علم الطبّ في الحضارة العربية الإسلامية ، ص. 68 ؛ عبد العزيز بن عبد الله : " تعليم الطبّ بالمغرب و العالم الإسلامي " مجلة الأكاديمية ، العدد 5 ، المملكة المغربية ، ربيع الثاني 1409 هـ / ديسمبر 1988 ، ص. 29 ؛ نشأت الحمارنة : " فضل دمشق في تطوّر الطبّ بين العصرين النوري و المملوكي " ، مجلة التراث العربي ، العدد 55 ، سوريا ، ذي القعدة 1414 هـ / أبريل 1994 ، ص. 144 .

Fuad sezin , **ISLAMIC MEDCINE** , Istiture for gistory of Arabic Islamic , science at johann wolfgang Goethe university , Frankfurt (germany) 1996 , p 28

(2) الإسكندرية : مدينة مشهورة في القطر المصري واقعة على البحر الأبيض المتوسط ؛ إلى الشمال الغربي من مدينة " القاهرة " . و قد أجمّع المؤرّخون على أنّ " الإسكندر المقدوني الأكبر " هو الذي بناها ؛ بعد أن خرّب مدينة " صور " سنة 332 ق . م ، و استولى على مصر ، و قد أحسنَ بناها . أحمد الخانجي: منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ، مطبعة محمد إسماعيل ، القاهرة 1325 هـ / 1907 م ، ط 1 ، المجلّد التاسع ، ج 1 ، ص. 256 .

(3) جنديسابور : مدينة قريبة من الأحواز الحديثة ؛ الواقعة في جنوب فارس ، و يرجع مستشفاها و مدرّستها الطبيّة إلى الملك " سابور الأوّل " (ت 271 م) . الألبيني ، مؤيّد عيدان كاطع : الاتجاهات الفكرية و السياسية في العصر العبّاسي ، دار تحكّاة للدراسات ، دمشق (سوريا) 2012 ، ص. 24 .

(4) حنان قرقوني : من العلوم عند المسلمين ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت 1427 هـ / 2006 م ، ص. 156 ؛

Gustave Le Bon : **La Civiltion Des Arabes** , Casbah éditions , Alger 2009 , p 445 .

(5) Rosdi Rashed : **Histoire des sciences arabes** , édition du seuil , paris 1997 , tome 3 , p 157 .

(6) العيدروس محمد حسن : تطوّر الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية في العصر العبّاسي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة 1432 هـ / 2011 ، ص. 293 ؛ عفيفي ، محمّد الصادق : تطوّر الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1997 م ، ص. 37 ، 38 .

الكنوز ، و إنقاذها من الضياع من خلال ترجمتها إلى العربية لأنها كانت حبيسة الكهوف و المغارات ، و زوايا النسيان في بعض المخازن⁽¹⁾ ، و بالتالي ركّز المسلمون على تطبيق تلك النظريات و تجربتها على المرضى بمختلف الظروف و الأحوال ؛ فتمسّكوا بما ثبّت صلاحه للممارسة و نبذوا سواه ، أو طوّروه إلى الأفضل و المفيد في الصنعة فظهرت تعليقاتهم النفيسة و شروحهم على الكتب اليونانية التي لم تتوفّر في متونها الدقّة أو الوضوح ؛ بسبب التكرار أو الزكّاة في التعابير و بذلك لم يبق من علوم اليونان في طبّهم إلاّ الشئى المهمّ و الأساسى . و بالرغم من أنّ المؤلّفين العرب في الطبّ قد اعتمدوا في بعض مواضيعهم على المؤلّفات الفارسية و اليونانية و الهندية ؛ فإنّهم في مؤلّفاتهم الكثير من المبتكرات و الأعمال الأصلية التي لم يسبقها إلى معرفتها أحد . بالإضافة إلى أنّهم أحسنوا تدوين المعارف و توزيعها .

إنّ عملية الترجمة و الإطّلاع على تجارب الأمم الأخرى ، و الإستفادة من مؤلّفاتها في مختلف العلوم لاسيما الطبّ ، يُثبت أنّ الحضارة الإسلامية كانت متفتّحة تمام الإنفتاح في أمور العلوم الحياتية ، و لم يكن هناك حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غيرهم ، إذ كانوا يعتبرون هذه العلوم ميراثاً إنسانياً ، يستفيد منه الجميع ، بما في ذلك الأمة الإسلامية⁽²⁾ .

(1) عفيفي محمّد الصادق : المرجع السابق ، ص. 42 ؛ الدقّاع : المرجع السابق ، ص. 75 ؛ حميد موراني : تاريخ العلوم عند العرب ، دار المشرق ، بيروت 1989 ، ص. 51 ، 52 .

(2) عبد العزيز بن عبد الله : تعليم الطبّ بالمغرب و العالم الإسلامي ، مجلّة الأكاديمية ، العدد 5 ، ربيع الأوّل 1409 هـ / ديسمبر 1988 م ، ص. 165 .

1. المناهج الطبية عند أطباء العصر العباسي :

لم يكتفِ المسلمون بترجمة تلك المؤلفات الطبيّة ، و إنّما قاموا بتعديلها و تصحيح ما بها من أخطاءٍ تتّجاه نظريات بعينها ؛ مثل ما قام به الطبيب " ابن النفيس " ⁽¹⁾ ؛ حين اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، و عارض النظريات اليونانية السابقة ⁽²⁾ ؛ لاسيما " أبقراط " ⁽³⁾ ، و " جالينوس " ⁽⁴⁾ . و بالتّالي تمكّن المسلمون من وضع معارف طبيّة خاصة بهم ، و منهج جديد يعتمد على التجربة و المشاهدة و الفروض ، و ليس منهجاً

(1) ابن النفيس : علاء الدين بن أبي الحزم (ت 687 هـ) : طبيب عربي مشهور ، ولد في دمشق ، و سافر إلى مصر ، و هو أوّل من وصف الدورة الدموية الصغرى في كتابه (شرح تشريح القانون لابن سينا) ، و لكن المشتغلين بتاريخ الطبّ لم ينتبهوا إلى ذلك ، إلّا في النصف الأوّل من القرن العشرين ، من آثاره : (الموجز في الطبّ) ، (بُغية الطالبين و حجة المتطهين) ، (فاضل بن ناطق) ؛ و قد جعله على نمط (حيّ بن يقظان) لابن طفيل . منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 39 ، 40 ؛ يوسف فرحات : علماء العرب ، الشركة المشرقية للمطبوعات (د م ط) 1986 ص. 241 ؛ عبد العزيز خضر عباس : " الطبّ العباسي " ، مجلّة آفاق التراث و الثقافة ، العدد 34 ، دبي ، الإمارات العربية المتّحدة ، 1422 هـ / 2001 م ، ص. 202 .

(2) أحمد عبد الحليم عطية : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة 1991 ، ص. 359 .

(3) أبقراط (377 . 460 ق م) : طبيب يوناني ، يُعتبر أبا الطبّ ، عمل على تحرير الطبّ من الخرافات ، و حاول إقامته على أساس علميٍّ ؛ مُؤكّداً أهميّة الملاحظة السريرية ، و يُقال : إنّه وضع مبادئ للأخلاق الطبيّة ؛ فرضها على تلاميذه ، و هي مبادئ تتضمّن اليمين ؛ الذي لا يزال الأطباء يُقسمونها حتّى اليوم في حفل التخرّج . ابن جلجل ، سليمان بن حستان الأندلسي : طبقات الأطباء و الحكماء ، تحقيق : فؤاد سيّد ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار ، القاهرة 1955 ، ص. 16 ؛ منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 15 .

(4) جالينوس (129 . 199 ق م) : طبيب يوناني ، يُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة ، أسّس الفيسيولوجيا التجريبية ، وضع عشراتٍ من المؤلفات في علمي التشريح و الفيسيولوجيا ؛ سيطرت على الفكر الطيّ في أوربا طوال القرون الوسطى و عصر التّهضة ، و قد أقام الدليل في آثاره هذه = على ما يتميّز به تفكيره من أصالةٍ ، و نزعةٍ إلى الإختبار ، و من أجل ذلك ؛ عدّها بعض المؤرخون المعاصرون أحد الأسس التي قام عليها الطبّ الحديث . ابن جلجل : المصدر السابق ، ص. 41 ؛ منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 156 .

فلسفياً نظرياً بحتاً مثل ما كان عليه عند اليونانيين و الفرس ؛ و الذي لا يمكن تطبيقه في كثيرٍ من الأحيان ⁽¹⁾ .

و هكذا إعتد الأَطبَاء المسلمون على المنهج التجريبي في علم الطبّ ، و كانوا يقومون بطرق مختلفة و متعدّدة للعلاج ، و ملاحظة الفروق ، و تسجيل ذلك بعناية و دقّة ؛ فكانوا يُدوّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة ، و يحاولون إبتكار العلاج المناسب لكلّ حالةٍ ، و في هذا الصدد يقول الطبيب المشهور ابن سينا ⁽²⁾ :
 " ... و تعهدت المرضى ، فانفتح عليّ من كلّ أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف ... " ⁽³⁾
 و يقول الرازي ⁽⁴⁾ : " ... عندما تكون الواقعة تُواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة ، يجب قبول الواقعة حتّى و إن أخذ الجميع بالنظرية السائدة ، تأييداً لمشاهير العلماء ... " ⁽⁵⁾ . و إنطلاقاً من هذا المنهج الجديد ؛ لم يقبل المسلمون بالنظريات و الأدوية القديمة التي إستخدمها قدماء اليونانيين و الفارسيين ، و إنّما عملوا على تأسيس نظريات جديدة قائمة على التجربة و الواقع ، و إبتكار أدوية جديدة لمعالجة مختلف الحالات المرضية .

إنّ إتباع المسلمين لمنهج جديد في الطبّ لا يعني بالضرورة أنّهم تخلّوا عن مؤلّفات الأمم السابقة ، أو لم يستفيدوا منها ، بل العكس ؛ فقد نقلوا عن أطبّاءهم ، و إعتدوا على بعض نظرياتهم ، و أعطوا التقدير و الإحترام الكافيين ، و نسبوا إليهم نظرياتهم و منجزاتهم ، و هو ما أثبت أمانة و نزاهة أغلب الأَطبَاء المسلمين هذه الأمانة العلمية المشرفة كانت بالفعل من أهمّ مناقب علماء المسلمين ⁽⁶⁾ ، خاصة أنّ المعاصرين من أبناء

(1) حسان حلاق : المرجع السابق ، ص. 35 ؛ أحمد أمين : المرجع السابق ، ج 2 ، ص. 10 .

(2) لمعرفة هذه الشخصية ؛ أنظر الفصل الرابع من هذا البحث ، ص. 161 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 438 .

(4) لمعرفة هذه الشخصية ؛ أنظر الفصل الرابع من هذا البحث ، ص. 139 .

(5) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 420 .

(6) قدرتي حافظ طوقان : العلم مع الحياة ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1407 / 1987 ، ط. 2 ، ص. 99 .

الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم ، و بالتالي كان من السهل سرقة أبحاثهم لولا البعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين . وفي هذا الصدد ؛ يضرب لنا الرّازي مثلاً فريداً في عصره عن الأمانة العلمية ، إذ جمع في كتابه (الحاوي) آراء أسلافه في جميع الأمراض ، ناسباً كلّ فكرةٍ إلى قائلها ، مُبدياً بعد ذلك رأيه ، مُرّجحاً أو ناقضاً أو مُتحمّظاً ؛ مُتخذاً تجربته السريرية دليلاً ، كما نجد في (الحاوي) ملاحظات و مشاهدات سريرية كثيرة و قصصاً عن ممارسته (1) .

إضافةً إلى كلّ ما ذكرناه سابقاً ، فإنّ المسلمين تميّزوا عن غيرهم من الأمم الأخرى في ممارسة الطبّ ، إذ لم يجعلوه حكراً عليهم حتّى في زمان قوّة دولتهم ، و لأنّهم كانوا ينظرون للطبّ على أنّه ميراث إنساني ، فتحو المجال أمام غيرهم من أطباء الأمم الأخرى ليساهموا بإنجازاتهم ، و قد رأينا سابقاً أنّ الرسول صلّى الله عليه و سلّم كان سبّاقاً لذلك ، حين أمر سعد بن أبي وقاصّ بالعلاج عند الحارث بن كلدة ؛ بالرّغم من علمه بأنّه مازال مشركاً ، و بعد وفاته صلّى الله عليه و سلّم ، حذا المسلمون حذوه ، و فتحو الباب أمام الأطباء من غير المسلمين ؛ خاصةً في العصر العبّاسي ؛ فظهرت أسماء نصرانية و يهودية مؤثّرة في الطبّ ، سنحاول مستقبلاً بحول الله تعالى أن نخصّص لها بحثاً ؛ و نكتفي بذكر عائلة "بختيشوع" (2) النصرانية ، التي ظلّت تحترف الطبّ لثلاثة قرون كاملة ، و نالت مكانةً عظيمةً في البلاط العبّاسي (1) .

(1) محمد ياسر زكور : " رسالة أبي بكر الرّازي في الرّكّام التحسيسية " ، مجلّة : آفاق الثقافة و التراث ، العددان 22 ، 23 ، 1419 / * 1998 ، ص. 205 .

(2) بختيشوع : و معنى هذه الكلمة " عبد المسيح " ، و عائلة بختيشوع هي عائلة سريانية ؛ إمتهنت الطبّ ، و خدمت في البلاط العبّاسي لعشرات السنين ، و لعلّ من أبرز أفرادها " جبرائيل " ، هذا الطبيب الذي خدم الرّشيد و الأمين و المأمون و الواثق ، و طسب بالطبّ ما لم يكسبه مثله ؛ ألف كتباً عديدةً في الطبّ ، أشهرها كتاب (التذكرة) ، و قد سار على دربه أبنائه و أحفاده من بعده . ابن التّمم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت 385 هـ) : الفهرست ، تحقيق : رضا المازندراني ، دار المسيرة ، طهران (إيران) 1988 م ، ط 3 ، ص. 354 - 355 ؛ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص. 63 ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 186 ؛

لقد تبيّن لنا ممّا سبق أنّ الأطباء المسلمون قد وَضَعُوا أسساً للصحة البدنية ؛ تعتمد على صحّة الهواء الذي يتنفسه الإنسان ، و الإهتمام بالطعام و الشراب ، و الحركة و السكون ، و النوم و اليقظة ، و إحتباس الفضلات الجسمية ، و تعديل الأعراض النفسانية ، أو ما يتعلّق بصحة النفس . و من أهمّ متطلّبات الصحة : نظافة أعضاء الجسم ؛ كاليدين و الوجه و الفم و الأذنين و القدمين و الإستحمام ، و تنظيف الأسنان ، و العناية بالعين و السّمع و أوقات الطعام ، و عدم التخمة ، و قالوا بضرورة إجراء الحركات الرّياضية ، و اعتنوا أيضاً بصحة المرأة و فصلوا تفصيلاً دقيقة عن الحيض و الحمل و الولادة ، و العناية بصحة الطفل ؛ من رضاعة و غذاء و غيرها (2) .

2 . مكانة الأطباء في العصر العبّاسي :

نال الأطباء في العصر العبّاسي مكانة هامة في المجتمع ؛ ميّزها الإحترام و التقدير من الجميع ؛ سواءً تعلّق الأمر بؤلاة الأمور ، أو عمارة الناس ؛ و ذلك بفضل شرف مهنتهم ، و الحاجة إليهم ، و في هذا الشأن ؛ حضبي هؤلاء بمكانة خاصة في البلاط العبّاسي ؛ إذ عدّ الخلفاء وجودهم إلى جانبيهم من مستلزمات الحكم ؛ للإشراف على صحتهم ، و صحّة أسرهم و حواشيهم ؛ فتكوّنت بذلك علاقات إجتماعية متينة بينهم ، و تطوّرت تطوّراً تدريجياً نتيجة هذا التفاعل المستمرّ بين الخلفاء و الأطباء ؛ إلى الحدّ الذي أصبح الطبيب أحد المدعوّين على موائد الخلفاء و لا يتناول الخليفة طعامه إلا بحضورهم (3) ، كما وجّه الخلفاء العبّاسيون عنايتهم إلى الأطباء ؛ من خلال مُتَابَعَتِهِمْ ، و الإهتمام بأمورهم الشّخصية ؛ من حيث سكّنتهم و ملبسهم و مشرّجهم و ماكلهم ، و بالتالي أقامت

Rosdi Rashed : op. cit , p. 163 .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 186 - 194 .

(2) عادل البكري : الطبّ الوقائي عند العرب ، مجلّة الجمّع العلمي العربي ، العدد 2 (أبريل 1970) ، دمشق (سوريا) ، ص. 269 .

(3) الرقاوي ، إسحاق بن علي (القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي) : أدب الطبيب ، تحقيق : كمال السامرائي و داوود سليمان علي دار

الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1992 ، ص. 141 - 144 .

هذه الحضوة الخاصة للأطباء عند الخلفاء إعتباراً رسمياً كبيراً لهم ، ميّزتهم في التقدير و الإحترام و النفوذ عن كبار رجال الدولة ؛ كالقضاة و القادة ؛ فكان لهم شرف المشاركة في المراسيم العامّة ؛ التي يشترك فيها أعيان الدولة و المجتمع ؛ و بخاصة مراسيم إستقبال و توديع الجيوش القادمة من بغداد ؛ و الخارجة منها ، و تهنئتها عند عودتها مُنتصرةً في الحرب (1) .

و مثلما أخذ الأطباء هذه المكانة عند الملوك و أفاضل الناس و خاصتهم ؛ فإنّ العامّة قد عبّروا عمّا يُكنونه للأطباء من التقدير و الإحترام ؛ و لعلّ المشاركة الواسعة في الإحتفاء بتعيين بعضهم أو في تشييعهم و دفنهم دليلٌ على هذه المكانة ؛ إذ أنّ طبيعة مهنة الطبّ ؛ ذات الصلّة المباشرة بالنّاس ؛ جعلت للطبيب دوراً فاعلاً في المشاركة في الحياة العامّة ، و لم تتمثّل هذه المشاركة من خلال ممارسة المهنة في المستشفيات فحسب بل تتمثّل أيضاً في معالجة المرضى في البيوت و السجون و مراقبة الجيوش و قوافل الحجّ ، و المساهمة في مكافحة الأمراض و الأوبئة و التصدّي للمشعوذين ؛ كما كانت معاملةً لهم للناس يطغى عليها الجانب الإنساني ؛ إذ كان الطبيب حريصاً على مداواة مرضاه ، دون تفریقٍ على أساس اللّغة أو الدّين أو الجنس أو العمر (2) .

3. أجور الأطباء في العصر العبّاسي :

لقد كان معظم أطباء العصر العبّاسي على درجةٍ عاليةٍ من الثّراء ، جعلتهم يُباهون الخلفاء في الزيّ و اللباس و ينافسون أصحاب الجّاه و المناصب الكبرى و السّلطة و النفوذ ؛ فكانت الدّولة تعدّهم من الطبقة الغنيّة و تُعاملهم على هذا الأساس (3) . أمّا عن موارد ثروتهم ؛ فهي عديدة ؛ أهمّها الأجور التي كانوا يتقاضونها نظير عملهم في البلاط العبّاسي ، أو بيوت الأمراء ، أو ترجمتهم للمؤلّفات الطّبيّة للأقدمين من أطباء اليونان و الهند

(1) اللّهيبي ، مؤيّد عيدان كاطع : المرجع السابق ، ص 108 .

(2) السّامرائي كامل : مختصر تاريخ الطبّ العربي ، دار الحرّية ، بغداد (العراق) 1984 ، ج 1 ، ص. 542 .

(3) اللّهيبي : المرجع السابق ، ص 54 .

أو مُقابلِ تدرّيسِهِم في المدارس ، أو علاجِهِم لِمختلفِ الحالاتِ المرضية . و ما يُقالُ في هذا الشّأن ؛ أنّ هذه الأُجور لم تُكن تخضع لِتشريعِ حُكومي ؛ إذ تُختلفُ حسبِ إختلافِ الظروفِ و العُهودِ و سخاءِ المرضى ؛ بما يجعلُها غيرَ ثابتة ، و تبقى سِرّاً بينَ المريضِ و الطبيبِ ، كما أنّ بعضَ الأطبّاءِ كان يُعالِجُ الفقراءَ بدونِ أجرٍ ؛ بما جعلَ أغلبِهِم يَحْضونَ بِالإِحْتِرامِ و التقديرِ و الشّناءِ من عَامةِ النَّاسِ (1) ؛ و هو ما أشرنا إليه سابقاً .

و مثلما كان للأطبّاءِ مواردٌ ثابتةٌ كالأجور ؛ كان لهم موارد غير ثابتة ؛ كالهباتِ و المساعداتِ التي كانت تأتي في أغلب الأحيان ؛ نتيجةً لِإنهاءِ خدمةِ الطبيبِ من العملِ ، أو للتبشيرِ بالحملِ ، أو لِشِفاءِ مريضٍ ، أو للإستشارةِ الطبيّةِ ، أو غير ذلك . و من المواردِ الأخرى التي كانوا يحصلُ عليها الأطبّاءُ ؛ تلك التي تأتي عن طريقِ الضياعِ التي مَلَكوها ؛ إمّا عن طريقِ الهبةِ أو المنحةِ من الخلفاءِ و الأمراءِ ؛ أو عن طريقِ شِرائِها ، فكانت هذه الضياعُ غالباً ما تُحقِّقُ لهم أرباحاً كبيرةً ؛ خاصّةً إذا كانت مساحتُها واسعةً أو غير ذلك (2) .

4 . المستشفيات في العصر العبّاسي :

عرف المسلمون الأبنية العامة الضخمة ؛ و منها البيمارستانات (3) ، و قد اهتمَّ بِبِنائها الحُكّام على إختلافِ أهميّتِهِم ؛ من الخلفاءِ و الوزراءِ ؛ و حتّى الأغنياءُ من عِليّةِ القومِ ، و عملوا على تجهيزِها بالمعدّاتِ

(1) المرجع نفسه ، ص 56 .

(2) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 185 .

(3) البيمارستان : لفظ فارسي ، مركب من " بيمار " و معناها مريض ، و " ستان " بمعنى محلّ و قد إتصل هذا المصطلح في العهد الأموي بالأمّاكن المُعدّة لمعالجة المرضى ، و أوّل من أقام بيمارستاناً لهذا الغاية من الخلفاء هو الوليد بن عبد الملك (97 - 99 هـ) ، حيث جعله للأبرص و المُقعّد الأعجمي ، ثمّ توالى الخلفاء من بعده بِإنشاءِ البيمارستانات . مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1416 هـ / 1997 م ، ط 1 ، ص 96 ؛ محمد فؤاد الذّاكري : الصناعة الطبيّة في بلاد الشام ، مجلّة :

و الأدوات⁽¹⁾ . و يُعتبر الخليفة الأموي " الوليد بن عبد الملك " (ت. 96 هـ / 714 م) أوّل من أمر ببناء المستشفى في الإسلام ثمّ سار على دربه الخلفاء الأمويون ، ثمّ خلفاء بني العبّاس ؛ فانتشرت البيمارستانات في أمصار الدولة الإسلامية و عمّت منافعها ، و أصبحت قبلةً للمصابين بمختلف الحالات المرضية ، و أسهمت في شفائهم ، و التخفيف من آلامهم و معاناتهم⁽²⁾ .

إنّ دور الطبيب في الخدمة العامة في البيمارستانات هو الدّور الأوّل و الأساس ؛ إذ يمتدّ هذا الدّور من بداية فكرة تأسيس البيمارستان ؛ و تقديم المشورة الصحيّة في إختيار الموقع الملائم ؛ من حيث التهوية و النّظافة ، إلى الخدمة فيه بالتطبّب و تقديم العلاج ، و لإجل ذلك ؛ كانوا حريصين على الإكثار من المستشفيات العامّة و المتخصّصة و المتنقّلة ؛ و ذلك من أجل تلبية الحاجة المتزايدة للعلاج ؛ بسبب ما تُخلّفه بعض الأوبئة و الأمراض من آثارٍ سلبيةٍ على الحياة الصحيّة العامة للنّاس⁽³⁾ ، و قد أدّى هذا إلى أن يكون ما يزيد عن أربعة عشر مستشفى في بغداد وحدها⁽⁴⁾ ، و العشرات في أقاليم الدولة العبّاسية ، و من أشهرها : بيمارستان الرّشيد⁽⁵⁾ ، البيمارستان الصاعدي⁽⁶⁾ ، البيمارستان المقتدري⁽⁷⁾ ، البيمارستان العضدي⁽⁸⁾ ، البيمارستان النّاصري⁽⁹⁾

(1) زجيريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون و كمال الدسوقي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة و النّشر بيروت

1969 م ، ط 2 ، ص. 229 .

(2) حنان قرقوتي : المرجع السابق ، ص. 178 .

(3) Pierre Vallas : : op. cit, p 181 .

(4) الّهبي : المرجع السابق ، ص 93 .

(5) انظر الملحق رقم 01 ، ص. 200 .

(6) انظر الملحق رقم 02 ، ص. 200 .

(7) انظر الملحق رقم 03 ، ص. 201 .

(8) انظر الملحق رقم 04 ، ص. 201 .

¹) و غيرها من البيمارستانات التي أصبحت تأخذ شكلاً حضارياً فائقاً ؛ إنتظمت بها مهنة الطبّ ، و أصبحت مهنة مرموقة لا يعبثُ بها المحتالون و السحرة و أنصاف الأطباء ؛ و هو ما سنُفصّلُ فيه في الفصل الثالث من هذا البحث .

لقد أوّلَى العباسيون بمواقع المستشفيات إهتماماً بالغاً ؛ ذلك أنّ إختيارها يخضع لعدّة معايير ؛ قوامها النظافة و جودة الهواء ، و صلاح الموقع ؛ فكانوا يُعلّقون اللّحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقتٍ واحدٍ ؛ فأَيُّها أُسرِعُ إلى التعنّن إجتنبوا مكانه ، و إختاروا فيه عوارض الفساد ؛ و هي طريقةٌ كانت من إكتشاف الطبيب المشهور " الرّازي " ؛ الذي كلّفه " عضد الدولة البويهي " باختيار موضع بناء البيمارستان ؛ و هو ما سنتطرّق إليه بالتفصيل فيما بعد ⁽²⁾ ، كما أنّ هذه الطريقة تُعني عن الأساليب العلمية المتبعة مؤخراً ؛ للكشف عن موقع الجراثيم .

إنّ ما ميّز المستشفيات في العصر العباسي هو تنوّع الخدمات الصحيّة ، و كثرة التخصصات ، و تعدّد الأجنحة إذ خُصّص كلّ جناحٍ لنوعٍ من الأمراض ، كما كان للمستشفى الواحد أجنحةً خاصّة للرجال ، و أخرى للنساء و الأطفال ، من مسلمين و أهل ذمّة ، أغنياء و فقراء ؛ و بالتّالي أصبحت كلّ مدينةٍ بها بيمارستان كبير عام على الأقلّ . و قد بلغ حرص الأطباء برؤاد المستشفيات إلى أن عملوا على تدفّيتها شتاءً و تبريدها صيفاً ، و توفير كلّ ما من شأنه أن يُحقّق الشفاء للمريض ؛ و في هذا الصدد ؛ كان المرضى يوضعون في قاعاتٍ تُعرّف فيها الموسيقى و تُعرض فيها التمثيليات الفكاهية ، و تُقرأ لهم بعض القصص المفرحة ، و كان المريض إذا غادر المستشفى ؛ أُعطي له مبلغٌ يكفيه شهرين ؛ كيلا يعمل في هذه الفترة عملاً مُجهداً يُؤثّر على صحّته . إضافةً إلى هذا ؛ فقد ألحقت

(1) انظر الملحق رقم 05 ، ص. 202 .

(2) لمزيدٍ من التفاصيل ؛ أنظر ص. 52 .

بالمستشفيات صيدليات ، و مكثبات ؛ تحوي مختلف المؤلفات الطّبية ؛ كان يرجع إليها الأطباء و الجراحون و الصيادلة لإثراء معارفهم الطّبية (1) .

إنّ الملاحظ من كلّ ما سبق أنّ الطبّ في الإسلام قام على أسسٍ و ضوابطٍ شرعيةٍ ، تستند إلى القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة ، و تضع حداً للتداوي بكلّ ما من شأنه أن يضرّ بصحة الإنسان ، أو يمسّ عقيدته فكان تحريم التداوي بالخمّر و النّجاسة و الكيّ و السّحر و الدجل و الشعوذة ، فأبّجه المسلمون نحو الطبّ النّبوي الذي أقرّه الرسول صلّى الله عليه و سلّم ، و الذي كان قائماً على التداوي بالرقية الشّرعية و الحجامة و الختانة و العسل و التمر و بعض الأعشاب الطّبيعية ، و بعد وفاته صلّى الله عليه و سلّم ، توجّه المسلمون نحو نقل و ترجمة المؤلفات الطّبية للأمم السابقة ، فلم يقفوا عند النّقل و الترجمة ، و إنّما أخذوا ما نقلوه ، ثمّ وصلوا إلى مرحلة الإبتكار و التّأليف ، و تناولوا ما نقلوه بالنّقد و التحليل ، و لم يكن هناك أدنى تردّد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق و الحذف ، و أحياناً بالإعتراض الكامل على المحتوى ، و بالتّالي أسّس المسلمون منهجاً جديداً خاصاً بهم في ميدان الطبّ ؛ قائماً على التجربة و الملاحظة و الأمانة العلمية ، فهذه خصائص عظيمة ساهمت في تطوّر هذا العلم ، و ميّزت المنهج الإسلامي في دراسة الطبّ عن غيره من المناهج ؛ كما أنّ الطيب حضي بمكانة هامّة عند ولاة الأمور ، و نال إحترام و تقدير من حوله من التّاس .

إنّ الطبّ الإسلامي الذي بلغ درجةً كبيرةً من التطوّر في العصر العبّاسي ؛ فتح المجال للجميع لممارسة مهنة الطبّ ؛ بما فيهم أهل الذمّة و الموالي ؛ اللّذين كان لهم الأثر البالغ فيما وصلت إليه هذا الصنعة من مكانة ؛ بفضل إسهاماتهم في مختلف التخصّصات الطّبية ؛ فازدهرت هذه الصنعة ، و زادت إبداعات الأطباء العبّاسيين و تضاعف عدد البيمارستانات و تحسّنت الخدمات الصحيّة في مختلف التخصّصات الطّبية ؛ و هو ما سنتطرّق إليه بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث .

(1) حنان قرقوبي : المرجع السّابق ، ص. 180 .

الفصل الثاني :

أهمّ الخدمات الصحيّة في العصر العبّاسي

1. رعاية المجانين .
2. الاهتمام بصحة المساجين .
3. رعاية ضحايا الأوبئة و الكوارث الطبيعية .
4. الطبّ النفسي .
5. طبّ النساء و الولادة .
6. طبّ الأطفال .
7. طبّ العيون .
8. طبّ الحيوان .

كما أشرنا إليه سابقاً ؛ فإنّ أطباء العصر العباسي لم يكونوا نَقَلَةً لتراث الأمم السّابقة في ميدان الطبّ و لم يكتفوا بترجمة و اقتباس مؤلّفات الأقدمين ؛ و إنّما تناولوا ما تناقلوه بالنقد و التحليل ، و عكّفوا على إثرائه بالشرح و الملاحظة ؛ فكانت آراؤهم إمّا ترجيحٌ للنظريات السابقة أو اعتراض عليها ؛ ممّا مكّنهم من تأسيس منهج علمي قائم على الملاحظة و التجربة و الاستقصاء ، و ابتكار معارف خاصّة بهم في مختلف التخصصات الطّبيّة (الطبّ النفسّي ، طبّ الأطفال ، طبّ النّساء ، طبّ العيون ... إلخ) ؛ دون الاستغناء على الجانب الإنساني في التعامل مع المرضى ؛ و هو ما تجلّى في رعاية الفقراء و المجانين و الاهتمام بصحة المساجين ؛ و التكلّف بضحايا الكوارث الطّبيعيّة و الأوبئة المعدية ؛ و بالتّالي تنوّعت الخدمات الصحيّة في البيمارستانات و تحسّنت ؛ و هو ما انعكس ايجاباً على صحّة من يعيشون في مختلف أمصار الدولة العباسية من عربٍ و موالي و أهل الذمّة . فما هي أهمّ تلك الخدمات الصحيّة ؟ و كيف أبدع أطباء العصر العباسي في مختلف التخصصات الطّبيّة ؟

أولاً : رعاية المجانين :

اعتبرت الشعوب القديمة مرض " الجنون " من أفعال الجنّ و الشياطين ؛ لذا كانت معالجَةُ المصابين بالأمراض العقلية تعتمد على السحر و الشّعوذة و الرقى و التعاويذ ؛ و غالباً ما تقوم على تعذيب المريض و ضربه و تجويعه و تقييده بالسلاسل ، و عزّله عن المجتمع ؛ للتخلّص من الجنيّ المتلبّس به . و لمّا جاء الإسلام صحّح هذه المفاهيم و أعطى للمجنون حقّه ، و خلّصه من تلك المعاملة القاسية ، و أعفاه من كلّ التكاليف الشّرعية حتّى يُشفى و جعّله من الذين رُفِعَ عليه القلم ، و أوصى برعايته ؛ و هو ما أفضى فيما بعد إلى ظهور ما يُعرف بـ : " بيمارستانات المجانين " .

أُقيمت هذه البيمارستانات في بلاد المسلمين منذ العصر الأموي (¹) و هي متخصصة لأصحاب الأمراض العقلية و العصبية ، و تحتوي على غرفٍ و أقسامٍ خاصّةٍ بهم داخل البيمارستانات العامّة ، ثمّ تطوّر الأمر بعد ذلك في العصر العبّاسي ؛ و أنشئت بيمارستانات خاصّة بهم ؛ حيث وُجد بيمارستان خاصّ و كبير للمجانين في جنوب بغداد (²) في الطريق إلى المدينة ، و أحياناً كان العبّاسيون يُفردون بيوتاً خاصّةً لهم في البيمارستانات الكبرى سواءً في بغداد أو في الحواضر الكبرى التابعة للدولة ، و كان أكثر الغرف عليها شبابيك من الحديد ؛ فالبيمارستان العَضدي مثلاً كان به قسم للمجانين ، و عُرفَ عن هذا البيمارستان أنّه كان بداخله سلاسل حديدية ، و مثل هذه البيمارستانات تُقسّم إلى قسمين ؛ أحدهما للرجال ، و الآخر للنساء (³) .

(¹) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دار الرّشد العربي 1401 هـ / 1981 م ، ص.73 ؛ علوان عبد الله ناصح : معالم

الحضارة في الإسلام و أثرها في التّهضة الأوربية ، دار السلام للطباعة و النّشر ، القاهرة 1966 م ، ط 2 ، ص.77 .

(²) بغداد : مدينة السلام ، و عاصمة الدولة العبّاسية ، و عاصمة العراق حالياً ؛ بناها الخليفة العبّاسي الثاني " أبو جعفر المنصور " سنة 144 هـ و سكّنها سنة 146 هـ ، و أنفق على عمارتها ثمانية عشر ألف دينار . و كان سبب عمارتها أنّ أهل الكوفة كانوا يفسدون جُنده ؛ فبلّغَه ذلك ؛ فانتقل عنهم يرتاد موضعاً يبني فيه مدينة جديدةً ، و يكون واسطاً رافقاً بالعامّة و الجند ؛ و كان آنذاك مقيماً بالهاشمية المتاخمة للكوفة ؛ فُتعت له موضعٌ قريبٌ على ضفاف نهر دجلة ، و دُكرَ غذاؤه و طيّبِ هوائه ، فخرّج إليه بنفسه و أُعجِبَ به ؛ فلم يرى موضعاً أحسن من موضع بغداد ؛ و ذلك لأنّه موضعٌ يُغذى إليه و يُرأخ بخيرات ما حوله في البرّ و البحر و هو محصّنٌ بدجلة و الفرات ؛ لا يقدرُ أحدٌ أن يتوصّل إلى موضع الخليفة إلّا على جسر . و قد بات فيه المنصور قبلُ بنائه ؛ فُرأى الرّياح ليلاً و نهاراً و طيّبِ الهواء في تلك المحلّة ، و قد كان موضعها قُرى و ديورة لعباد التّصارى و غيرهم . يعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب : البلدان ، المكتبة المرتضوية ، النّحف (العراق) 1337 هـ / 1918 م ، ص. 2- 5 ؛ الحموي : معجم البلدان دار صادر ، بيروت 1995 م ، ط 2 ، ص. 457 ، 459 ؛ ابن كثير ، الحافظ عماد الدّين القرشي الدمشقي : البداية و النّهاية ، تحقيق : عبد الرحمن بن عبد الله المحسني التركي ، دار هجر 1998 ، ط 1 ، ج 10 ، ص. 387 .

(³) المسعودي علي بن الحسين (ت 346 هـ) : مروج الذهب و معادن الجواهر ، مروج الذهب و معادن الجواهر ، تحقيق : كمال حسن مرعي

المكتبة العصرية ، بيروت 1425 هـ / 2005 م ، ط 1 ، ج 3 ، ص. 197 .

إنّ رعاية المجانين وَ دَوِي الأمراض الوهمية و الأصوات النَّفسية و الصَّدَمات ؛ و الإهتمام بصحتهم في العصر العبّاسي لم تكنْ إلاّ امتثالاً للتعاليم الإسلامية الرّاقية ؛ و هو ما تجلّى في أعمال أولي الأمر ؛ من خلفاء أو أمراء أو وزراء ؛ الذين بنوا لهم البيمارستانات ، و خصّصوا أموالاً كثيرةً للتكفّل بهذه الفئة ، و أوصوا برعايتهم و خدمتهم و الإعتناء بهم . و في هذا الشّأن ؛ كان الوزير " عليّ بن عيسى الجراح " (¹) يكتبُ إلى متوّي الوقف الذي يُنفق منه على البيمارسانات قائلاً : " ... يجب أن يُدْفَأَ المرضى و المجانين بالأغطية و الكسوة و الفحم ، و يُقَامَ لهم القوت و يَصِلَ إليهم العلاج ... " (²) ؛ فكانوا يلقّونَ عناية خاصّة ، و يُعالجونَ علاجاً يمتاز بالرّحمة و الإنسانيّة .

و قد اهتمّ " نور الدّين زنكي " (³) بالمرضى المجانين ، و أقام لهم بيمارستاناً خاصاً ؛ و قدّم لهم الأطبّاء و المعالجين و قد وّصف " ابن جبير " هذا البيمارستان ، و اعتبّره من مفاخر السلطان " نور الدّين " ، فوصّف

(¹) علي بن عيسى بن داوود الجراح : و كنيته " أبو الحسن " ؛ هو وزير في عهد الخليفة العبّاسي " المقتدر " و من بعده " القاهر " ؛ و أحد العلماء من أهل بغداد ، فارسي الأصل توفي سنة 334 هـ و هو في التسعين من عمره ، له من الكتب : (ديوان الرسائل و معاني القرآن) ، (جامع الدّعاء) (الكتاب و سياسة المملكة و سيرة الخلفاء) . الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) : تاريخ بغداد أو دار السلام مطبعة السعادة ، القاهرة (مصر) 1319 هـ / 1931 م ، ج 1 ، ص. 12 ، 14 .

(²) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، 301 ؛ فراج عزّ الدّين : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د س ط) ، ص. 116 .

(³) نور الدين زنكي (511 هـ . 569 هـ / 1118 م . 1174 م) : هو ابن عماد الدّين زنكي ، بطلّ من أبطال المسلمين ، سار على درب أبيه في قتاله للصليبيين الغزاة ، و سعى إلى طردهم من الدّيار الإسلامية ، إلخّذ من مدينة " حلب " عاصمةً لدولته ، ضمّ دمشق سنة 1145 م ، و مصر سنة 1168 م ، ورث عن أبيه صفات الملك العادل ، اهتمّ ببناء المساجد و البيمارستانات و دور العلم . المقرئ ، تقيّ الله أبي العبّاس أحمد بن علي (ت 845 هـ) : السلوك لمعرفة الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميّة ، بيروت 1418 هـ / 1997 م ، ط 1 ، ج 1 ص. 141 - 146 ؛ البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 222 .

القسم الخاصّ بالمجانين المعتقلين به ؛ و هم موثوقون بالسلاسل ، و تحدّث عن نواذيرهم داخل البيمارستان و تحدّث عن سجلّات المرضى و أسمائهم ، و مواعيد زيارتهم و نفقاتهم و ما يحتاجون إليه من أدوية و أغذية⁽¹⁾ .

و قد قال " ابن جبير " عند زيارته لمدينة القاهرة سنة 578 هـ / 1182 م ؛ و ذلك في عهد السلطان " صلاح الدّين الأيوبي " (2) : " ... و ممّا شاهدناه في مفاخر هذا السلطان ؛ البيمارستان ... و هو قصرٌ من القصور الرائعة حسناً و اتّساعاً ؛ و وُضعت فيه أسرةٌ يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، و خدّمةٌ يتكفّلون بتفقد أحوال المرضى بكرةً و عشيةً ، فيقابلون من الأغذية و الأشربة بما يليق بهم ، و هناك موضعين ؛ أحدهما للرجال و الآخر للنساء ، و يتصلّ بالموضعين موضعٌ آخر متّسعٌ لفناء ؛ فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد أُتخذت مجالس للمجانين ، و لهم أيضاً من يتفقد أحوالهم ... (3)

؛ و يُوفّر لهم الأطباء و المشارفين و العمّال و الخدم . فقد كان لكلّ مريضٍ بالجنون مُرافقان يأخذانه بالرفق و اللين ، و يخلعان عنه ثيابه في كلّ صباح ، و يغسلانه بالماء البارد ؛ ثمّ يُلبّسانه لباساً نظيفاً ، و يُسمعانه القرآن ، ثمّ يُفسحانه في الهواء الطّلق و يستمتع ببعض الأصوات الجميلة ، و كان يستمعون إلى الموسيقى المهذّئة لهم ، و كان

(1) ابن جبير ؛ محمّد بن أحمد بن جبير الكتّاني الأندلسي (ت 614 هـ) : رحلة ابن جبير ، تحقيق : مصطفى زيادة ، بيروت ، (د س ط) ، ج 1 ص. 198 .

(2) صلاح الدّين الأيوبي (532 هـ . 589 هـ / 1137 م . 1193 م) : هو الملك الناصر ؛ يوسف بن أيّوب ؛ بطلّ من أبطال الإسلام العظام أشتهر بالشجاعة و التسامح ، مؤسس الدولة الأيوبية و محرّر بيت المقدس ، و قاهر الصليبيين الغزاة في معركة " حطين " عام 1187 م تصدّى للحملة الصليبية الثالثة (1189 م . 1192 م) ، و أجبر ملك إنجلترا " ريتشارد قلب الأسد " على عقد الصلح عام 1192 م و العودة إلى دياره . توفي بدمشق ، و دُفن بجوار المسجد الأموي . المقرئ : المصدر السابق ، ص. 148 ، 149 ؛ البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 270 .

(3) ابن جبير : المصدر السابق ، ج 1 ، ص. 52 .

يُزْرَعُ أمامهم أنواع مختلفة من الزهور في الحدائق ؛ و غالباً ما تُزْرَعُ أمام حدائقهم حتى تُدخِلَ البهجة إلى قلوبهم و تتمتع أنظارهم برؤيتها (1) .

و فيما يتعلّق بتعامل أطباء العصر العباسي مع المجانين ؛ نكتفي بما كان يقوم به الشيخ الرئيس " ابن سينا " الذي كان يتعامل معهم بإنسانية فائقة ، جعلته محلّ إعجاب و تقدير من حوله من الناس ، فقد كانت نظرته لهم نظرة إنسانية سامية ، فلم يعتبرهم مجرّمين أو مُذنبين ، و إنّما نظر إليهم كمرضى يحتاجون إلى العلاج ، و دعا إلى حُسن مُعاملتهم ، و اللطْفِ معهم ، و تحسين تغذيتهم و نومهم و شرايهم ، و تمتّعهم بالرّاحة و الهواء الطّلق و سماع الموسيقى و الطرب ، كما كان يُعالجهم مجاناً ، و يتصدّق عليهم من ماله الخاص .

هذا في الوقت الذي كان فيه المرضى المجانين في أوروبا المظلمة حضارياً ؛ يُعاملون مُعاملة السُجناء ، و يعيشون معيشة القطعان ، فكانت أيديهم و أرجلهم تُعَلّ بالسلاسل الحديدية ، و كان الناس يَحْشَوْنَهُمْ ، و يشعرون بالعار و الخجل منهم (2) . و في هذا الشأن ؛ تقول " زيجريد هونكه " : " ... و لنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى ، فنرى هؤلاء و بشاعة بالغين ؛ مبعثها الاعتقاد السائد آنذاك ، و الذي غدّته الدعاوى الدنيعة الخاطئة ؛ بأنّ هذا المريض لعنة من السماء ؛ حلّت بصاحبها عقاباً له على إيّهم زعموا أنّه ارتكبه أو شيطاناً دخل في نفسه ، و بالتالي يجوز عذابه (3) .

ثانياً : الاهتمام بصحة المساجين :

يُعتبر الإسلام الإهتمام بصحة السجين و ضمان سلامته من العوامل الموصلة إلى تحقيق أهداف الحبس في إصلاح السجّان و تقويم سلوكهم ؛ فضلاً عن كون التّصوص الشرعية العامة توجب المحافظة على النّفس الإنسانية

(1) أحمد عيسى : المرجع السابق ، ص.73 .

(2) عبد الرحمن محمد العيسوي : علم النّفس الإكلينيكي ، الدار الجامعية ، بيروت 1992 م ، ص. 34 .

(3) شمس العرب تسطع من الغرب ، ص. 255 .

و إبعادها عن أسباب المرض و العجز و الهلاك . و قد حَفَلَ التاريخ الإسلامي بأخبار النّشاطات الصحيّة و الطّبيّة التي بُدِلَتْ في السجون الإسلاميّة ؛ بالإضافة إلى النّصوص الفقهيّة المقرّرة لهذه المعاني .

إنّ حَبْسَ المريض من مسائل التعزير الاجتهادية ؛ التي يرجع أمر البتّ فيها إلى القاضي ؛ من خلال تقديره لوجب الحبس و خطورة المرض و إمكان عناية المحبوس في السجن أو التوصية بمعاملته معاملة متميّزة تبعاً لحاله (1) فالمروي عن النبي صلّى الله عليه و سلّم أنّه حَبَسَ " ثمامة " في المسجد و كان عليلاً فقال لأصحابه : { أَحْسِنُوا إِسَارَهُ } ؛ كما أوكلَ إلى بعض أصحابه القيام على حفظ صحّة امرأتين حُبْلِيَيْنِ مِنَ الزَّانَا حَتَّى تَضَعَا .

لقد أجمَعَ فقهاء العصر العبّاسي من مختلف المذاهب السنّية الأربعة ؛ على أن لا يُفْضِي الحَبْسُ من غير موجبٍ شرعيٍّ إلى هلاك السجين ، و أقرّوا على ضرورة توفير أسباب معالجته ؛ فلا يجوز في نَظَرِهِمْ قَلْبُ باب السجن على المحبوس و لا جعله في بيتٍ مظلمٍ و لا إيذاءه بأيِّ حالٍ من الأحوال ؛ كتعريضه للحرّ و البرد الشديدين ، و حبسه في مكانٍ سيئٍ التهوية ، و تعذيبه و ضرب و جَهِهِ ، و محاولة إثارة الرعب في نفسه ، أو تحقيره و هدم توازنه النفسي من خلال اللّعن و الشتم و منع زيارة أقاربه ؛ و غير ذلك ممّا يؤذي السجين في بدنه و نفسه و يَحْطُّ من معنوياته أو يمسّ من كرامته .

و من تلك الفتاوى التي أقرّها الفقهاء في حقّ المساجين ؛ ما قاله الفقيه الحنبليّ " ابن هبيرة " (2) : "... و لا يجوز جمع السجناء في مكانٍ ضيقٍ ؛ غير متكّنين من الوضوء و الصلاة ؛ يَتَأَذُّونَ بالحرّ و البرد ... " (3)

(1) أبو رعدة حسن : أحكام السجن و معاملة السجناء في الإسلام ، مكتبة المنار ، الكويت ، 1406 هـ / 1987 م ، ط 1 ، ص. 367 .

(2) ابن هبيرة ، عون الله بحبي (499 هـ . 560 هـ / 1105 م . 1165 م) : من وزراء الدولة العبّاسية و أخذ أشهر فقهاء الحنابلة ، وُلِّي الوزارة في عهد الخلفين العبّاسيين " المقتفي " و " المستنجد " ؛ فقام بما خير مقام و أخذت الإصلاحات ، من أشهر آثاره : كتابي (الإفصاح في معاني الصحاح) و (المقتصد في التحو) . انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة 1969 م ط 4 ، ص. 439 . 441 . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 40 .

(3) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ) : الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1392 هـ ، ط 4 ، ص. 118 .

أمّا شيخ الإسلام " ابن تيمية " فقد قال : " ... ليس الحبس الشرعي هو السجن في مكانٍ ضيق ، وإمّا هو تعويق الشخص و منعه من التصرف بنفسه سواء كان في بيتٍ أو مسجدٍ ... " (1) .

و نُقِلَ عن الماوردي (2) قوله : " ... و لا يجوز عند أحدٍ من المسلمين أن يجمع الكثير في موضعٍ يضيق عنهم غير متمكّنين من الوضوء و الصلاة ، و قد يرى بعضهم عوْرةً بعض و يُؤدّون في الحرّ و الصيف ... " (3)

إنّ حرّص الفقهاء على صحّة السجين لم تُقف عند هذا الحدّ ؛ بل إنهم أوصوا بوقف تنفيذ حبسه و إخراجهِ من السجن في حالة تعرّضهِ للجنون ، و نصّحوا أولي الأمر بتتبّع أحوال السجناء الصحيّة و السؤال عن مريضهم و إعداد مكانٍ في الحبس ليقيم فيه الممرّض أو الطبيب ، و معاينة كلّ من يتسبّب في إيذاء السجين في نفسه و بدنه ؛ بل إنهم أجمعوا على أنّه من حبس رجلاً و منعه الطعام و الشراب و العلاج حتّى مات فهو قاتل يقتصّ منه ، و يلحق به من حبس غيره في مكانٍ ضيقٍ أو حارٍ أو باردٍ (4) .

كلّ هذه التوجيهات التي أوصى بها الفقهاء لاقت تجاوباً كبيراً من بعض أولي الأمر في العصر العبّاسي ؛ سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو وزراء ؛ الذين لم يتوانوا في توفير الأمور الضرورية للسجناء ، و الإحسان إليهم و بذل ما يحتاجونه من طعامٍ و شرابٍ و لباسٍ ، و تمكينهم منها حتّى يعيشوا حياةً إنسانيةً تُساعدهم على إصلاح

(1) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم تقيّ الدّين : الفتاوى ، جمعها : عبد الرّحمان بن قاسم العاصمي ، : الرياض (المملكة العربية السعودية) ، ط 1 ج 35 ، ص.398 .

(2) الماوردي : هو أبو الحسن عليّ بن محمد (364 هـ . 450 هـ / 974 م . 1058 م) : فقيهٌ مسلم ، شغل منصب " قاضي القضاة " ، لعب دوراً بارزاً في رسم المفهوم السّي لسلطة الحاكم ، أشهر آثاره : كتب (الأحكام السلطانية) ، (أدب الدنيا و الدّين) ، (سياسة الملك) ... إلخ . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 414 .

(3) الكتّاني عبد الحيّ (ت 1373 هـ) : التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية ، شركة الأرقام بن الأرقم ، بيروت (لبنان) د س ط ، ط 2 ج 1 ص.246 .

(4) أبو زرعة : المرجع السابق ، ص. 369 .

أحوالهم و تقويم سلوكهم و تحقيق المقصود من سجنهم ؛ فقد رُوِيَتْ قصصٌ كثيرةٌ فيها ؛ أنّهم بدّلوا للسجناء الماء للشرب و الوضوء و الإغتسال ، و قدّموا لهم الرّعاية الصحيّة ، و أوقدوا لهم الشموع و السرج (¹) ؛ حتّى أنّ " ابن أبي أصيبعة " نفسه كان لا يُستبَعَدُ أنّهم كانوا يُرسلون إليهم بالفحم في الشّتاء و اشتداد البرد ؛ كما كانوا يفعلون مع المرضى في البيمارستانات (²) .

و من أهمّ الأمثلة لجهود الخلفاء العبّاسيين في تحسين أمور السجناء ؛ ما قام به الخليفة " هارون الرّشيد " (³) ؛ الذي كان حريصاً على تقديم وجبات الطعام في أوقاتها لخصومه السياسيين من العلويين (⁴) و أمر أن تُحمَلَ مائدةٌ كلّ يومٍ إلى السّجن ليأكلَ منها خصمها " يحيى البرمكي " (⁵) و ابنه " الفضل " ، و كان يُقدّم لهما

(¹) ابن الأثير ؛ أبو الحسن عليّ الشيباني : الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1997 ، ج 5 ص.232 .

(²) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 301 ، 302 .

(³) هارون الرّشيد (146 هـ . 193 م / 723 هـ . 809 م) : خامس الخلفاء العبّاسيين ؛ ابن الخليفة " المهدي " و والد الخلفاء " الأمين ، المأمون و المعتصم " ، بويع سنة 170 هـ و هو ابن إحدى و عشرين سنة . عُرفَ بزهدِهِ و كثرة غزواتِهِ ؛ فكان كثير الصلاة ، و قيل أنّه حجّ تسع مرّات خلال فترة حُكْمِهِ ، و كانَ إذا حجَّ أخذَ معه جمعٌ كبير من الفقهاء ، و ممّا أشتهر عنه أنّه كان يحجّ عاماً و يغزو عاماً ؛ كما عُرفَ بحضوره لمجالس العلم و مجالس الغناء و الطّرب . شهدت الدولة في عهده ازدهاراً حضارياً كبيراً ، تبادل السفراء و الهدايا مع امبراطور الغرب " شارلمان " و حَكَمَ امبراطورية واسعة . المسعودي : المصدر السابق ، ص. 279 ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 14 ، ص. 27 ، 28 ؛ محمد كرد علي : الإسلام و الحضارة الإسلامية ، دار الكتب المصرية ، 1354 هـ / 1937 م ، ص. 211-214 .

(⁴) ابن العربي ، محمد بن عبد الله أبوبكر (ت 543 هـ) : أحكام القرآن ، تحقيق : عيسى الباي الحليّ ، ، (د س ط) ط 1 ، ج 3 ص.1190 .

(⁵) يحيى بن خالد بن برمك : هو أحد أفراد أسرة البرامكة ، تقلّد منصب الوزارة على غرار والده " خالد " الذي قلّده الخليفة العبّاسي الأوّل " أبو العبّاس السّفّاح " ديوان الخراج و ديوان الجند ، كما تولّى الوزارة بعد مصرع " أبي سلمة الخلال " ، و عمل مساعداً للخليفة العبّاسي " المنصور " ، و قد أدّى يحيى بن برمك دوراً بارزاً في تأمين ولاية العهد لهارون الرشيد في مواجهة الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه الخليفة " الهادي " ، بهدف تنحيته و تولية ابنه " جعفرأ " ، و حفظ الرشيد فضل خالد بن برمك عليه ، فولّاه الكتابة و النيابة عن وزرائه ، و منحه سلطات مطلقة ؛ فكانت الدواوين كلّها

الماء للشرب و الوضوء ؛ بل إنّه استجاب لنصيحة " أبي يوسف القاضي " الذي كتّب إليه كتاباً يوصيه فيه بما يجب النظر فيه لرفع الظلم عن الرعية و السجناء و إصلاح أمرهم (1) ؛ فأوصاه بإطعامهم و تغذيتهم ، و نصّحه أن يُخصّص لهم مبالغ من المال تُسلّم لهم بأيديهم في كلّ شهرٍ بدّل الطّعام الذي يُخشى عليه سَطْوهُ ذوي النّفوس الضعيفة من موظفي السجون (2) ، و ممّا قاله أيضاً : " ... و الأسير من أسرى المشركين لا بدّ أن يُطعم و يُحسنَ إليه حتّى يُحكّم فيه ، فكيف برجلٍ مسلمٍ قد أخطأ أن يموتَ جوعاً ؟ ... "

أمّا في زمان الخليفة العبّاسي " المعتصم " (3) ؛ كانت الدولة تقدّم الطّعام و الشراب للسجناء ، و كانت الأرزاق تُجرى على المحبوسين في زمن الخليفة " الواثق بالله " ، و جعل الخليفة " المعتضد " (4) في ميزانيته 1500 دينار في الشهر لنفقات السجون و أقواتها و مؤنّها و مائها ؛ و يبدو أنّ النفقات المذكورة تتضمّن العلاج و الأدوية و ما يستلزم ذلك من أمور الطبّ ،

بيده ، و استطاع " يحيى " من خلال إبنه " الفضل " و " جعفر " من إدارة الدولة . الجهشياري : ، أبي عبد الله محمد بن عبدوس : كتاب الوزراء و الكُتاب ، تقديم : حسن الزين ، دار الفكر العربي ، بيروت 1988 م ، ص. 114 ؛ الذهبي ، الحافظ أحمد بن عثمان (ت. 748 هـ) : الإعلام بوفيات الأعلام ، تحقيق : مصطفى بن علي عوض و ربيع أبو بكر عبد الباقي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت 1413 / 1993 هـ ، مج. 4 ص. 350 ، 351 .

(1) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ) : الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1392 هـ ، ط 4 ، ص. 3 و ص. 161 .

(2) المصدر نفسه ؛ ، ص 162 .

(3) المعتصم (179 هـ . 227 هـ / 794 م . 842 م) : ابن هارون الرّشيد ، كان أوّل خليفة عبّاسي اعتمد على الجند الأتراك و قرّبهم منه ، بنى مدينة " سامراء " و جعلها عاصمةً للدولة سنة 837 م ، قَمَعَ ثورة " بابك الخرمي " عام 836 م ، فَتَحَ مدينة عمورية عام 838 . المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 39 ، 40 ؛ محمّد كرد علي : المرجع السابق ، ص. 237 - 239 ؛ البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 427 .

(4) المعتضد بالله (242 هـ . 289 هـ / 857 م . 902 م) : الخليفة العبّاسي السادس عشر ، أقام العدل و أصلح النّظام المالي ، و أعاد تنظيم الإدارة ، و قرّب إليه أهل العلم و الدّين . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 427 .

و في عهد الخليفة العبّاسي "المقتدر بالله" (1) ؛ شهدت السجون عنايةً عظيمةً ، و خضعت لنظامٍ إصلاحيّ موحدٍ ؛ فقد أمرَ بمعالجة الحبوسين و حمل الدّواء إليهم ، و دراسة أحوالهم و تحسين مستوى معيشتهم (2) ؛ بل إنّه على غرار "هارون الرّشيد" كان يُوصي برعاية خُصومه السجناء ؛ إذ أنّه سنة 313 هـ أمرَ بحمل الطعام إلى خصمه الوزير "ابن مقلّة" ؛ و كان مريضاً في سجنه ، و تذكر المصادر التاريخية أنّه لمّا ساءت حاله ؛ أدخلَ إليه الطبيب المشهور "ثابت بن سنان بن قرّة" ليُعالجه في سجنه ؛ فأوصى ثابت بِفَصْدِهِ ، و كان يُطْعِمُهُ بيده و يترقّق به ؛ و فعَلَ هذا أيضاً في زمن الخليفة "الرّاضي بالله" (3) .

و في زمن "المقتدر" أيضاً ؛ كتّب الوزير "علي بن عيسى الجراح" إلى سنان ثابت بن قرّة " (الأب) . و كان قلده إدارة بيمارستانات بغداد . يقول : "... فَكَّرْتُ مَدَّ اللهُ فِي عُمُرِكَ فِي أَمْرِ الْحُبُوسِ ، و أنّه لا يخلو مع كثرة عدديهم و جفاء أماكنهم ؛ أن تنالهم الأمراض و هم معوّقون عن التصرف في منافعهم و لقاء من يُشاورونه من الأطباء فيما يُعرض لهم ؛ فينبغي أن تُفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كلّ يوم ، و تُحمّل لهم الأدوية و الأشربة و يطوفون على سائر الحبوس ، و يُعالجون فيها المرضى و يُريحون عللهم فيما يصفونهُ لهم ، و أمرُ بأن تُقام لهم المزورات لمن يحتاج إليها منهم ... " ؛ فعَلَّ سنان ذلك طول أيامه ، و كان حوالي عشرين سنة (4) . و دكّر

(1) المقتدر بالله (282 هـ . 320 هـ / 895 م . 932 م) : الخليفة العبّاسي الثامن عشر ، كان مستضعفاً ؛ فاستبدّ بالأمر خدّمه و نساؤه ، تمرد عليه خادمه "مؤنس" الملقّب بـ "المظفر" و خلعه عن العرش ، و لكن فرقة من الجيش أعادته إليه ؛ فما كان من "مؤنس" إلا أن هاجم بغداد و عزّله من جديد ، و بقي المقتدر وحيداً إلى غاية مقتله من طرف بعض الجنود ؛ و قيل أنّهم دجّوه ثمّ رفعوا رأسه على خشبة و هم يُكثرون و يلعنونه ، و تركوه مكشوفاً إلى أن مرّ به رجلٌ فسنتّه ثمّ حفّره له موضعه و دفنه ، و كان عمره حين قُتل 38 سنة . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 429 .

(2) الرّفاعي أنور : الإسلام في حضارته و نُظْمِهِ ، دار الفكر العربي ، دمشق (سوريا) 1973 م ، ص. 609 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 305 ، 306 .

(4) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 301 ، 302 ؛ القفطي ؛ أبو الحسن يوسف جمال الدّين (ت 646 هـ / 1248 م : تاريخ

الحكماء ، من كتاب : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تحقيق : جوليوس ليبارت ، لايبزيغ (ألمانيا) 1903 م ، ص. 193 .

المؤرّخون أن الخليفة المقتدر مات سنة 320 هـ ، و أنّ الطيب " سنان بن ثابت " بقِيَ مُقدِّماً عند الخلفاء يُواصل جهودَه الطبيّة خلال ما تبقّى من عمره حتّى توفّي سنة 331 هـ (¹) ؛ و معنى ذلك أنّه استمرّ في نشاطه في عهد الخلفاء الذين حكّموا في هذه الفترة بعد " المقتدر " و هم : " القاهر " و " الرّاضي " و " المتقي " ؛ كما تُثبّت ذلك كتب التاريخ (²) .

أمّا الخليفة العبّاسي " المقتفي " (³) فهو الآخر إستجاب لنصيحة وزيره " عون الدّين ابن هبيرة " و كان من الفقهاء الحنابلة كما أشرنا إليه سابقاً ، و الذي كتّب إليه يقول : " ... أمّا الحبس الذي هو عليه الآن ؛ فلا أعرف أنّه يجوز عند أحدٍ من المسلمين جمع الكثير في موضعٍ يضيقُ عنهم غير متمكّنين من الوضوء و الصلاة و يتأدّون بحجره و برّده ، و هذا كلّهُ مُحدّث ، و أنا في إزالته حريصٌ ، و الله الموقّق (⁴) .

هذا و قد كان بعض الحكّام يُرسلون الأموال إلى إدارة السجون لإيفاء الديون عن السجناء المُعدّمين ؛ إذ رُوِيَ أنّ الخليفة العبّاسي " الظاهر " (⁵) أمرَ في سنة 622 هـ بالإحسان إلى السجناء و وفاء ديون مُعسيريهم

(¹) ابن أبي كثير : المصدر نفسه ، 11 / 219 ؛ الزركلي خير الدين : الأعلام ، بيروت 1969 م ، ط 3 ، ج 3 ، ص. 206 .

(²) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص. 386 . 395 ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 11 ، ص. 218 .

(³) المقتفي لأمر الله (489 هـ . 555 هـ / 1096 م . 1160 م) : الخليفة العبّاسي الحادي و الثلاثون ؛ عُرفَ بالحزم و شدّة البأس ؛ فعَدّه كثير من المؤرّخين أحد عظماء الخلافة العبّاسية ، تصدّى للسلافة ، و أخضعَ الجند لسُلطنته . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 429 .

(⁴) ابن هبيرة يحيى بن محمد ؛ أبو المظفر الوزير (ت 560 هـ) : الإفصاح عن معاني الصحاح ، نشر مؤسسة السعيد بالرياض ، طبع بمطبعة الدجوي ، القاهرة 1978 م ، ج 1 ، ص. 39 .

(⁵) الظاهر بأمر الله ؛ أبي نصر محمد ابن التّاصر : خليفة عبّاسي ، وُلّيَ الخلافة في شوال سنة 622 هـ ، و لم تدم مدّة حكمه بيوى ثمانية أشهرٍ فقط ؛ إذ وافته المنية في رجب سنة 623 هـ . كان عادلاً محسناً ، قيل إنّه أعاد سنّة المُمرّين ، و كانت تأتيه الأخبار عن التّاس و الأحوال على عادة من قبله فيزيدها و يقول : " أيّ غرضٍ لنا في معرفة أحوال التّاس في بيوتهم ؟ فلا يكتب أحدٌ لنا إلّا ما تعلق بمصالح دولتنا " ؛ فقليل له : إنّ العامة يُغيبونها ذلك و يُعظم شرّها ، قال : " إنّنا ندعو الله أن يُصلحهم " ؛ فلم يزل كلّ يوم يزداد من الخير و الاحسان إلى الرعيّة ؛ فجدّد من العدل ما كان دارساً ، و أدكّر من الإحسان ما كان منسياً حتّى توقاه الله . ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص. 453 ، 454 ؛ ابن كثير : المصدر السابق

و أرسل إلى قاضيه عشرة آلاف دينار يُعطيها عن كلّ محبوسٍ في حبسِ الشّرع و ليس له مال ؛ و يقول ابن كثير في هذا الشّأن : " ... وَ أَطْلَقَ مَنْ كَانَ فِي السُّجُونِ مَعْتَقاً ، وَ رَدَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ أُسْتُخْرَجَ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمَظَالِمِ ، وَ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ ؛ يُؤَيِّ بِهَا دِيُونَ مَنْ فِي سُجُونِهِ مِنَ الْمَدِينِيْنَ اللَّذِينَ لَا يَجِدُونَ وَفَاءً ... وَ قَدْ لَامَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ ؛ فَقَالَ : دَرُونِي أَعْمَلُ صَالِحاً وَ أَفْعَلُ خَيْراً ؛ فَكَمْ مَقْدَارُ مَا بَقِيَتْ أَعِيشُ ؟ ... " (1) .

أمّا القائد العظيم " صلاح الدّين الأيوبي " ؛ فقد رُوِيَ عنه أنّه هدّمَ أحد سجون القاهرة لسوء حاله ، و بنى مكانه مدرسة ، و أجرى الإصلاح بين النَّاسِ (2) .

إنّ العناية بالمساجين في العصر العبّاسي لم يقتصر على تقديم الرعاية الصحيّة و الإنفاق عليهم فحسب ؛ بل تعدّاه إلى الإهتمام بتعليمهم في السجون ؛ لأنّه من الأسباب المساعدة على الوصول إلى الغاية من الحبس و تغيير ما في نفس السجين ؛ فقد كان يُسَمَّحُ للسجناء في بعض السجون العبّاسية بإدخال الكتب و الأقلام و الأوراق للقراءة و الكتابة ؛ و هُوَ مَا فَعَلَهُ الْخَلِيفَةُ " هَارُونَ الرَّشِيدُ " مع " أَبِي الْعَتَاهِيَةِ " فِي حَبْسِهِ (3) ، و الخليفة

ج 17 ، ص. 136 ، 137 ؛ راغب السرجاني : الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة 1426 هـ / 2005 م ، ط 1 ج 1 ، ص. 330 .

(1) ابن كثير : المصدر السابق ، ج 17 ، ص. 137 .

(2) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد أبوزيد (ت 808 هـ) : تاريخ ابن خلدون ؛ المعروف بـ : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ؛ في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق : خليل شحادة و سهيل زكار ، دار الفكر العربي ، بيروت (لبنان) 1431 هـ / 2001 ، ج 4 ، ص. 79 .

(3) ابن كثير : نفس المصدر ، 14 / 140 .

" المهدي " (¹) مع " ابراهيم الموصلّي " (²) إذ أنّه اعترف بفضل الحبس في إنقائه للكتابة و القراءة و هذا ما بيّنه قوله حين خرج من الحبس : " ... حَدَّثْتُ الكتابة و القراءة في السجن ... " (³) . أمّا الخليفة " المتوكل " فَيُرَوَى عنه أنّه حين حبس الطبيب المشهور " حنين بن إسحاق " لِسُخْطِهِ عليه ؛ كان يسمح له بإدخال الكتب إلى سجنه و ترجمة العلوم و نقلها ، و الإشتغال بالتأليف و التصنيف (⁴) . و لَمَّا سُجِنَ " المعتضد بالله " قبلَ خلافته ؛ سُحِّحَ للطبيب " ثابت بن قرّة " بالدخول عليه في كلّ ثلاث مرّات و تعليمه الفلسفة و النجوم و غيرها (⁵) . أمّا الإمام " السرخسي " . أحد كبار فقهاء الحنفيّة . ؛ فقد كان يُسَمَّحُ له بإملاء ما ألّفه في الحبس على أصحابه ؛ إذ تذكّر بعض المصادر أنّه أملى خمسة عشر مجلداً على أصحابه و هو في السجن (⁶) . و لَمَّا سُجِنَ شيخ الإسلام " ابن تيمية " (⁷) في قلعة دمشق ؛ أُفْرِدَتْ له قاعةٌ خاصّةٌ ، و أُعْطِيَ الأوراق و الدواة و القلم ؛ فكان يكتبُ فيها و يُصنّف (¹) .

(¹) المهدي : محمّد بن عبد الله ؛ الخليفة العبّاسي الثالث (158 هـ . 169 هـ) ؛ ابن " المنصور " و والد " هارون الرّشيد ، أنشأ شبكة من الطرق العامة ، و حسّن نظام البريد ؛ فازدهرت في عهده التجارة و الصناعة ، حَزَبَ الزنادقة و عَهَدَ في ملاحقتهم إلى عاملٍ خاصٍ يدعى " العريف " . البعلبكي : المرجع السابق ، ص . 437 .

(²) ابراهيم الموصلّي (125 هـ . 188 هـ / 743 م . 804 م) : مغني عربي من أصلٍ فارسيّ ، ارتحل إلى مدينة " الموصل " فأقام فيها فترةً ؛ تعلّم خلالها العزف على العود ؛ فنُسِبَ إليها ، كان يقول الشعر و يُلحّنه ، و قد ذكروا أنّه كان أوحد زمانه في الغناء و اختراع الألحان . البعلبكي : المرجع السابق ، ص . 441 .

(³) الأصفهاني ، أبو الفرج عليّ بن الحسن : الأغاني ، دار الكتب ، القاهرة (د س ط) ، ج 5 ، ص . 160 .

(⁴) القفطي : المصدر السابق ، ص . 131 .

(⁵) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص . 295 .

(⁶) الزركلي : المرجع السابق ، ج 6 ، ص . 208 .

(⁷) ابن تيمية : هو تقيّ الله أحمد (661 هـ . 728 هـ / 1263 م . 1328 م) ؛ فقيه عربيّ حنبلي ، وُلِدَ في حرّان ، و كَمَعَ بجمه بدمشق و فيها توفي معتقلاً ، كان داعيةً من أكبر دعاة الإصلاح في الدّين ، و خصّماً من أقوى خصوم الصوفية ، يُلقب بـ " شيخ الإسلام " و " محيي السنّة و إمام

و يتّضح ممّا تقدّم ؛ أنّ المسلمين كانوا أسبق من غيرهم في رعاية المساجين و إطعامهم و كِسْوَتِهِم و الإنفاق عليهم و تعليمهم ، و رأينا كيف أنّ المخلصون من الحكّام و العلماء لم يسكتوا على تلك الانحرافات التي كانت تحدث بين الفئنة و الأخرى في حقّ المساجين ، و اعتبروها من الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان ؛ لذا قابلوها بالوعظ و الإنكار و التغيير . و في هذا الصدد ؛ جاءت نصوص الفقهاء لتبيّن حُرمة إقامة تلك الأصناف من العمارات و الأبنية و إتخاذها سجوناً لحبس النَّاس ؛ لما فيها من تضييع الكرامة الإنسانية و حرمان المحبوس من أداء الطاعات الدّينية و إيدائه في نفسه و بدنه .

في الوقت الذي كانت فيه السجون الإسلامية تشهد كلّ هذه الإصلاحات ؛ كانت سجون الغرب المسيحي و معتقلاته تُعاني من تديّي مستوى النظافة و الحالة الصحيّة ؛ إذ كان السجناء و المعتقلون يعيشون في عُرفٍ مظلمةٍ ؛ نُبِشت في زواياها حُفَرٌ ليَقْضِي المرء فيها حاجته على مرأى من تكدّس بشري معه داخل الزنانة ؛ لا يُسمَح لهم بالماء للنظافة و الاستحمام ؛ كما كان الغربيون لا يهتمّون بإطعام السجناء ؛ فإنّ فعّلوا فمّمّا تعافه الكلاب الجائعة أو الذي سلّم ممّا أرسله أهلهم (2) ، بل كانوا يجمعون منهم الغرامات المالية و العينية و يُقدّمونها على هيئة رواتب لموظفي السجون . و قد ظلّ الأمر كذلك في سجون أوربا و أمريكا حتّى أواخر القرن الثامن عشر ؛ حين تغيّر مفهوم السجن عندهم فاتّخذ شكلاً إيجابياً . و بالرغم من صدور بعض النصوص المرجعية لحقوق الإنسان بعد

المجتهدين " . أشهر آثاره : (السياسة الشرعية في إصلاح الرّاعي و الرّعية) و (الفتاوى) و (الجمع بين النّقل و العقل) . البعلبكي : المرجع السابق ، ص . 20 .

(1) ابن كثير : المصدر السابق ، ج 14 ، ص . 45 ، 123 ، 143 .

(2) قنسنك و آخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : محمد ثابت الفندي و آخرون ، القاهرة 1352 هـ / 1933 م ، ج 2 ، ص . 23 .

الحرب العالمية الثانية ؛ كإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1) ؛ إلاّ أنّه للأسف ؛ لا تزال حقوق السجناء تُنتهك حتّى في بعض الدّول التي تدّعي الديمقراطية ، فلا يزال السجناء يُعاني من سوء المعاملة و التغذية ، و يتعرّض لأبشع أساليب التعذيب ، و يُوضَع في زناينة منفردة ، و يُحرّم من الدواء و الرّعاية الصحيّة ، و يُحرّم من زيارة الأقارب و غيرها من الانتهاكات التي تُفضي إلى وفاة بعض السجناء في الحبس .

ثالثاً : رعاية ضحايا الأوبئة و الكوارث الطبيعية :

أ. نظرة الإسلام إلى الأوبئة و الأمراض المعدية :

أطلق المسلمون الأوائل مسميات عديدة على ما أصابهم في أنفسهم و أموالهم و ديارهم من مصائب و ابتلاءات ؛ و من هذه المسميات : النوازل ، الجوائح ، الكوارث ، التّوائب ، المصائب ، الكروب ، الأزمات ،... إلخ . و تعتبر الأوبئة (2) و الأمراض المعدية ؛ كالجدام و الطاعون (3) و الجذري و الحمى .. إلخ من أهمّ

(1) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : هو وثيقة قانونية مُلزِمة ؛ صادقت عليها الجمعية العامة للأمم المتّحدة في 10 ديسمبر 1948 م ؛ يتضمّن دياحة و ثلاثين مادة قانونية ؛ شملت الحقوق السياسية و المدنية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية . محمد عمارة : العطاء الحضاري للإسلام مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة 1425 هـ / 2004 م ، ص. 12 .

(2) الوباء : هو إنتشار مَرَضٍ بصورة مُفاجئة ، و غير متوقّعة و خطيرة على نطاقٍ واسعٍ بين عددٍ كبيرٍ من سكّان منطقةٍ أو إقليمٍ أو دولةٍ ما ؛ تستدعي الإستنفار . الخوارزمي ، محمّد بن أحمد بن يوسف (ت 387 هـ) : مفاتيح العلوم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1409 هـ / 1999 م ، ط 2 ، ص 191 ؛ حولة المقبل : العمل الدّعوي عند حلول الكوارث ، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام " محمّد بن سعود " ، كليّة الدعوة و أصول الدّين قسم الدعوة و الإحتساب ، ص. 106 .

(3) الطاعون : هو المرض العام و الوباء ؛ الذي يُفسد له الهواء فتتفسّد به الأمزجة و الأبدان ، و هو أخطر الأوبئة أ و أكثرها إنتشاراً في العصور الوسطى ، و كان يُسمّى بالموت الأسود في أوربا ؛ لكثرة ما خلفه من عدد الموتى و المصابين في تلك الفترة ، و ظلّ الهاجس الكبير للعالم كلّهُ إلى غاية بداية القرن العشرين . و يُعرّف في العصر الحديث بأنّه مرضٌ وبائيٌّ مُعدٍ ؛ يتسبّب في عدوى بمكروب خاص " البرسينا الطاعونية " ، و عادةً يُصيب الحيوانات القارضة ؛ كالجردان ، و ينتقل للإنسان بواسطة البراغيث المتطفلة عليها ، و يأتي على ثلاثة صُورٍ ؛ أولها توتّم و التهاب في الغدّة الدرقيّة و الثاني التسّمّم الناتج عن تسرّب الميكروبات إلى الدّم ، و الثالث ؛ و فيه تُصاب الرئتين ، و يُعتبر هذا أخطر الأنواع و أكثرها إنتقالاً بالعدوى ؛ و ذلك

تلك المصائب التي حلّت بهم ؛ فتعاملوا معها وفقّ ما أُتيح لهم من إمكانياتٍ و قدراتٍ في تلك الفترة ؛ معتمدين و مُسترشدين بما في الشريعة الإسلامية من توجيهاتٍ ربّانيةٍ و نبويّةٍ ؛ فقد قدّم القرآن الكريم نماذج للمعالجات الحكيمة للأزمات الطارئة ؛ مثل ما قام به نبيّ الله " يوسف عليه السلام " أيّام القحط الذي حلّ بمصر ، أمّا السنّة النبوية فقد جاءت بتنظيمات وقائية ؛ كخطوة أولى لمنع وقوع الأزمة ، و ما ينبغي فعله أثناء الأزمات ، و ما يترتّب عليها ؛ فتكاملت الأدوار التنظيمية لإدارة أيّ أزمة و عبر مراحلها الثلاث (قبل ، أثناء ، و بعد) .

إذن ؛ كان الإسلام سبّاقاً إلى حماية البشر من الأمراض ؛ فهو يُقرّر " مبدأ الوقاية " ؛ خاصة المعدي منها و ذلك خوفاً من انتقال المرض . بإذن الله . من المصاب إلى الصحيح ؛ كما أنّه يدعو أفرادَه إلى الإلتزام بجملةٍ من الآداب و الأخلاق التي تُسهم بإذن الله في حمايتهم ، و من ذلك التّظافة الشّخصية و العناية بالصّحة و الإبتعاد عن الأماكن الموبوءة ؛ و تجنّب مخالطة أصحاب الأمراض المعدية ؛ كالطاعون و الجذام و غيرها ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : { لا عَدوى و لا هامة و لا صَقْر ، وَ فِرٌّ من الجذوم كما فِرٌّ من الأسد } (1) ، و قال أيضاً : { لا يورد ممرّض على مُصِحّ } ؛ كما نُهى عن الذهاب إلى البلاد الموبوءة ؛ و من ذلك ما رواه أسامة بن زيد ؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال : { إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تدخلوها ، و إذا وَقَعَ بأرضٍ و أنتم بها فلا تَخْرُجوا منها } (2) ؛ و هذا ما يُعرّف حالياً بـ " الحجر الصحيّ " ، و عن عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه و سلّم قالت : سألتُ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم عن الطاعون فأخبرني : { إنّه عذابٌ يبعثه الله على من يشاء ، و أنّ الله جَعَلَهُ رحمةً للمؤمنين ، ليس من أحدٍ يقع الطاعون

عن طريق الرّذاذ عند الكحّة ، أنظر فادي إلياس : المناخ و الأسعار و الأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك ، بيروت 1998 م ، ط 1 ص. 375. 376 .

(1) البخاري : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 40 ، رقم الحديث 5707 .

(2) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص. 44 ، رقم الحديث 5728

فيمكث في بلدته صابراً محتسباً ؛ يعلم أنّه لا يُصيبه إلا ما كتّبت الله له ؛ إلا كان له مثل أجر شهيد { (1) }
و عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلّم : { الفأز من الطّاعون كالفأز
من الزّحف ، و الصّابر فيه كالصّابر في الزّحف } (2) . و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه و سلّم : { ما تعدّون الشهيد فيكم ؟ } قالوا : يا رسول الله من قُتل في سبيل الله فهو شهيد ؛ قال :
{ إن شهداء أمّتي إذاً لقليل } قالوا : فمن هم يا رسول الله ؟ قال : { من قُتل في سبيل الله فهو شهيد ، و من
مات في الطّاعون فهو شهيد ، و من مات في البطن فهو شهيد } (3) .

لقد سبّقت الإسلام الجميع في مراعاة الأسباب الظاهرة لانتقال العدوى ، و حتّى أفرادها على الاحتياط
و يذكر ابن القيم الجوزية فوائد و حكم المنع من الدخول ؛ أو ما يُسمّى في الوقت الحالي بالحجر الصحيّ فيقول :
" ... تجنّب الأسباب المؤذية و البعد عنها . الأخذ بالعافية التي هي مادّة المعاش و المعاد . أن لا يستنشقوا الهواء
الذي قد عفّن و فسّد فيمرضون . أن لا يُجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فيحصل لهم بمحاورتهم من جنس
أمراضهم . حميّة النفوس من الطيرة و العدوى . و بالجملة ففي التّهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحذر و الحميّة
و التّهي عن التعرّض لأسباب التّلف ، و في التّهي عن الفرار منه الأمر بالتوكّل و التسليم و التفويض ؛ فالأول
تأديب و تعليم ، و الثاني تفويض و تسليم (4)

ب . جهود الدّولة العبّاسية في مواجهة الكوارث و الأوبئة :

(1) نفسه ، ج 4 ، ص 44 .

(2) ابن حجر الحافظ أحمد بن عليّ العسقلاني : بذل الماعون في فضل الطاعون ، تحقيق : أحمد عصام عبد القادر الكاتب ، دار العاصمة ، الرياض
(د س ط) ص 278 .

(3) مسلم : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 1521 .

(4) ابن القيم : الطبّ النّووي ، ص 30 .

1 : الطاعون :

تعرّضت البلاد الإسلامية في العصر العبّاسي إلى العديد من الأوبئة والأمراض ؛ خاصةً وباء الطاعون ؛ و إن كانت أغلب المصادر التاريخية لم تُشير إليها بنوعٍ من التفصيل ؛ مقارنةً بـ **طاعون عمواس** (¹) ؛ إلا أننا سنحاول أن نذكر بعضها ، و تعامل الدولة معها . و ما يُلفت الانتباه أنّ أغلب هذه الطواعين ظهرت و إنتشرت في بلاد الشام ثمّ كانت تمتدّ إلى أرض العراق ؛ فكانت تُعرف بـ " الشام الوبئية " ، و هو ما أشار إليه " ابن الفقيه " في قوله : " ... إنّ من عيوب الشام كثرة طواعينها ، و النَّاس يقولون : حمّى خبير ، و طواعين الشام ، و دماميل الجزيرة ، و جرب الزنوج ... و من أقام بالموصل حولاً وَجَدَ في قوّته فضلاً ، و من أطال بالمصيصة خيفَ عليه من الجنون ، و من قَدِمَ من شقّ العراق إلى بلاد الرّنج لم يزلّ حزيناً ما أقام بها ... " ، و قال أبو هريرة : " ... أنا لبراعيث الشام أخوف مَنّي لغيرها (²) . و يصف اليعقوبي الشّام عند حديثه عن العراق ؛ فيقول : " ... و إنّها . أيّ العراق . ليست كالشّام الوبئية الهواء ؛ الضيّقة المنازل ، الحزينة الأرض ؛ المتّصلة بالطواعين ؛ الجافية الأهل ... " (³) .

(¹) **طاعون عمواس** : هو أوّل طاعون وقع في بلاد الشام في الإسلام ؛ و كان ذلك سنة 18 هـ ؛ في عهد عمر بن الخطّاب ؛ و فيه مات عدد كبير من أهل الشام ؛ إلى جانب بعض الصحابة و قادة الجيش الإسلامي في بلاد الشام ؛ على غرار " معاذ بن جبل " " أبو عبيدة بن الجراح " رضي الله عنهما . ابن حجر : المصدر السابق ، ص. 269 ، 270 ؛ ابن كثير : المصدر السابق ص. 68 ؛ الحضري ؛ محمّد بن عفيفي الباجوري : اتمام الوفا في سيرة الخلفاء : تحقيق : عبد المجيد طعمه حلبي ، دار المعرفة ، بيروت (لبنان) 1419 هـ / 1998 م ، ص. 188 ؛ الزهراني ، صالح بن عبد الله بن محمّد : الكوارث الطبيعية و آثارها في بلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة أمّ القرى ، المملكة العربية السعودية 1432 هـ ، ص. 141 .

(²) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص. 118 .

(³) اليعقوبي : المصدر السابق ، ص. 236 .

و من تلك الطواعين التي حلّت بالبلاد الإسلامية في العصر العبّاسي : طاعون سنة 135 هـ بالعراق و بلاد الشام (1) ، طاعون سنة 170 هـ بفلسطين (2) ، وباء سنة 158 هـ في مكّة و بلاد الشام (3) ، طاعون سنة 227 هـ (4) ، وباء سنة 244 هـ في بلاد الشام (5) ، و وباء " السرسام " (6) سنة 575 هـ (7) و طاعون سنة 589 هـ الذي حدث بحمص و أهلكت خلقاً من أهلها ، و كان ذلك بسبب شرب أهلها مياهاً ملوّثة (8) ، و وباء سنة 630 هـ في حمص (9) و غيرها من الأوبئة و البلايا و المِحَن و الكوارث ؛ التي واجهها الخلفاء العبّاسيين بكلّ ما يستطيعون ؛ في ظلّ الوسائل الممكنة و المتاحة ، فقامت الدولة باستقدام الأطبّاء المهرة لمعالجة هذا الوباء ؛ و اتخذت عدّة إجراءات وقائية صحيّة لتفادي تكرار وقوع هذه الأوبئة ؛ فقامت مثلاً

(1) ابن قتيبة : المصدر السابق ، ص.260 ؛ الزهري : المرجع السابق ، ص. 153 .

(2) البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ) : فتوح البلدان ، تحقيق : شوقي أبو خليل ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق 1997 م ، ص.163 ؛ الزهري : المرجع السابق ص. 153 .

(3) ابن كثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص.139 .

(4) البلاذري : المصدر السابق ، ص. 35 .

(5) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 5 ، ص.557 ؛ ابن الجوزي ، أبي فرج عبد الرحمن بن عليّ (ت 597 هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، تحقيق : عبد القادر عطا ، در الكتب العلمية ، بيروت 1992 ، ج 10 ، ص. 344 .

(6) السرّسام : هو ورم في الدماغ ؛ تحدّث عنه حمى دائمة ، و تتبّعها أعراضٌ رديئةٌ ؛ كالسّهَر و إحتلاط الذهن . الخوارزمي : المصدر السابق ص.186 .

(7) أصاب النَّاس سنة 575 هـ ، و تحوّل إلى وباءٍ ؛ استمرّ لمُدّة عامين ، و خلّف أعداداً كثيرةً من الموتى ؛ و قد عبّر عن ذلك بقوله : " ... فمات فيه من كلّ بلدٍ لا يحصون كثرةً ، و لقيّ النَّاس منه ما أعجزهم حمله . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 10 ، ص.92 .

(8) ابن أثير ، أبي بكر بن عبد الله الدوداري : كنز الدرر و جامع الغرر ؛ نشر و تحقيق : سعيد عبد الفتّاح عاشور ، القاهرة 1391 هـ / 1972 م ، ج 7 ، ص.121 .

(9) ابن نظيف ، أبو الفضائل محمد بن عليّ الحموي : التاريخ المنصوري ، تلخيص : الكشف و البيان في حوادث الزمان ، تحقيق : أبو العبد دود مطبعة الحجاز ، دمشق (د س ط) ، ج 1 ، ص. 257 .

بتجديد مياه الآبار ، و القيام بتنظيف لشبكة المياه ، و أوجدت مغاسل الموتى ، و أشرفّت على تكفين و دفن من مات في هذه الأوبئة و الطواعين .

إضافةً إلى كلّ هذا ؛ فقد ظهرت في العصر العباسي ما يُعرف بـ " البيمارستانات المحمولة " ، و التي أنشئت بهدف الوصول بالخدمات الطبيّة إلى المناطق البعيدة مثل الرّيف و القرى البعيدة عن المدن ، و كان لمثل هذه البيمارستانات الاهتمام أيضاً بالسجون التي لا يوجد فيها الأطباء ، و هي أوّل خدمة طبيّة في العالم لأهل الرّيف و سكّانه ، و ابتكر المسلمون هذا النوع من البيمارستانات خصيصاً لمواجهة الأوبئة و الأمراض المعدية ، و ظهرت في عهد الخليفة المقتدر بالله (290 هـ . 320 / 907 . 932 هـ) ، و هي مجهزة بما يلزم المرضى ما علاج و أدوات صحيّة و جراحية و ملابس و أطباء و صيادلة ، و مخصّصة بما يحتاجه العجزة و القاصرون .

إنّ اهتمام الخلفاء العباسيين ببناء المستشفيات و تحسين أحوال المرضى و مساعدتهم ، و إقامة المحاجر الطبيّة و العناية بالأطباء ، و ترجمة الكتب ذات العلاقة بالطبّ . كلّ هذا يُبيّن بجلاءٍ استعدادهم و حرصهم على مواجهة الأوبئة و الطواعين ، و جهودهم وفق ما تهيأ لهم من إمكانيات في تلك الفترة . كما أنّ الوقف الإسلامي بنوعيه الخاص و الرّسمي كان حاضراً في معالجة الكوارث ؛ كالحط و المجاعات و الأوبئة ؛ فقد أوقفت الأراضي و الدور و الحوانيت و الحمامات و الأفران و الطواحين و غيرها لأغراض إنسانية ، أو لفكّ رقاب الأسرى ، أو للمجاهدين أو المرضى ، أو للفقراء و المساكين ، أو للخدمات العامة .

2 . الجذام

يعتبر الجذام (¹) أحد أخطر الأمراض الجلدية المعدية التي تُصيب البشر ؛ و من منطلق الوقاية و الحرص على عدم انتقال العدوى ؛ أوصى الإسلام على الابتعاد عن المجدومين و عزّهم إن اقتضى الأمر ؛ و هو ما رواه أبو

(¹) الجدام : الجذام علةٌ رديئةٌ ؛ يُصاب بها الإنسان نتيجة لإنتشار المَرّة السوداء في جسده كُله ، و هو غالباً ما يُفسد مزاج الأعضاء و هيئتها و شكلها و لونها . أما أسباب الإصابة به عديدة ؛ فمنها مخالطة أشخاص مصابين به ، و إستنشاق هواءٍ فاسدٍ محمّل بالمرض ، أو تناول أطعمة غليظة

هريرة رضي الله عنه حين قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { لَا عَدُوَّ وَ لَا هَامَّةَ وَ لَا صَفْرُ ، وَ فِرٌّ مِنْ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ } (1) . و في العهد الأموي بُنيَ أوّلٌ بيمارستانٍ مخصّصٍ لمرض الجذام أو البرص في دمشق سنة 86 هـ ، و هو متخصصّ و ثابت لأنّه يحتاج إلى رعايةٍ خاصّةٍ ، و يُعزّل فيها المرضى عن المجتمع كلياً حتّى لا تنتقل العدوى لغيرهم ؛ و كان ذلك في عهد الخليفة الأموي " الوليد بن عبد الملك " (2) الذي أمرَ بحبس المجذومين حتّى لا يخرجوا و ينقلون المرض بين العامّة ، و أجرى عليهم الأرزاق ؛ لهذا يُعتبر أوّل من أنشأ بيمارساناً لمرضى الجذام في التاريخ . ثمّ تطوّر بعد ذلك في العصر العبّاسي ؛ إذ واصل الخلفاء العبّاسيون جهود الخلفاء الأمويين من قبلهم ، و هناك أمثلة عديدة تدلّ على إهتمام الخلفاء العبّاسيين بالمجذومين ، و إدراكهم بخطورة هذا المرض ، و حرصهم على عدم إنتقال العدوى إلى الأصحاء ؛ منها ما قام به الخليفة " المأمون " (3)

مثل اللّحوم و الألبان التي تُسبّب الامتلاء و انسداد المسام . و لهذا المرض جملةٌ من الأعراض و العلامات التي تُصاحبه أهمّها : سواد اللّون و ظهور الزوائد الجلدية المتحجرة . الخوارزمي : المصدر السابق ، ص. 184 ؛ ابن سينا ، أبو علي الحسين بن عبد الله : القانون في الطبّ ، تقديم : علي زيعور ، تحقيق : إدوار القشّ ، مؤسسة عزّ الدين للطباعة و النشر ، بيروت 1993 م ، ص. 140 ؛ الطّبري عليّ بن ربن (ت 232 هـ / 850 م) : فردوس الحكمة ، تحقيق : محمد زبير الصّدّقي ، مطبع أقتاب ، برلين (ألمانيا) 1928 م ، ج 3 ، ص. 319 .

(1) البخاري : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 40 ، رقم الحديث 5707 .

(2) الوليد بن عبد الملك : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحکم بن العاص بن أميّة بن عبد شمس بن مناف ، و أمّه " ولادة بنت العبّاس العبسي ، وُلد عام 50 هـ / 670 م ؛ و هو أكبر أولاد عبد الملك ؛ ولّاه أبوه ولاية العهد بعد وفاة عمّه " عبد العزيز " و بويع بالخلافة بدمشق في اليوم الذي توفي فيه والده سنة 86 هـ / 715 م ، و استمرّ حكمه قرابة عشر سنين . تميّزت فترة حكمه بإصلاحات داخلية واسعة ، و بناء المسجد الأموي و اتّساع رقعة الدولة نتيجةً لكثرة الفتوحات الإسلامية في كلّ من " بلاد ما وراء النهر " و " بلاد السند " و " بلاد المغرب و الأندلس " . ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص. 161 .

(3) المأمون : هو أبو العبّاس عبد الله (170 هـ - 218 هـ / 786 م - 833 م) ؛ ابن " هارون الرّشيد " و سابع الخلفاء العبّاسيين ، تولّى الخلافة بعد أن هزّم أخاه الخليفة " الأمين " ، و استولى على بغداد سنة 813 م ، تَعاطَفَ مع المعتزلة و حاولَ فرض مَذْهَبِهِمْ على جميع رعاياه ، شجّع العلم و العلماء و كان نفسه عالماً ، أنشأ في بغداد " بيت الحكمة " لترجمة الكتب الفلسفية و العلمية اليونانية و الفارسية و الهندية إلى العربية . محمّد كرد علي : المرجع السابق ، ص. 222 - 224 ؛ البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 413 .

الذي أمر بإنشاء بيوتٍ لمرضى الجذام خاصة بهم ، ثمّ سار على نهجه معظم الخلفاء العبّاسيين ؛ فقد أمر الخليفة " المستضيئ " (¹) أن يُجْعَلَ لهم أماكن خاصّة بهم بعيدة عن السكّان الأصحّاء ، و أوصى الخليفة " المهدي " برعاية المجذومين و أهل السجون في جميع الآفاق و سائر الأقاليم (²) ؛ كما أمر بإنشاء ديواناً للبرّ ، و ديواناً للصدقات لمساعدة المعوزين ، و في سنة 166 هـ ؛ و عندما انتقل الخليفة " المهدي " إلى قصره قَعَدَ للنّاس قعوداً عاماً ، و فَرَّقَ فيهم ثلاثة آلاف درهم ، و أغنى كلّ عائلٍ ، و جَبَّرَ كلّ كسرٍ ، و فرج كلّ مكروبٍ .

و ما يُمكن قوله في الأخير أنّ الشريعة الإسلامية أرشّدت إلى الوقاية من الأمراض كخطوةٍ لحماية النّاس من الوباء ، ثمّ دَعَت إلى تطبيق الحجر الصحي بمفهومه الواسع في الدخول إلى المناطق الموبوءة و الخروج منها و نَبّهت إلى العناية بالنّظافة الشخصية و تجنّب الأماكن الموبوءة أو المستقدرة ، و المسلم بطبعه مأمورٌ بتنفيذ ما جاء في الشريعة الإسلامية ؛ و لهذا فإنّ التنظيمات الشرّعية تُعتبر الخطّ الأوّل عند المجتمع لمواجهة الأوبئة و الطواعين .

3. الزلازل

الزلازل في العصر العبّاسي :

شهدت أقاليم الدولة العبّاسية العديد من الكوارث الطبيعية ؛ حصّدت الأرواح ، و أهلّكت الحرث و أهدّت الهلّع في أوساط ضحاياها ، و تعتبر الزلازل أخطر تلك الكوارث و أكثرها دماراً ؛ لما تُحدثه من خسائر بشرية و دمارٍ كبيرٍ في البنايات و المنشآت العامّة و الخاصة . و رغم صعوبة التعامل مع مثل هذه الكوارث ؛ حاوَلت الدولة العبّاسية أن تقدّم الدّعم لضحايا الزلازل ؛ من خلال تقديم الرّعاية الصحيّة ، و إعادة بناء ما تهدّم ؛ و هو

(¹) المستضيئ بالله (536 هـ . 5757 هـ / 1142 م . 1180 م) : الخليفة العبّاسي الثالث و الثلاثون ؛ عُرفَ بالحلم و النّزوع إلى الصّفح

و العفو ، و قد اتّسم حكمه بطابع العدالة و الإحسان ؛ فَرَفَع كثيراً من المظالم ، و عمِلَ على إلغاء المكوس ، و أطلقَ يده بالهبات و العطايا .

البلعكي : المرجع السابق ، ص. 424 .

(²) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص. 256 .

ما تجلّى في الزلزال الذي حدّث سنة (140 هـ / 757 م) في منطقة المصيصة (1) . و يورد ابن الأثير ما يدلّ على وقوع الزلزلة ؛ فيذكر : " ... أمر المنصور بعمارة مدينة المصيصة على يدّ (جبرائيل بن يحيى) و كان سورها قد تَشَعَّتْ من الزلازل ، و أهلها قليل ؛ فبنى السور و سمّاها المعمورة ، و بنى بها مسجداً جامعاً ، و فَرَضَ فيها لألف رجل ، و أسكنها كثيراً من أهلها (2) . و في نفس الشّأن ؛ يذكر المقدسي أنّه جاءت زلزلة في دولة بني العبّاس و أنّ الخليفة " أبي جعفر المنصور " ؛ و أثناء زيارته لبيت المقدس ؛ قام بإصلاح ما نَتَجَّ عن هذه الزلزلة من أضرار و أمرَ بقلع الصفائح الذهبية التي كانت على الأبواب في عمارته الأولى في عهد الخليفة الأموي " عبد الملك بن مروان " ؛ فقلّعت و ضُرِبَتْ دنانير و دراهم ، و أنفقَه في عمارة المسجد . و يوردُ لنا البلاذري نصّاً مهمّاً عن أحوال الخليفة " أبو جعفر المنصور " في ترميم و تتبّع حصون سواحل الشام ؛ فيقول : " ... فلمّا وُلِّي أبو جعفر المنصور تتبّع حصون السواحل و مُدُنُهَا ؛ فَعَمَّرَهَا و حَصَّنَهَا ، و بنى ما احتاج إلى البناء منها ، و فَعَلَّ ذلك بمدن التَّغُور ثمّ لَمَّا استخلفَ المهدي ؛ استتمّ ما كان بَقِيَ من المدن و الحصون و زاد في شحِنِهَا ... " (3) . هذا النصّ يُؤكِّد على الدور البارز للخلفاء في معالجة آثار الزلازل و المؤثرات الطبيعية الأخرى على هذه الحصون و المدن .

إنّ ما قام به الخليفة " المنصور " ما هو إلّا نموذجاً لجهود خلفاء بني العبّاس في مواجهة الآثار المدمّرة للزلازل التي حلّت بالدولة ؛ من خلال رعاية الجرحى و المحافظة على المدن و الحصون و القلاع ؛ كالزلزال الذي حدّث في بلاد

(1) المصيصة أو " المعمورة " : مدينة بأرض الرّوم على ساحل جيحان ؛ كانت من تغور الإسلام ، سُمِّيت بالمصيصة بن الرّوم بن اليقين بن سام بن نوح عليه السلام ، و جيحان نهر يخرج من بلاد الرّوم ، و يصل المصيصة ، و بين المصيصة و البحر إثنا عشر ميلاً . أنظر القزويني : آثار البلاد و أخبار العباد ، ص. 564 ؛ الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم : الروض المعطار في خبر الأوطان ، تحقيق : إحسان عبّاس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1980 ، ط 2 ، ص. 554 .

(2) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 646 .

(3) البلاذري : المصدر السابق ، ص. 167 .

الشام سنة 219 هـ / 834 م (1) ، و الزلزال الذي وقع في الموصل و أجزاء واسعة من بلاد الشام (2) و زلزال مدمّر آخر في سنة 245 هـ حدث في بلاد الشام ؛ و فيها أمر الخليفة " المتوكّل على الله " لمن تضرّر من الزلازل و أُصيبت منازلهم بثلاثة آلاف درهم (3) ، و غيرها من الزلازل التي حلّت بالدولة .

رابعاً : الجراحة .

كان علم الجراحة في بداية الدولة الإسلامية يُسمى بـ"صناعة اليد" ، و بقي لفترة طويلة من اختصاص الحلاقين و الحمامين ، الذين كانوا يقومون بالعمليات الجراحية البسيطة كالكيّ و الفصد و البتر و الختانة ، تحت إشراف و إرشاد الأطباء (4) ، الذين كانوا يستقون معلوماتهم الجراحية من كتب أطباء الفرس و الهند و الإغريق و بذلك كان الطبيب يتسامى عن ممارسة الجراحة ، و اقتصر دوره على الإستشارة و الإرشاد (5) ، و لكن بعد ظهور عباقرة الطبّ عند المسلمين ، سار هذا العلم خطواتٍ جديدةٍ نحو التجديد و الإبداع ، فابتكر هؤلاء طرقاً و وسائل و أدوات جديدة أعطت للجراحة دفعاً نحو الأمام ، و لعلّ أهمّها عملية التخدير ، إذ استعمل الأطباء المسلمون التخدير عن طريق الإستنشاق ، و كان ذلك يتمّ عن طريق الإسفنج المخدر ، فكانت توضع قطعة منه في عصاره من الحشيش و الأفيون ، ثمّ تُترك في الشمس لتجفّ ، ثمّ تُحفظ ، و قبيل بدء العملية تُخرج و تُرطب ثانيةً و تُوضع فوق أنف المريض و فمه ، فتمتصّ الأنسجة المخاطية ، فيخلد المريض إلى نوم عميقٍ أثناء العملية

(1) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج 11 ، ص.42 .

(2) المصدر نفسه ، ج 11 ، ص.176 .

(3) الطبري : المصدر السابق ، ج 5 ، ص.328 ؛ الزهراني : المرجع السابق ، ص. 196 .

(4) عبد العزيز اللبدي : تاريخ الجراحة عند العرب ، دار الكرميل للنشر و التوزيع ، عمّان (الأردن) 1992 م ، ص. 87 .

(5) محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص. 105 ؛ عبد الكرم شحادة : صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي الإسلامي ، منظمة الصحة

العالمية ، دار أكاديميا ، بيروت (لبنان) د س ط ، ص. 117 ، 118 .

الجراحية⁽¹⁾ ، و كان هذا الإكتشاف فتحاً في مجال الطبّ الجراحي ، و أكثر رحمةً من المشروبات المسكّرة التي استخدمها الهنود و الرومان و الإغريق ، حين كانوا يُجبرون مرضاهم على تناولها كلّما أرادوا تخفيف آلامهم . إضافةً إلى هذا فقد عرّف أطباء العصر العباسي التعقيم ؛ ليس بمعناه الحالي ؛ و إنّما كشرطٍ مهمٍّ لممارسة مهنة الجراحة ؛ فكانوا يهتمّون بنظافة بشياهم و تقليم أظفارهم ، و غسل أيديهم قبل العمل الجراحي بالسّدر و الماء ، و تنظيف المكان الذي تُجرى فيه العملية الجراحية ؛ فيُحرقون فيه البخور و يرشّونه بالعمّور⁽²⁾ .

أمّا فيما يخصّ إسهامات الأطباء في هذا الإختصاص فهي كثيرة ، نكتفي بما قام به كلّ من الرازي و ابن سينا ، فالرازي يُعتبر رائد الطبّ الجراحي الإسلامي ، و ترك بصماته في هذا المجال ، و أُعتبرت مؤلّفاته مرجعاً هاماً للأطباء الذين جاؤوا من بعده ، فقد خصّص جزءاً هاماً من كتابه (الحاوي في الطبّ) للجراحة و فيه شرح مفصّل لأعضاء جسم الإنسان ، و طرق علاج العلل و الأمراض التي تصيبها عن طريق الجراحة .

إنّ الرازي هو أوّل من فرّق بين الجراحة و غيرها من الموضوعات الطبيّة ، و أوّل من جعل أساس هذا العلم قائماً على التشريح و منافع الأعضاء و مواضعها ، و يُعرف عنه أيضاً أنّه أوّل من استخدم فتيلة الجرح و أمعاء الحيوانات⁽³⁾ ، فكان يخيّط الجروح خياطةً داخليةً لا تترك أثراً ظاهراً من الجانب الخارجي ، و كان يخيّط موضع العمليات بخيطٍ واحدٍ باستخدام إبرتين و أوتارٍ جلديّةٍ ؛ صنعها من أمعاء القطط و حيوانات أخرى ، إذ أنّ الجسم يمتصّها دون أن تُلحق به أذىً ، و في هذا الشأن تقول الكاتبة الألمانية : زيجريد هونكه : " ... إنّ الرازي علّم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكلٍ داخلي لا يترك شيئاً منها ... و كيفية التخييط بإبرتين و خيطٍ مثبّتٍ

(1) زيجريد هونكه : المرجع السابق ، ص. 279 .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 118 .

(3) محمد أمين فرشوخ : موسوعة عباقرة الإسلام في العلم و الأدب و الفكر و القيادة ، دار الفكر العربي ، 1992 ص. 46 ؛ أحمد شوكت

الشطّي : المرجع السابق ، ص. 226 ؛ بول غليونجي : قطف من تاريخ الطبّ ، دار المعارف ، القاهرة 1987 ، ص. 342 ؛ حسان الحلاق ،

المرجع السابق ، ص. 38 .

بهما ... " (1) ، ويرى الرازي أنّ الطبيب لا يلجأ للجراحة إلّا اضطراراً ، أي إلّا إذا كانت هي الحلّ الأخير و هو ما نجده في قوله : " ... متى رأيت الطبيب يُبرأ بالأدوية التي تعالج بعلاج الحديد و العملية الجراحية مثل الخراجات و اللوزتين و الغدد ... فمتى أجاد الطبيب في جميع هذه ، و لا يحتاج في شيءٍ منها إلى القطع إلّا أن تدعو لذلك ضرورة شديدة ... " (2) .

إنّ المتصّحّ للقسم الذي خصّصه الرازي للجراحة في كتابه (الحاوي) يُدرك مدى عظمة هذا الطبيب و سعة إطلاعه على الأمراض ، و طرق علاجها بالجراحة ، لذا نراه يصف و صفاً دقيقاً ؛ وافياً لجراحة مختلف الأعضاء كالعظام ، المفاصل ، أعضاء التناسل ، الأعصاب ، البطن ، الدماغ و المفاصل ، و طرق معالجة القروح الباطنية (3) ، و إيقاف النزيف الدموي ، و سُنحاول بحول الله ذكر بعض إنجازاته الجراحية التي تركت بصماته في هذا الإختصاص بالرّغم من مرور مئات السنين ، و منها أنّه تمكّن من إجراء عمليات جراحية في القصبّة الهوائية و يقول في هذا الصدد : " ... العلاج أن تكشف الأغشية الواصلة بين حلق قصبّة الرئة ، ليدخل النّفس منه و يمكن أن يتخلّص الإنسان ، و تسكن تلك الأسباب المانعة من النفس ، أن يُخاط و يرجع إلى حاله ، و وجه علاجه أن يمدّ الرأس إلى الخلف ، و يُمدّ الجلد ، و يُشقّ أسفل من الحنجرة ، ثمّ يمدّ بخيطين إلى فوق و أسفل حتّى تظهر قصبّة الرئة فإذا سن الورم ، و كان النفس ، فليخط و يُمسك قليلاً ، و يُجعل عليه دروزاً أصغر ... " (4)

(1) شمس العرب تسطع من الغرب ، ص. 278.

(2) الرازي ، أبوبكر محمد بن زكريا : الحاوي في الطبّ ، تحقيق : هشيم طعيمي ، دار إحياء التراث ، بيروت 2002 م ، ج. 7 ، ص. 425 .

(3) عبد العزيز اللّبدي : المرجع السابق ، ص. 88 ؛ عمار النجار : في تاريخ الطبّ في الدولة الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة 1969 م

ط. 3 ، ص. 106 .

(4) الرازي : الحاوي في الطبّ ، ج 3 ، ص. 225 .

و للرازي وصف دقيق لعملية إزالة جزءٍ من العظام المريضة ، أو إستئصالها كلّها ، و استخدام الماء البارد في علاج الحروق ، و هي طريقة حديثة جداً ، و تستعمل في الوقت الحاضر كإجراء إسعافٍ أوّلي لحروق الأطراف حيث يوضع الذراع أو الساق في ماءٍ باردٍ لمدةٍ دقيقتين ، و قد ثبت أنّ هذا يؤدي إلى تقليل الألم ⁽¹⁾ ، كما عُرف عن الرازي قيامه بجراحة التجميل ، و قد بيّن كيفية هذه الجراحة في الشفة و الأنف و الأذن ، حين تطرأ عليها الضخامة من نتوءٍ بارزٍ أو قطعٍ ، بحيث تعود هذه الأعضاء إلى حالتها الطبيعية فيرتفع القبح الناشئ عن اللّحمة الزائدة ⁽²⁾ .

أمّا ابن سينا ، فإسهاماته في علم الجراحة كبيرة ، و بعد إطلاعي على الكتاب الرابع من كتابه (القانون في الطب) إنبهت بما قدّمه في هذا الإختصاص ، لما يحتويه هذا الجزء من شرحٍ مفصّلٍ للجراحات المختلفة ، البسيطة منها و المعقّدة ، و طرق شقّ اللّحم ، و إخراج الأعضاء و معالجتها ، ثمّ إدخالها ، و كيفية خياطتها ، فنجده يُخصّص فصولاً كاملةً لأنواع الجراحات ، كالجراحة الجلدية ، و جراحة الأعصاب ، و إزالة الأورام ، و جراحة البطن ، وغيرها ، كما وصف بعض الأدوية المساعدة على إلتئام الجروح ، و شفاء القروح و الحروق .

لقد أبدع " ابن سينا " في وصفه للجراحة الجلدية ، إذ يُقسّم الشقّ إلى أقسام ، فقد يكون هذا الشقّ مستقيماً و بسيطاً أو مُدوّراً ، أو ذا أضلاع ، و في هذه الحالة ، يكتفي الطبيب بشدّه أو ربطه ، و منع الدهانة عنه ، لأنّه لم يسقط منه شيء ، و قد يكون الشقّ عظيماً ، لا تلتقي أطرافه ، لأنّه مستدير أو متباعد أو قد ذهب منه لحم قليل ؛ و في هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى خياطته و تحفيفه و منع إجتماع الرطوبة فيه ، وقد يكون هذا الشقّ مستقيماً و غائراً ، و يكفي أن يشدّه الطبيب و يلصقه ، ثمّ يربطه ، فيلتئم الجرح ⁽³⁾ ، و تشترك جميع هذه

(1) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 228 .

(2) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 231 .

(3) ابن سينا : المصدر السابق ، ص 1966 .

الجراحات في حبس الدّم السائل ، و سيلان الدّم في نظره يمنع الورم و الحمّى ، إذ يقول في هذا الشأن : " ... فإنّ أفضل ما يعني به الجراحات ، أن تمنع تورّمها ، فإنّه إذ لم يعرض ورم ، تمكّن من خلله مع الجراحة دّم يريد أن يرم أو يتقيح (1) .

لم يكتفِ ابن سينا بما ذكرناه ، و إنّما نراه يصف لنا بعض الجراحات الخطيرة و المعقّدة ، و التي ينتج عنها حسب رأيه أعراضٌ منكرةٌ رديئةٌ ، كالتغيّر في اللون ، أو تراجع في النبض ، أو الغثيان ، أو الغشيّ ، أو التشنّج أو سقوط القوة ، و يُبيّن كيفية التعامل معها ، و من تلك الجراحات : جراحة الأعصاب و أطراف العضلات و الركبة ، إذ يجد الطبيب نفسه أحياناً مضطراً إلى بترٍ و قطع بعض الأعضاء ؛ إن أصابتها القروح و تعفّنت ، و لم تقبل العلاج ، و يقول في هذا الصدد : " ... و إذا وقع تشنّج (2) من مثل هذه الجراحات العضلية ، و لم تقبل العلاج ، فالعلاج قطع العضلة عرضاً ، و الرضا ببطلان فعل العضلة ، و لكنّ ذلك ممّا يجب أن يُؤخر ما أمكن ... " (3) ، أمّا جراحة الركبة في نظر ابن سينا ، فتكون بشقّ صليبي ، يتبعه إزالة الأورام (4) و القروح و منع الالتحام و لا يُخاط الجرح إلّا بعد تنقيته كاملاً (5) .

(1) نفسه ، ص. 1966 .

(2) التشنّج هو تقبّض الجلد و الأصابع و غيرهما . ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل ، محمد بن علي : لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي لكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، المجلّد الرابع ، دار المعارف . القاهرة . ص 2337 ؛ ابن الحشاء : مفيد العلوم و مبيد الهموم ، تحقيق : جورج . س . كولان ، ه . ب . ج . رنو ، المطبعة الإقتصادية مصطفى بن عبد الله ، الرباط (المغرب) 1941 ، ص. 221 .

(3) ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 3 ، ص. 1967 .

(4) الورم : هو التواء و الإنتفاخ الذي يصيب الجلد . ابن منظور : المصدر السابق ، مج. 6 ، ص. 4820 ؛ ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 174 .

(5) ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 3 ، ص. 1967 .

أمّا فيما يخصّ الجراحات ذات الأورام و الأوجاع ، يرى " الشيخ الرئيس " أنّها تحتاج إلى الرفق ، و الحرص على أن لا يندمل الجرح ، و لأجل ذلك ينصح باستعمال رمانة حلوة ، مطبوخة بشراب ، ثمّ التأمّل إلى ما يؤول إليه حال الورم ، ثمّ التعامل مع الأعراض الناتجة عن ذلك ، و يقول في هذا الشأن : " ... و أن تستعمل فيه علاج الأورام بالجملة ، و ممّا هو خاص بذلك ، مع عموم نفعه في كلّ عَضْوٍ ، و من الرّأس إلى القدم ، أن يؤخذ برمانة حلوة ، فتُطبخ بشرابٍ ، و يُضمّد به الموضع ، و يجب أن يتأمّل إلى ما يؤول إليه حال الورم ، مثل أنّك إذا إستعملت المرهم ⁽¹⁾ الأسود ، فرأيت الجراحة تشتدّ حُمرتها أو تتنقّط ، ملت إلى المبرّدات و إلى المرهم الأبيض و إذا رأيتها تتصلّب ، وقد إستعملت المرهم الأبيض ، إستعملت الأسود أو غيره ... " ⁽²⁾ .

إنّ الجراحات المعقّدة ، الخاصة بالأعصاب و العظام و الأحشاء و الأورام في نظر " ابن سينا " ، تستدعي مهارةً كبيرةً ، و إطلاّعاً واسعاً على الأعضاء و وظائفها ، لذلك نراه على غرار الرازي يربط علم الجراحة بعلم التشريح ، و قد خصّص فصلاً كاملاً لهذا الغرض ؛ فنراه يُحدّد موضع الشقّ ، و يوضّح كيفية شدّ الأعضاء و إخراج الأمعاء و ردّها ، ثمّ طريقة خياطتها ؛ و يقول في هذا الصدد : " ... و لمّا قد ذكرنا في التشريح فموضع الخصرتين ⁽³⁾ أقلّ خطراً ، لأنّ الشقّ إذا وقع في موقع الهبرة ⁽⁴⁾ ، خرجت الأمعاء معه أكثر ، و ردّها

⁽¹⁾ المرهم : هو ألين ما يكون من الدواء الذي تُضمّد به الجروح ، أو هو إسم لدواء الجراحات ، و يُقَيّد بإسم بعض ما فيه من الأدوية ، أو بإسم أوّل طبيب إتخذه ، أو بإسم علّة ينفع منها كثيراً ، أو نحو ذلك . ابن منظور : المصدر السابق ، مج. 6 ، ص. 4188 ؛ ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 174 .

⁽²⁾ ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 3 ، ص. 1969 .

⁽³⁾ الخصرتين : و يقصد بهما وسط البدن . ابن منظور : المصدر السابق ، مج. 4 ، ص. 107 .

⁽⁴⁾ الهبرة : هي بضعة من اللّحم الذي لا عظم فيه . ابن منظور : المصدر السابق ، مج. 15 ، ص. 15 .

فيه قد يكون أعسر ، و ذلك لأنّ الشئ الذي كان يضبطهما ، إنّما كان في العضلتين المنحدرتين من طول الصدر إلى عظمة العانة ... " (1) .

إضافةً إلى كلّ هذا ، نرى ابن سينا يُخصّص فصولاً أخرى للأمراض ذات الصلة بعلم الجراحة ، فنجده يُخصّص فصلاً في كيفية ربط الجراحات (2) ، و فصلاً آخرّاً للأدوية الملحمة للجروح (3) ، و آخرّاً للأدوية المُنبّئة للحم في الجراح و القروح (4) ، و فصلاً في الصدمة و الضربة على البطن و الأحشاء (5) ، و آخر في الوخز ، و إخراج ما يجتسب من الشوك و العظام و السهام (6) ، و فصلاً في علاج حرق النار . (7)

أمّا علي بن عباس الأهوازي (8) ؛ فقد خصّص في مؤلّفه (كامل الصناعة الطبيّة) قسمًا كبيراً للجراحة و وصّف طريقة جراحة المرض المسمّى " أمّ الدمّ " aneurysm و صفاً رائعاً ، و بيّن طريقة إستئصال اللّوزتين و عملية تجبير الفكّ الأسفل ، و عملية استخراج الحصىّات من المثانة (9) ؛ كما وصف الدورة الدموية في الأوعية

(1) العانة : جزء مهمّ من الأعضاء التناسلية لدى المرأة و الرجل ، و منطقة تجمّع الدهون ، يكسوها شعر متفاوت في كثافته و درجة نموه ، هذا الشعر ينمو في المراحل الأولى من البلوغ و يُصاحبه عادةً شعر تحت الإبطن ، كما يُصاحب شعر العانة تغيّرات مُتصاعدة في شكل الأعضاء التناسلية عند الجنسين . سيغمند ستيفن لم : الموسوعة الطبيّة الكاملة للأسرة ، ترجمة : أنس الزفاعي ، دار الفكر العربي ، دمشق 1408 هـ / 1987 م . ص. 366 - 377 ؛ عبد المنعم مصطفى : الموسوعة الطبيّة العائلية ، المؤسسة العربية للدراسات و النّشر ، بيروت 1987 ، ص. 8 ، 128 .

(2) ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 3 ، ص. 1970 .

(3) المصدر نفسه ؛ مج. 3 ، ص. 1973 .

(4) المصدر نفسه ، مج. 3 ، ص. 1975 .

(5) ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 3 ، ص. 1976 .

(6) المصدر نفسه ، مج. 3 ، ص. 1983 .

(7) المصدر نفسه ، مج. 3 ، ص. 1985 .

(8) لمعرفة هذه الشخصية ؛ أنظر الفصل الرابع من هذا البحث ؛ ص. 150 .

(9) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 113 .

الأوعية الشعرية ؛ أثناء كلامه عن وظيفتي الإنقباض و الإنبساط في الجسم ، و عالج الورم بشقّ الجلد شقاً حسب الطول لإخراج الدّم ، و كشف الشريان (1) .

و ما يمكن قوله في الأخير أنّ أطباء العصر العباسي قد سموا بمكانة الجراحة ، و رَفَعوا من مقدارها ؛ و هي التي كانت تُعدّ مهنةً وضيعةً يُياشرها الحلاقون و الجزّارون و الحجامون ؛ الذين كانوا يقومون بعمليات الكيّ و الفصد و قلع الأسنان . و إذا قارنا واقع الجراحة في العصر العباسي بما كانت عليه في الغرب المسيحي ؛ نجد أنّها حينما كانت في ذروتها أثناء ازدهار حكم المسلمين ؛ كانت الجراحة نفسها محتقرة في أوروبا ، و الجراحون منظرٌ إليهم كأنجاسٍ ، وكانت الجراحة عندهم في أيدي الحلاقين و الجزّارين ، و كانت المدارس الطبيّة تتحاشى تعليم الجراحة في القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر ؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّها لا تليق بالأطباء المحترمين ، و أنّه لا يجوز لهم أن يُغيّروا ما خلّقه الله . ففي عام 1163 م أصدر مجلس " تور " البابوي قراراً يوجِبُ المدارس الطبيّة أن يُهمّلوا تعليم الجراحة . كلّ هذا بينما كان الأطباء المسلمون يُشيدون للطبّ مقاماً رفيعاً ، و يعتبرون الجراحة قسماً منفرداً و محترماً من الطبّ . كما أنّ مدرسة " مونبيلييه " الطبيّة الشهيرة في فرنسا ألغت في القرن السابع عشر دراستها الجراحية ، و أصدرت أمراً يُحرم على تلاميذها دراسة الجراحة و مزاولتها (2) .

خامساً : الطبّ النفسي :

يُعتبر المسلمون أوّل من مارسوا الطبّ النفسي ، و وضعوا له أسساً و ضوابط ، و تمكّنوا بفضل ذكائهم و فطنتهم و حكمتهم ؛ من معالجة بعض الأمراض النفسيّة ، التي كانت مستعصية ، و أدركوا مدى تأثير الحالات النفسيّة على الجسد و حركته ، و تُعدّ إسهاماتهم في هذا المجال مرجعاً مهماً لغيرهم من أطباء الغرب المسيحي و كان لهم الفضل الكبير فيما وصل إليه الطبّ النفسي الحديث .

(1) أحمد موراني : تاريخ العلوم عند العرب ، دار المشرق ، بيروت 1989 م ، ص. 53 .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 110 .

إنّ الحديث عن الطبّ التّفسي ؛ يجرّنا إلى التّطرق لتلك الإسهامات الكبيرة للأطباء العبّاسيين في هذا المجال و لعلّ من أبرزهم : الطبيب الكبير " الرازي " ؛ الذي يعتبر أوّل طبيب في تاريخ البشرية يُدرك الأصول التّفسانية لإلتهاب المفاصل الروماتيزمي ، و يقرّر طريقة جديدة لعلاجّه ، و في هذا الصدد ، نذكر قصّة علاجه للأمير بخارى ⁽¹⁾ " منصور بن نوح الساماني " ⁽²⁾ ؛ الذي كان يعاني من مرضٍ نفسيٍّ أُنهكه ، و أقعده الفراش ، و شلّ حركته شللاً تاماً ، و استعصى علاجه ، فلمّا جيئ بالرازي لعلاجّه ، أدرك بحسّه الطّبي العميق أنّ هذا الداء من الأمراض الجسدية النّاتجة عن اضطرابات نفسية ، و أكثر النّاس تعرّضاً له ، أولائك الذين يكظمون نوبات الغضب في أعماقهم ، و هذا ما أدركه الرازي ، و استخلص منه كلّ ما ينطوي عليه من نتائج ، فقد أمر بحمل الأمير إلى أحد الحّمّامات العامة ، و هناك غمره بعض الوقت في الماء الساخن ، ثمّ جعل يشتمه و يسبّه حتّى ثارت نائرة الأمير ، و نهض على ركبتيه ؛ يريد الإنقضاض على الرازي ، و عندئذٍ ، استلّ سكّيناً كما لو كان يهّم بمهاجمة الأمير ، و قد ازدادت شتائمّه ، و علا صياحه ، و فجأةً وقعت المعجزة ، و وقف الأمير على قدميه لكي يبطش بالرازي ، و جرى وراءه ، و بذلك فُكّ أسرّه ، و عادت إليه رشاقته و ثقته بنفسه و بقواه ⁽³⁾ .

⁽¹⁾ بخارى : مدينة من أعظم مدن بلاد ما وراء النّهر ، بينها و بين جيحون مسيرة يومين . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج. 1 ، ص. 303 .

H A R GIBB : op . cit , vol 2 , p 1293

⁽²⁾ منصور بن نوح : هو منصور بن نوح بن نصر الساماني ؛ المكنّى بـ " أبي صالح " ، أمير بلاد ما وراء النهر ، تولّى الإمارة بعد وفاة أخيه عبد الملك سنة 350 هـ ، و كانت علاقته بـ " ركن الدولة البويهّي " متوتّرة ، فكانت الحروب تستعر بينهما ؛ لولا أنّ منصوراً أظهر حكماً و رويّةً ، دلّ بهما على حسن سياسته فأطففت نار الفتنة بسلام ، توفي في بخارى سنة 366 هـ . عبد السلام الترماني : أحداث التاريخ الإسلامي ، دار طلاس ، دمشق 1411 هـ / 1991 م ، ص. 815 .

⁽³⁾ محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الجليل ، بيروت 1998 ، ص. 288 ؛ أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 226 ؛ عامر التّجار : المرجع السابق ، ص. 105 ؛ عبد الخليم منتصر : تاريخ العلم و دور العلماء في تقدّمه ، دار المعارف الإسكندرية 1969 ، ط. 3 ، ص. 151 ؛ عبد الرحمن محمد العيسوي : المرجع السابق ، ص. 39 .

يؤكد الرازي على أهمية العامل النفسي في الصحة و المرض ، بل في الأمراض العضوية ، فهو يرى أنّ سوء الهضم ؛ قد ينشأ عن أسباب نفسية ، و يتّضح ذلك في قوله : " ... قد يكون لسوء الهضم أسباب بخلاف رداءة الكبد و الطحال ، منها حال الهواء و الإستحمام ، و نقص الشرب ، و كثرة إخراج الدّم ، و الجماع ، و الهموم النفسانية ⁽¹⁾ ، لذلك يدعو الرازي إلى بث روح الأمل ، و قوة الحياة في نفس المريض مهما كانت حالته ، لما للعامل النفسي من تأثير فيه ، فقد نقل ابن أبي أصيبعة من مآثور أقوال الرازي هذه العبارة : " ... ينبغي للطبيب أن يوهّم المريض أبداً الصّحة ؛ يُرجيه بها و إن كان غير واثقٍ بذلك ، فمزاج الجسم تابع لإخلاق النّفس ... " ⁽²⁾ و يذهب الرازي إلى أنّ النّفس هي التي لها الشأن الأساسي فيما بينها و بين البدن من صلّات ، فواضح أنّ ما يجري من خواطر و هواجس ، و ما تُلاقيه من آلامٍ و مآسٍ ، إنّما يطفو كلّ هذا على السّطح من خلال الملامح الظاهرة ، لذلك يرى أنّه من الضروري على الطبيب أن يهتمّ بالجانب النفسي للمريض ، و لهذا قام بتأليف كتابه : (الطبّ الروحاني) ؛ الذي يهدف من وراءه إلى إصلاح النّفس ⁽³⁾ .

و من الحالات الطريفة التي نجح الرازي في علاجها ، حالة جارية من جواري ملك السامانيين ، و كانت قد تقوّست قامتها ، فلم تستطع إنتصابها إطلاقاً ، و لقد طلب هذا الملك من الرازي علاجها ، فلم يشأ أن يستعمل معها الأدوية و العقاقير ، و إنّما لجأ إلى أسلوب نفسي ؛ بأن أمر أن تخلع ثيابها حتى تنكشف عورتها ، و لمّا

(1) الحاوي في الطبّ ، ج 3 ، ص. 61 .

(2) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، ص. 420 .

(3) عامر النّجار : المرجع السابق ، ص. 105 .

حاولت الجوّاري خلع ثيابها ، بدأت بمقاومتهم ، و أثناء ذلك إنتصبت قامتها ، و أصبحت سليمة ، و معنى ذلك أنّ الرازي قد أدرك ما تُسميه اليوم بالأمراض الوظيفية (1) .

أمّا الشيخ الرئيس " ابن سينا " ؛ فقد أظهر تفوّقه في علاج بعض الأمراض النفسيّة و العقلية ، فهو في الحقيقة حجّة في الطبّ النفسيّ إلى جانب الطبّ الجسدي ، و الشواهد على ذلك كثيرة ، فله كتابات قيّمة في علاج بعض الإضطرابات النفسيّة و العقلية ، بل إنّه يُخصّص أقساماً مستقلّةً من كتبه لأمراض متعدّدة ، كالقلق و الإكتئاب و فقدان الذاكرة و القوّة الجنسيّة ، فهو لم يكتف بوصف هذه الأمراض ، بل قام بمحاولات جادّة لعلاجها ، يدلّ على حدس عبقريّ مبكّرٍ ببعض الحقائق الهامّة في دراسة الأمراض النفسيّة و العقلية ، وربطها بالتغيّرات الفيسيولوجية ، و مثال ذلك أنّه بيّن كيف تنعكس العوامل النفسيّة على عملية النبض ؛ من خلال تشخيصه لمرض العشق ، الذي صنّفه ضمن الأمراض الجسدية التي تحتاج إلى علاجٍ نفسيّ ، و قد أبدى ابن سينا طريقةً ذكيّةً لعلاجها ، فكان يذكر أسماءً كثيرةً أمام المرضى بالعشق ، على أن تُعاد مراراً ، و تكون اليدّ على نبضه فإذا اختلف وزن نبضه اختلافاً عظيماً ، و صار عند ذكر إسمٍ معيّنٍ شبه منقطع ، ثمّ عاد إلى حاله بعد ذلك علّم إسم المعشوق ، وقد جرّب ابن سينا هذه الطريقة مراراً ، و إستعان بها في دراسة الأمراض العصبيّة و الإضطرابات النفسيّة و معالجتها (2) .

و من الحالات النفسيّة التي عالجها الحكيم ابن سينا ، أمراض الإكتئاب و الوهم ، وفي هذا الصدد ؛ نسرّد قصّة ذلك الشخص الذي توهم أنّه بقرة ، فأصبح مصدرّاً دائماً لفرع أبيه الأمير و إزعاج المحيطين به ، و ذلك لخوفه

(1) عبد الرحمن العيسوي : علم النفس الطّبيّ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص. 379 ، عبد الرحمن العيسوي : علم النفس الإكلينيكي ص. 39 ، 40 .

(2) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 252 · 253 ؛ محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع السابق ، ص. 300 ؛ حسان الحلاق : المرجع السابق ، ص. 45 .

الدائم و خواره المستمرّ كالبقرة ، و إصراره على أن يذبحوه و يأكلوا من لحمه ، و كان من نتيجة ذلك أن امتنع عن الطعام ، و نقص وزنه ، و هزل هزالاً شديداً ، و قبل أن يُحضروا ابن سينا لمعالجته ، أوعز إلى أهله أن يُبلغوا مريضهم بأن يستعدّ لقدم الجزار لذبحه ، ثمّ دخل ابن سينا على المريض و بيده سكّين ، و هو يسأل : أين البقرة ؟ فانبعث من المريض خوار كالبقرة ليدلّ على موقعه ، فطرح أرضاً ، و أوثقت قدماه و يداه ، و لما همّ ابن سينا على ذبحه ؛ ألقى السكّين و هو يقول : إنّها بقرة عجفاء لم يحن الوقت لذبجها بعد ، بل من الواجب تغذيتها حتى تسمن ، و عندئذٍ من الممكن ذبحها ، و عند ذلك أقبل الشاب المريض على تناول الطعام ثمّ أخذ يستعيد صحّته تدريجياً إلى أن شُفي من مرضه (1) .

لقد كان ابن سينا يريد أن يُقنع مريضه بالأكل أولاً ، فلعلّه يُشفى من إكتابه إذا نال كفايته من الطعام و لكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك مباشرة كيلا يُصدمه أو يزيد من صدمته التي تشتدّ و تتعقدّ يوماً بعد يوم ، و لعلّ إصرار أهله على أنّه مصاب بوهم أنّه بقرة ، و أنّه ليس كذلك ، بل هو إنسان كسائر الناس ، هو الذي زاد من حدّة مرضه و فقدانه الثّقة بأهله ، و هو ما أدركه الشيخ الرّئيس ، فلجأ إلى بناء تلك الثّقة بينه و بين المريض فعمد إلى الحيلة و المداورة ، ليتسّى له الدخول إلى عقله ، و يُعيد تنظيم شخصيته من جديد ، لأنّه ليس في وضع يُمكنه من إقناع المريض بخطأ معتقدٍ في نفسه ، كيلا يزيده تشبّثاً بالمرض ، فتزيد حالته سوءً ، و بذلك يقع ابن سينا فيما وقع فيه أهل المريض ؛ الذين حاولوا بشتى الطرق إقناعه بأنّه إنسان ، و لكن دون جدوى ، لأنّها وسائل بدائية لا تُجدي ، و بالتالي لا بدّ من وسيلةٍ جديدةٍ ، و قد إكتشف ابن سينا هذه الطريقة ، و هنا تكمن عبقريته (2) .

(1) عبد الرحمن العيسوي : علم النفس الطّبي ، ص. 381 ؛ أحمد شوكت الشّطيّ : المرجع السابق ، ص. 253 ؛ حسان الحلاق : المرجع

السابق ، ص. 45 .

(2) محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع السابق ، ص. 302 .

و من أطباء العصر العباسي الذين كانت لهم إسهامات في الطبّ النفسى ، نذكر الطبيب : " عليّ بن ربن الطبري " (1) ؛ صاحب كتاب (فردوس الحكمة في الطبّ) ؛ الذي وصف بعض الأمراض النفسية ، مثل آلام الرأس ، و الصرع و المرض الكاهني ؛ الذي يتكهن صاحبه و تظهر له أشياءً عجيبةً ، و الوحشة ، و الوسوسة و الهذيان ، و فساد الخيال و العقل ، و النسيان ، و التوحش في البراري ، و السهر ، و الثبات ، و الدوار فالمرضى نفسياً حسب اعتقاده ؛ قد يسمع أصواتاً و دويّاً لا يسمعه غيره ، و يرى شيئاً يشبه النار أو الذباب و يرى الشئ شئين ؛ و قد يحسب نفسه من خرفٍ ، و يخاف أن يمسه شئ فينكسر ، أو يتوهّم أنه إبل بري فيهرب من الناس ، و كلّ ذلك يُنخّل من عللٍ تحدث في الدماغ ، و تلك العلل قد تكون من أسقامٍ نفسية كالحزن ، و الغضب ، و العشق كما يرى الطبري أنّ جميع ما يُعرض للإنسان من وجهين ، إمّا عارض للنفس و إمّا عارض للجسد ، فعلاج ما يُعرض للنفس إدخال السرور و الأمن عليها ، و محاولة إزالة الهمّ و الخوف عنها بالأحاديث الساترة الموافقة للمريض ، كما يروي الطبري وقائع و أحداثاً عن إقدام بعض الرجال و النساء على ذبح أنفسهم ، أو تعليقها في الأشجار عند أيّ خوفٍ أو غمّ ينزل بهم (2) .

و ممّا يُروى عن " أبي البركات هبة الله عليّ بن ملكا " (3) أنّ مريضاً ببغداد كان قد يعتقد أن على رأسه دنأً و أنّه لا يُفارقهُ أبداً ؛ فكان كلّما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة ، و يمشي برفقٍ و لا يترك أحداً يدنو منه

(1) لمعرفة هذه الشخصية ؛ أنظر الفصل الرابع من هذا البحث ، ص. 137 .

(2) إحسان صدقي العمدة : الطبّ النفسى عند العرب و المسلمين ، مجلة العربي ، العدد 333 ، أوت 1987 م ، ص. 56 .

(3) هبة الله بن ملكا البغدادي : هو أبو البركات ؛ المعروف باسم " أوحد الزمان " ، ولد في بغداد سنة 480 هـ ، و توفي بمحمدان سنة 560 هـ ، كان يهودياً ، ثمّ أسلم ، يعتبر مكتشف القانون الثالث للحركة بإجماع مؤرخي العلوم ، وله دورٌ في اكتشاف القانون الثاني للحركة ، الذي طوره و بلوره إسحاق نيوتن ، و يُروى أنّ سبب إسلامه ؛ أنّه كان في صحبة السلطان " محمود " ببلاد الجبل ، و كانت زوجة محمود بنت عمّه ، و كان لها مكرماً مُطيعاً ، فلمّا ماتت ؛ حزن عليها محموداً حزناً شديداً ، ولمّا عاين أبو البركات ذلك الجزع من محمود خاف على نفسه من القتل ؛ إذ هو الطبيب ، فأسلم

حتى لا يميل الدنّ أو يقع عن رأسه ، و بَقِيَ في هذا المريض مدّة وهو في شدّة منه ، و عَجَزَ العديد من الأطباء من علاجه ، و لَمَّا جِيءَ به إلى " أبي البركات " تمكّن من علاجه بذكائه الفائق ؛ إذ أمرَ غلاماً أن يضربَ بعصاً من فوق رأس المريض ، و أمرَ غلاماً آخر في نفس الوقت أن يرمي دُتّاً من وراء هذا المريض ، فلمّا عاينَ ما فُعِلَ به و رأى الدنّ المنكسر ؛ تأوّه لِكسْرِهم إيّاه ، و لم يشكّ أنّه الذي كان فوق رأسه بِرَعْمِهِ ، و أثر فيه الوهم أثراً و برئى من علته تلك (1) .

سادساً : طبّ النّساء و الولادة

لعبت المرأة دوراً بارزاً في الطبّ الإسلامي ؛ فكانت عضواً لا يمكن أن يُعقلَ عنه في الممارسات الطبيّة الخاصّة بالنّساء ؛ سواءً داخل البيمارستانات أو في البيوت ؛ من خلال إكتسابها و إتقانها لمهنتي التمريض و القبالة . ففي داخل البيمارستانات كانت الممرّضات من النّساء يعملن في الأقسام الخاصّة بالنّساء ؛ و في حين أنّ الممرّضين من الرّجال كانوا يُشرفون على القاعات الخاصّة بالرّجال (2) . و إلى جانب هؤلاء الممرّضات ؛ ظهرت القابلات (3) اللّاتي كنّ يمارسن طبابة النّساء و فحَصِهِنَّ ، و مُباشرةً عملية الوضع لهنّ ؛ و وفقاً لتوجيهات الأطباء الذين كانوا يستعينون بهنّ في تدبير أمور النّساء لأهنّ متطلّعات على عورتِهِنَّ ؛ كما أنّه من المعروف أن المرأة المسلمة الحامل أو المؤهّلة للحمل كانت تلجأ في فحصها النّسائي إلى المرأة ، و تأبى أن تكشفَ عورتها للرجل ليّفحصها إلاّ إذا استدعى الأمر تدخّل الطبيب الجراح لحلّ المشكلات العسيرة .

طلباً لسلامة نفسه . القفطي : المصدر السابق ، ص. 349 ؛ البيهقي ، ظهر الدين : تاريخ حكماء الإسلام ، تحقيق : محمد كرد علي ، مطبعة الترقّي ، دمشق 1365 / 1946 ، ص. 152 ، 154 .

(1) ابن أبي أُصَيْبَةَ : المصدر السابق ، ص. 374 ، 375 ؛ عفيفي محمّد الصادق : المرجع السابق ، ص. 183 .

(2) عيسى بك : المرجع السابق ، ص. 18 .

(3) يذكر " ابن خلدون " : " ... و تُسمى القائمة على ذلك منهجٌ بالقبالة ... استعير فيها معنى الإعطاء و القبول ؛ كأنّ النّفساء تُعطيها الجنين و كأنّها تُقبّله . ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ، ص. 517 .

أعار أطباء العصر العباسي القبالة إهتماماً بالغاً ، و أسندوا إلى القوابل دوراً هاماً و رئيسياً في فحص الحامل و الماخض و مساعدتها في الولادة و تدبير أمورها إذا طرأ عليها ما يُعيق خروج الجنين من رحم أمه سالماً ؛ لذا فقد إهتموا بتعليمهن فنون التوليد و القبالة ، و أفاضوا في مؤلفاتهم في الكلام على دور القبالة أو المساعدة التي كانوا يُكلّفونها بفحص المرأة ، و يعتمدون عليها في نقل المعلومات التي يدلّ عليها الفحص ، و من ثمّ يُوجّهونها فيما يجب أن تقوم به .

و نظراً للأهميّة الكبيرة التي كانت تكتسيها مهنة القبالة في المجتمع الإسلامي ؛ كان لزاماً أن تتوفر بعض الصفات في القبالة لمزاولة هذه الممارسة ؛ إذ أنّ أغلب الأسر كانت تُفضّل القابلات المتزوجات ، و تختار كبيرات السنّ لخبرتهنّ ، و تُفضّل من يتّصفنّ بالصبر و البشاشة و النظافة و برودة العين (ألا تكون حاسدة) و من لهنّ الخبرة بعناية المولود . و جرت العادة أن تختار كلّ امرأة قابلة معيّنة ؛ كما جرت العادة أن يتمّ الإتفاق مع القبالة على الأجر قبل عملية الوضع ، و حتّى لا يحدث نزاع حول تحديد أجرها قبل الوضع ؛ و الذي كان يخضع في تحديده إلى عدّة تغيّرات ؛ أهمّها : نوع المولود ؛ فالأجر يتضاعف في حالة الطفل الذكر عن الأنثى ، كما يتفاوت الأجر لترتيب الطفل ، و يزيد الأجر في حالة الطفل الأوّل أو إذا كان المولود ذكراً بعد عددي من الإناث ، أو جاء بعد فترةٍ طويلةٍ من الزواج.

إنّ دور القبالة لم يقتصر على تدبير أمور الولادة فحسب ؛ و إنّما تعدّدت أدوارها بين وقائية و علاجية و جمالية ، و تبدأ تلك الأدوار قبل ليلة الزفاف مع تحنيط العروس و بعض المقرّبين لها ، و تنظيف و تدليك جسمها و يستمرّ إلى إسداء النصيحة للزوجة في علاقتها بزوجها ، و في التخلص من أيّ مشكلات صحيّة تتعلق بمجال النساء و التوليد ؛ كآلام الظهر أو الحيض ، و تستمرّ نصائح القبالة حتّى يوم الوضع ؛ و ذلك بمساعدة الواضعة و حلّ بعض مشكلاتها (¹) ، كما كانت تقوم بتدبير الحامل منذ معرفتها بعلامات الحمل ؛ فتمنع عنها الفصد

(¹) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 518 .

و الإسهال ؛ و خصوصاً قبل الشهر الرابع ؛ لأنّه أوّل التكوين ، و بعد السابع ؛ لأنّ تعلّقه حينئذ يكون أضعف كالثمرّة عند ابتداء تكوّنها و انتهائها (1) . و كانت القابلة تحضر قبل موعد الولادة بيومين أو ثلاثة أيّام إلى منزل السيّدة المحتاجة إلى المساعدة ، و تُحضّر معها كرسيّ الولادة الذي تجلس عليه المرأة أثناء عملية الولادة ، و كان يُعطى بِشالٍ أو منشفة مطروزة ، و يُزيّن ببعض الزهور و الورود ، و يوضّع أمام منزل الحامل إعلاناً عن قرب وصول مولودها .

إضافةً إلى كلّ هذا ؛ كانت القابلة تقوم بعدّة أمور مهمّة لصالح الطفل المولود و أمّه بعد عملية الولادة ؛ فتقوم بإصلاح المولود و إعادة كلّ عضوٍ إلى شكله الطبيعي ، و تُراجع النّساء بالغمز و الملاينة لخروج أغشية الجنين و تقوم بتمريخ أعضاء المولود بالأدهان ، و تُحقّف رطوبات الرّحم ، و تُداوي ما يُلحق بِفَرْجِ النّساء من جراحة التمزيق عند الضغط لخروج المولود ، و تُلاحظ حالة المولود طوال فترة الرّضاعة (2) .

لقد أبدع أطباء العصر العباسي في طبّ النّساء و الولادة ، و تركوا بصماتهم في هذا الاختصاص ؛ من خلال مؤلّفاتهم النّفيسة ؛ التي تشتمل على آراءٍ و أوصافٍ و شروحاتٍ دقيقةٍ تخصّ كلّ ما يتعلّق بأمراض النّساء ؛ سواءً تعلّق الأمر بوصف المرّض و تحديد أسبابه و أعراضه ، و وصف علاجه ، و شرح طرّيق تديره و الوقاية منه . و كما أشرنا إليه سابقاً فإنّ أغلب هذه الأمور تبقى على عاتق الممرّضة و القابلة .

يعتبر الطبيب المشهور " علي بن رين الطبري " واحداً من أطباء العصر العباسي الذين خاضوا في هذا الاختصاص ؛ إذ خصّص فصلاً كاملاً في كتابه (فردوس الحكمة) ؛ و وصف فيه الرّحم ، و تطرّق فيه إلى مراحل

(1) نفسه .

(2) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 393 .

تطوّر الجنين ، و بيّن الفرق بين مدّة خِلقة الذكر و الأنثى في الرّحم ؛ مُستدلاًّ بآراء من سبقوه من أطباء الأمم الأخرى ؛ خاصةً اليونانيين و الهنود (1) .

لقد قدّم لنا " الطبري " وصفاً دقيقاً لمراحل تشكّل الجنين في الرّحم ، و بيّن علاقة تحرك الجنين بتاريخ الولادة بطريقةٍ توحى بأنّ الرّجل له باعٌ كبيرٌ في هذا الإختصاص ، و ما قدّمه من وصفٍ لا يختلف عمّا توصّل إليه الطبّ الحديث ؛ و قد قال في هذا الشأن : "... إذا تمّت صورة الجنين في خمسة و ثلاثين يوماً ؛ تحرك في سبعين يوماً و وُلِدَ في مائتين و عشرة أيّام ، فإنّ تمّت صورته في خمسة و أربعين يوماً ؛ تحرك في تسعين يوماً ؛ و وُلِدَ في مائتين و سبعين يوماً ؛ فالتحرك في ضعف العدد الذي يتصوّر فيه ، و يولد في ثلاثة أضعاف العدد الذي يتحرك فيه ... " (2) ، و يقول أيضاً ؛ فيما يتعلّق الفرق بين مدّة خِلقة الذكر و الأنثى : "... إنّ الذكر تتبيّن خِلقته في ثلاثين يوماً ، و تتبيّن خِلقة الأنثى في اثنين و أربعين يوماً ؛ لأنّ الزرع الذي تكوّن منه الذكران أقوى ممّا تكوّن منه الإناث ، و لم تُرى أنّ النساء أسقطن أنثى قبل أربعين يوماً ؛ في حين رأى بعضهنّ قد أسقطن الذكور في ثلاثين يوماً ... " (3) .

و من الأطباء الذين أسهموا في طبّ النساء و الولادة : " الرازي " ؛ الذي خصّص فصلاً كاملاً من كتابه : (المنصوري) ، لوصف الرحم ، و مراحل تطوّر الجنين ، و العلل التي تُصيبه ، و كذا علامات قرب الوضع و نصائح أخرى يُقدّمها للمرأة الحامل و النفساء ، فقد وصف الرحم وصفاً دقيقاً ، و بيّن أنّ موضعها بين

(1) أنظر الملحق 7 ، ص. 203 .

(2) علي بن ربن الطبري : المصدر السابق ، ص. 33 .

(3) نفسه .

المثانة ⁽¹⁾ و المعى المستقيم ، و هي تعظم كلّما حملت المرأة و ولدت ، و الرحم حسبه مربوط برباطاتٍ عصبية يمكن أن تتمدّد و تتسع عند الحاجة إلى ذلك ؛ أي عند الولادة ، و لها بطنان ينتهيان إلى فمٍ واحدٍ ، و زائدتان تُسميان " قرني الرحم " ، و خلف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة ، و هُما أصغر من التي للرجل و أشدّ تفرطحاً و ينصبّ منهما منيّ المرأة إلى تجويف الرحم ، و رقبة الرحم تنتهي إلى قعر الفرج من المرأة ⁽²⁾ .

إنّ وصف الرازي للرحم لا يقف عند هذا الحدّ ، و إنّما نجد شرحاً مفصّلاً للفروق الموجودة بين أرحام النساء ، ذلك أنّ فم الرحم يكون مُنضمّاً عند المرأة البكر ، ثمّ يبدأ في التوسّع إذا حملت ، ثمّ سرعان ما ينضم حتى لا يدخله الميل ، فإذا حضر وقت الولادة أو فسد الجنين ، اتّسع من جديد ، ليسمح بخروج جثّة الجنين ⁽³⁾ .

أمّا فيما يخصّ الجنين ، نجد الرازي يُؤيّد رأي جالينوس ، في كونه ينشأ من المنيّ ، و ينمو و يزيد من الطّمث و تتمّ و تكمل خلفة الذكر قبل الأنثى ، و يتصل الجنين بالعروق الموجودة في الرحم ، و يتغذى منها حتى يكمل و عند الولادة يتحرّك حركاتٍ صعبةٍ قويّةٍ . كما نجد الرازي يصف الثدي ، و كيفية تشكّل اللبن فيه ، و يقول في هذا الصدد : " ... الثدي مُركّب من شرايين و عروق ، و عصب يحتسي ما بينهما نوع من اللحم ، عُددى أبيض

⁽¹⁾ المثانة : هي عبارة عن كيس غشائي ، عضلي مُجوّف ، يضاوي الشكل ، يقع في أسفل المنطقة الأمامية من الحوض ، و تتكوّن من أنسجة عضلية ملساء ، و توجد عند إتصال المثانة بالجرى البولي أليافٌ دائريّةٌ ، تتحكّم في عملية التبوّل ، كما أنّ المثانة تُخزّن البول القادم من الكلية . أمين رويحة : أمراض الجهاز البولي ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت 1983 ، ص. 14 ؛ ماتيو ج أورلاند : الطرق الحديثة في معالجة الأمراض الباطنية ، ترجمة : مازن طليعات ، دار طلاس ، دمشق 1992 ، ص. 371 ؛ محمد هشام السمّاك : موسوعة العلوم الحيوية ، دار المعرفة ، دمشق (سوريا) 1413 هـ / 1992 م ، ص. 257 .

⁽²⁾ الرازي ، أبوبكر محمد بن زكريا : كتاب المنصوري ، نقلاً عن موسوعة الطبّ الإسلامي ، مج. 26 ، ص. 86 .

⁽³⁾ المصدر نفسه ، ص. 88 .

طبعه طبيعة اللبن ، خلقه الله تبارك و تعالى ليكون المولّد للّبن ، و هذه الشرايين و العروق تنقسم في التّدي إلى أقسام دقاق ، و تستدير و تُلتّف لفائف كثيرة ، و يحتوي عليها ذلك اللّحم الذي هو مولد اللّبن ، فيحيل ما في تجويفها من الدّم حتّى يصير لبناً ... " (1) .

و يُبيّن الرّازي للقابلات كيفية التعامل مع ظاهرة إحتباس الطّمث لدى النّساء ؛ فيقول : " ... إذا رأيت إحتباس الطّمث و يبس الثّقل ، و ذهاب الشهوة ، و اضطراباً و إقشعراً و غثياناً و شهوة الأشياء الرّديئة ؛ فقلّ للقابلة تحبس عنق الرّحم ؛ فإذا كان منضمّاً بلا صلابة دلّ على حبل ... " (2) .

و يقول أيضاً : " ... و قد يُعرض إمتناع الحبل لِمَيّلان الرّحم إلى الجوانب ؛ فأمر القابلة أن تُدخِل إصبعها و تنظر إلى أيّ جانبٍ هو مائل (3) ، كما رُوِيَ عن " الرّازي " أنّه كان ينصح بوضع مرآة تحت مقعد المرأة ليَرى كلّ شيءٍ على هيئته (4) .

أمّا الشيخ الرئيس " ابن سينا " ؛ فإسهاماته في هذا المجال عظيمة ؛ إذ يُشيدُ المختصّون بابتكاراته في الطبّ التّسوي ؛ إستناداً إلى ما قدّمه في كتابه (القانون) من وصفٍ دقيقٍ لإضطرابات الطّمث (5) و حالات النواسر البولية (6) ، و حمّى التّفاس و العقم ، و تعليه الصحيح للذكورة و الأنوثة في الجنين ، و نسبتها للرجل دون المرأة

(1) الرّازي : كتاب المنصوري ، ص. 86 .

(2) الرّازي : الحاوي في الطبّ ، ج 9 ، ص. 75 .

(3) المصدر نفسه ، ج 9 ، ص. 94 .

(4) المصدر نفسه ، ج 9 ، ص. 19 ، 20 .

(5) الطّمث : هو الدّم المعتاد للنّساء بأدوارٍ شهرية . ابن الحشاء ، المصدر السابق ، ص. 243 .

(6) النواسر البولية : هي التّزيف الحاد و الشرح ؛ المصاحبين للمرأة بعد الولادة . أمين رويحة : المرجع السابق ، ص. 14 ؛ ماتيو ج أورلاند :

المرجع السابق ، ص. 371 .

و حالات الإنسداد المهبلي (1) ، و الأسقاط ، و الأورام الليفيّة (2) ، و مراحل تشكّل الجنين ، و علامات الوضع ، و غيرها ؛ ممّا يدلّ على ممارسته للتشريح و عمليات التوليد (3) .

صنّف ابن سينا أسباب العقم ، و جعل بعضها عائداً إلى فقدان التوافق بين أخلاط الذكر و الأنثى ، أو خلل في أعضاء القضيب و آلات الميّي ، أو أسبابٍ أخرى كالغمّ ، الخوف ، الفزع ، أوجاع الرّأس ، ضعف المهضم و التخمة (4) ، و هو ما ندعوه بلغتنا اليوم " حالة عدم التوافق الخلطي " ، و ينجم عنها أن لا يستطيع الحيوان المنوي البقاء حيّاً في أخلاط المرأة ، فإذا قُدّر للزوجين أن يفترقا ، بدا كلّ منهما مُخصّباً (5) ، كما شخّص أعراض

الرحا (6) ، و بيّن الصّفات التشريحيّة المرضية له ، و يقول في هذا الشأن : " ... إنّه تعرض للمرأة أحوالٌ تُشبه أحوال الحبالى ، من إلتباس دمّ الطّمث ، و تغيّر اللّون ، و سقوط الشّهوة ، و انضمام فمّ الرحم ، و إنتفاخ الثديين

(1) المهبل : هو ممر يصل إلى الرحم ، و هو مكان المناسبات الجنسية ، يتركز من الأعلى على الفوهة الظاهرة لعنق الرحم ، ثمّ يتّجه للأمام و الأسفل و هو قابل للتمدّد بكافة أبعاده ، كما أنّه معرّض للإنسداد . محي الدين طالو العلي : تطوّر الجنين و صحة الحامل ، دار الهدى ، عين امليّة ، الجزائر 1987 ، ص. 40 .

(2) الورم الليفي : هو الورم الذي يُصيب الرحم ، و يصعب تفريقه عن الحمل في حالاتٍ متعدّدة ، و لكنّ تشخيصه سهل ، لأنّ نموّ الرحم في الحمل سريع ، وفي الورم الليفي بطيء ، كما أنّ فحص البول لا يكون إيجابياً في الورم الليفي ، و الصعوبة في التشخيص تكون عندما يترافق الحمل مع الورم الليفي . محي الدين طالو العلي : المرجع نفسه ، ص. 182 ؛ سيغمند ستيفن لمر : المرجع السابق ، ص. 395 .

(3) عبد الحلیم منتصر : المرجع السابق ، ص. 132 .

(4) ابن سينا : القانون في الطب ، مج. 2 ، ص. 1635 .

(5) أحمد شوكت الشطيّ : تاريخ الطب ، أعلامه و آدابه ، ص. 250 .

(6) الرحا : إسم منقول عند الأطباء لعلّة في الرّحم تُشبه الحمل ؛ أي هو " الحمل الكاذب " . ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 54 ؛ فايز الدّاية : معجم المصطلحات العلميّة العربيّة ، دار الفكر ، دمشق (سوريا) 1410 هـ / 1990 م ، ط 1 ، ص. 200 .

و إمتلائهما و ربّما تورّمهما ، و تُحسّ في بطنها بحركة كحركة الجنين ، و ربّما عرض طلقٍ و مخاضٍ ، و لا يكون مع ذلك ولد ، و ربّما كان السبب فيه تمّدداً و إنتفاخاً في عروض الطّمث و لا تضع شيئاً... " (1) .

و فيما يتعلّق بالأمراض التي تُصيب الرحم ، فتتمثّل حسب رأي ابن سينا في إحتباس الطّمث أو قلته أو رفته أو بياضه أو سواده الشديد ، و تطاول الظهر ، و تقدّم جماعٍ كثيرٍ ، و خدرٍ في أعالي الرحم ، و رقة الحيض و كثرة سيلان الرطوبة ، و الجفاف (2) .

لم يكتب ابن سينا عند هذا الوصف الدقيق للرحم ، و إنّما نجده يشرح شرحاً مفصّلاً لمراحل تكوّن الجنين في الرحم ، و المدّة التي يستغرقها كلّ عضوٍ في الظهور ، و يرى أنّ أوّل عضوٍ يتكوّن هو القلب (3) ، ثمّ بقية الأعضاء و يقول في هذا الصدد : " ... أمّا مدّة الرّغوة فسنة أو سبعة أيّامٍ ... و ابتداء الخطوط و النقط بعد ثلاثة أيّامٍ أخرى ... ثمّ بعد سنة أيّامٍ أخرى تتحوّل إلى علقة ، و بعد ذلك باثني عشر يوماً تصير لحماً ، ثمّ بعد تسعة أيّامٍ ينفصل الرّأس عن المنكبين ، و الأطراف عن الضلوع و البطن ... " (4) ، كما نجد ابن سينا يصف و صفافاً دقيقاً لحركة الجنين في الرحم ، و كيفية حصوله على الغذاء إذ يقول : " ... يتولّد الغشاء من حركة منّي الأنثى إلى منّي الذكر ، و يكون مُتبرئاً ، ثمّ لا يتعلّق من الرحم إلّا بالتقرّ لجذب الغذاء ... و إنّما يتغذّى الجنين بهذا الغشاء مادام الغشاء رقيقاً فيها فكانت الحاجة إلى قليلٍ من الغذاء ، و أمّا إذا صلب ، فيكون الإغتذاء بما في مسامه من المنافذ الواضحة العرقية ... " (5) ، أمّا ضعف الجنين فمرده حسب ابن سينا إلى الأمراض التي تُصيب المرأة الحامل خاصةً الإرهاق ، و ظهور اللّبن في أوّل شهرٍ حملت فيه ، و تحلّبه إذا عُصر الثدي ، و يدلّ عليه أن لا يتحرّك

(1) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1635 .

(2) المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1635 .

(3) المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1629 .

(4) المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1630 .

(5) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1629 .

الجنين تحركاً يُعتدّ به ، أو يتحرّك في غير وقته ⁽¹⁾ . أمّا فيما يخصّ تشكّل التوأم ، فيُرجعه إلى كثرة المنّي و إنقسامه إلى إثنين أو أكثر ، و وقوعه في التجويفين ، و سلامة التوأمين غير مضمونة ، و تقف على مدى راحة المرأة الحامل و كذا الغذاء الذي تتناوله ، و قلّما يكون بين التوأمين أيّامٌ كثيرة ، فإنّهما في الأكثر في جماعٍ واحدٍ و في القليل ما يعلّق جماع على حبل ⁽²⁾ .

بعد وصف ابن سينا للرّحم ، و تشخيصه للعلل و الأمراض التي تُصيبه ، و شرحه المفصّل لمراحل تطوّر الجنين ينتقل إلى وصف علامات قرب الوضع ، إذ يرى أنّ المرأة تُحسّ بثقلٍ في أسفل البطن تحت السرة ، و حرارة البطن و إنتفاخ في فم الرحم ، شديد محسوس ، و ترطبّ منه ⁽³⁾ ، فإذا كانت الولادة ينبغي على الطبيب التعامل مع مختلف الحالات التي تُصادفه ، لذلك نجد ابن سينا يخصّص فصولاً كاملةً في كتابه (القانون) لتلك الحالات ، إذ يوضّح كيفية التعامل مع من خرج من جنينها الرّجل قبل الرّأس ⁽⁴⁾ ، و كذا من خرج جنينها على جنبه ⁽⁵⁾ و تدبير من تلد و في رحمها ورم ⁽⁶⁾ ، إضافةً إلى كلّ هذا ؛ نجده يتكلّم عن عسر الولادة و أسبابها ⁽⁷⁾ و يذكر أسباب إسقاط الجنين و أعراضه ⁽⁸⁾ ، و يصف الدواء اللازم لمنعه ⁽⁹⁾ ، و تدبير إخراج الجنين الميت

⁽¹⁾ المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1644 .

⁽²⁾ المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1643 .

⁽³⁾ المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1644 .

⁽⁴⁾ أنظر الملحق 9 ، ص. 204 .

⁽⁵⁾ أنظر الملحق 10 ، ص. 205 .

⁽⁶⁾ أنظر الملحق 11 ، ص. 205 .

⁽⁷⁾ أنظر الملحق 12 ، ص. 205 .

⁽⁸⁾ ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1648 .

⁽⁹⁾ المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1650 .

(¹) و تدبير من تلد و في رحمها ورم (²) إضافة إلى وصفه لعلامات ضعف المولود ، إذ يقول في هذا الشأن :
 : " ... و من علامات ضعف المولود ، أنّ الجنين إذا وُلد و لم تتنفخ سرّته و لم يعطس ، و لم يتحرّك و لم يستهلّ لمُدّةٍ طويلةٍ ، و في هذه الحالة لا يُمكن لهذا المولود العيش ... " (³) .

لقد عني ابن سينا بالأّمّ و الطّفل عنايةً بليغةً ، و أعطى نصائح لا يزال يعتمد عليها الطبّ النّسوي الحديث ممّا حمل العالم الهولندي " دوفريس " (⁴) على القول عن كتابه (القانون في الطبّ) : " ... إنّّه تحلّى بالتنظيم و الوضوح ، و إنّ تعاليمه المتعلّقة بالعناية بالتوليد و الإرضاع و الفطام جيّدة جداً ، كما أنّ تعاليمه في حفظ صحّة الحامل ممتازة ، إذ ينصح بإرضاع الرضيع من لبن أمّه ، و لا يُفطم إلّا إذا اشتهى غير لبن أمّه ، و ينبغي أن يتناول أغذية أخرى بالتدرّج ؛ و ينسجم ذلك مع ما ينصح به الأطباء اليوم ... " (⁵) ، و من النصائح التي يُقدّمها ابن سينا ؛ أن لا يُجمل الرضيع على الجلوس و الإنتصاب قبل الأوان ، بل يُنتظر حتّى ينمو جهازه العصبي النخاعي الدّماعي ، فإذا أخذ ينهض و يتحرّك ، فلا ينبغي أن يُمكن من الحركات العنيفة ، و لا يجوز أن يُحمل على المشي قبل إنبعائه إليه بالطّبع (⁶) ، و ينصح ابن سينا الحوامل بالمشي الرفيق ، من غير إفراطٍ و تفادي الحّمّام ، أو أيّ

(¹) انظر الملحق رقم 14 ، ص. 206 .

(²) انظر الملحق رقم 13 ، ص. 206 .

(³) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1644 .

(⁴) دوفريس هوغو (1848 : 1935) : عالم نبات هولندي ، أستاذ علم النبات في جامعة ستوكهولم في الفترة الممتدّة بين (1878 - 1918)

أجرى تحارب رائدة في التناضح و التناقد ، و كان أول من افترض وجود ما يُعرف في علم الأحياء بـ " الطّفرة " . منير البعلبكي : المرجع السابق ص. 60 .

(⁵) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 251 .

(⁶) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 151 .

شيءٍ من شأنه أن يؤذي جنينها كالسعال ، الحركة المفرطة ، الوثبة ، الضربة ، السقطة ، الإمتلاء من الغذاء و الغضب ؛ خاصّةً في الأيام الأولى من الحمل (1) .

إضافةً إلى ما قدّمه كلّ من ابن سينا و الرازي في هذا الإختصاص ، نذكر إسهامات طبيب آخر من أطباء العصر العبّاسي هو : " عليّ بن عبّاس الأهوازي المجوسي " ؛ الذي أبدع في وصف الرحم ، و تشكّل الجنين و مراحل تكوينه في الرحم ، و كيفية حصوله على الغذاء ، و أسباب تشكّل التوأم ، و علامات الولادة ، إضافةً إلى بعض التّصائح التي يُقدّمها للنساء الحوامل ، أو اللّائي وضعنّ حملهنّ (2) ، و على غرار سابقه ، نجده يستند إلى آراء من سبقوه من أطباء الأمم الأخرى ، خاصّةً جالينوس و بقراط .

يرى المجوسي أنّ أرحام النّساء ليست مُتساوية ، ذلك إنّها في النّساء اللّواتي لم يحملنّ أصغر بكثيرٍ منها في النّساء اللّائي حملنّ ، و كلّما حملت النّساء أكثر ، كانت أرحامهنّ أكبر و أوسع ، و ذلك لتمدّد رحم الحامل ليأخذ الجنين موضعاً ، و قد يختلف مقدار الرحم حسب سنّ المرأة ، فيكون فيمن هي من النّساء أصغر سنّاً صغيراً و فيمن هي أكبر سنّاً كبيراً ، أمّا العجائز من النّساء فالرحم منهنّ أصغر منه في الشباب ، و هو أيضاً في اللّواتي يُكثرنّ الجماع أكبر منه في اللّواتي يُقلّنّ منه (3) .

و لا ننسى الطبيب المشهور " ابن القفّ الكركي " (4) ؛ الذي شرّح بالتفصيل عملية إخراج الجنين الميت و المشيمة ؛ و هي العملية التي تُطلق عليها هذه الأيام إسم عملية " الكشط " أو " التجريف " curettage

(1) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1646 .

(2) الأهوازي ، عليّ بن عبّاس المجوسي : الكامل في الصنّاعة الطّبيّة ، المعروف بـ " الملكي " ، نقلاً عن موسوعة الطبّ الإسلامي ، المجلّد 28 ص. 390 .

(3) المصدر نفسه ، ص. 392 .

(4) ابن القفّ الكركي : هو أبو الفرج يعقوب (630 هـ . 685 هـ) ؛ طبيبٌ و فيلسوف عربي من الكرك ، أقام في دمشق ، و أخذ عن " ابن أبي

أصبيعة " ، من آثاره : (عمدة الإصلاّح في صنّاعة الجراح) و (شرح الكليّات من قانون ابن سينا) . البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 34 .

و يقول " ابن القفّ " : " ... أمّا تدبير إخراج الجنين الحيّ إلى الطبايعي ، و أمّا الميّت فهو أنّ الجنين إذا مات و يُعرف هذا بخروج دم صديدي من الرّحم ، و ببطلان حركة الجنين و نهوضه ؛ فإذا حصّل ذلك فينبغي للجراحي أن يسأل عن قوّة المرأة ، فإذا كانت قويّة مستقلّة بعمل الحديد في إخراج الحديد فليُقدّم على العمل ، و إن كانت ضعيفةً خفيّةً الصوت ... " (1)

و يُفيض " الزهراوي " في الكلام على أنواع الولادات الطبيعية و غير الطبيعية و تعليمها للقوبل ؛ و ذلك في بحثه المفصّل (تعليم القوبل كيف يُعالجن الأجنّة الأحياء إذا خرجوا على غير الشكل الطبيعي) و هو الفصل الخامس و السبعون من كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) ؛ فيرى أنّه ينبغي للقابلة أن تعرف أولاً شكل الولادة الطبيعية ؛ التي يخرج فيه الجنين على رأسه و المشيمة معه أو مُعلّقةً من سُرته ، أمّا غير ذلك فهي ولادة غير طبيعية تستدعي التعامل معها بحذرٍ و إمعانٍ . و يقول في هذا الشأن : " ... و ما خلا هذه الولادة فهي غير طبيعية مذمومة ؛ لأنّه قد يخرج الجنين على رجله ، و يُخرّج يديه قبل رأسه و رجله و يده الواحدة أو رجله الواحدة ، أو يُخرّج رأسه و يده ، أو يخرج منطوياً ، و ربّما إنقلب على قفاه ، و نحو ذلك من الأشياء المذمومة ؛ فينبغي للقابلة أن تكون حاذقةً لطيفةً بهذه الأشياء كلّها ، و تحذّر الزلّ و الخطأ ... " (2) .

ثمّ يتكلّم بالتفصيل على تدبير كلّ المحيّات الولادية الطبيعية و غير الطبيعية للأجنّة الأحياء (الجبيّ الرأسي الطبيعي خروج يدي الجنين أولاً ، خروج رجلي الجنين ، خروج الجنين على ركبتيه و يديه ، الجبيّ المعترض ، إتفاف السرر على عنق الجنين ... إلخ) (3)

(1) ابن القفّ : نقلاً عن عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص 116 .

(2) الزهراوي ، أبو القاسم خلف بن عبّاس (ت 404 هـ) : التصريف لمن عجز عن التأليف ، تحت إدارة : أبو الحسنات قطب الدّين أحمد

المطبع العام الكائن ببلدة الكنو ، 1326 هـ / 1908 م ، ص 116 .

(3) الزهراوي : المصدر السابق ، ج 1 ص 90 . 91 .

و أخيراً ينهي الزهراوي كلامه في هذا الفصل بحديثه عن الأجنّة المتعدّدة ؛ فقد ذكّر أنّه قد تَلِد المرأة حتّى الخمسة أجنّة إلاّ أنّهم لا يعيشون . أمّا ما يمكن للرحم من أن يحمل فقد يتخلّق ضمن الرحم خمسة عشر جنيناً ؛ إلاّ أنّهم ينتهون بالإسقاط (1) . و رُوِيَ أن الزهراوي كان يقف خلف ستار خفيف و يُعطي إرشاداته المناسبة للقابلات في تدبير حالات الولادة العسيرة (2) .

يتّضح جلياً من خلال ما سبق ، أنّ الطبيب المسلم كان مُلمّاً بجميع الأمراض و العلل التي تُصيب الجسد و النَّفس على حدّ سواء ، فلم تقتصر إبداعاته على إختصاصٍ بعينه ، و إنّما شملت إختصاصات متعدّدة ، حتّى تلك المتعلّقة بأمراض النساء ، إذ تناولها تناولاً ينمّ عن سعة إطلاع و عمق إستنتاج ، فقد تحدّث الأطباء المسلمون عن إضطرابات الطمث ، و الدورة الشهرية ، و الآلام المرافقة لذلك ، و تشريح الرحم و أمراضه ، و مراحل تطور الجنين ، و أعراض الولادة و غيرها من العلل التي لها علاقة بهذا الإختصاص ، و استعانوا بالممرّضات و القابلات في طبابة النساء و فَحَصِهِنَّ و تدبير أمورهنّ في البيمارستانات و في البيوت لأنّهنّ متطلّعات على عوراتهنّ .

سابعاً : طب الأطفال

اهتمّ أعلام الطبّ العبّاسي بصحّة الأطفال و تربيّتهم و العناية بهم إهتماماً بالغاً ، و أولّوهم عنايةً فائقةً ؛ فمنهم من أفرد لهم في مؤلّفاته أبحاثاً واسعةً ، و منهم من ألّف كُتُباً خاصّةً بطبّ الأطفال فقط ؛ تُعالج جميع المواضيع المتعلّقة بالأمراض التي تُصيب الطفل منذ ولادته ، و تتطرّق إلى مكافحة تلك الأمراض و معالجتها و الوقاية منها .

يُعتبر "عليّ بن ربن الطبري" (ت 247 هـ) من الأطباء الأوائل الذين خاضوا في هذا الإختصاص ؛ و تجلّى ذلك في الباب الأوّل من المقالة الرّابعة من كتاب (فردوس الحكمة) ؛ الذي خصّصه لتربية الأطفال ، و الباب

(1) نفسه .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 108 .

الثاني لتربية الصبيّ إذا ترعرع . كما ألف الطبيب المشهور " ثابت بن قرّة الحرّاني " (ت 288 هـ) رسالةً في الحصبة و الجدري ، و كتاباً في الجنين ، و كتاباً في المولودين لسبعة أشهر ، و بحثاً خاصاً بتغذية الأطفال ؛ تكلم فيه على " صفة طبائع الألبان و منافعها و مضارّها و صفة سقيها في أنواعها و أجناسها (1) .

أمّا الطبيب " أحمد بن محمّد الطبري " (ت 360 هـ) ؛ صاحب كتاب " كُنّاش المعالجات البقرائية " ؛ فقد خصّص مقالةً في ستّين باباً في علل الأطفال و تديبرهم و مداواتهم و آداب المرضعة و تديبرها . و هذه المقالة ذات أهميّة كبرى ؛ لأنّها تعتبر من أهمّ ما كتبه الأطباء العرب في طبّ الأطفال ؛ فقد تكلم فيها على الأمراض الجلدية و منها : الجرب و الصرع و الكزاز و الاسترخاء و أمراض الأنف و العين و بكاء الأطفال و أمراض الفم و اللسان و الحلق و المعدة و الأمعاء و الديدان ، و أمراض الرّثّة و السعال و نفث الدم و مرض الجدري و الحصبة و الطفح الجلدي و غيرها من الأمراض التي تُصيب الأطفال (2) .

وقد أفردَ الطبيب " علي بن عباس الجوسي " (ت 384 هـ) في كتابه (كامل الصناعة الطّبيّة) أربعة أبواب من الجزء الثاني لطبّ الأطفال ؛ تحدّث فيها عن الطفل من قبل أن يولد إلى أن يُصبح فتى يافعاً ، و عن الأمّ المرضعة ، و تكلم بإسهابٍ عن بكاء الأطفال و يُرجّعه إلى أسباب خارجية و أسبابٍ داخلية ؛ فيقول : " ... فإنّ الطفل لا يبكي إلّا لشيءٍ يؤذيه ؛ إذ ليس به استطاعةٌ للشكوى ، و الأذى ينال الطفل إمّا من خارج أو من داخل ؛ إمّا من خارجٍ فيسبب الحرّ و البرد أو الذّباب أو البقّ و ما أشبه ذلك ؛ فينبغي أن يزال عنه ذلك السبب ، و أمّا من داخلٍ فيسبب الجوع و العطش ؛ فينبغي أن يتعهّد بالغذاء و اللبّن و بإسقاؤه الماء ... " (3) .

(1) ثابت بن قرّة : الذخيرة في الطبّ ، المطبعة الأميريّة ، القاهرة 1938 م ، ص. 172 ، 173 .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 119 .

(3) الأهوازي : المصدر السابق ، ص. 54 .

أما رائد الجراحة الزهراوي (ت 400 هـ) ؛ فقد تحدّث في المقالة الثانية من كتاب (التصريف لمن عجزَ عن التأليف) عن أمراض الأطفال التي تستوجب مداخلات جراحية ؛ كأمراض الأمعاء و الجهاز البولي ، و تشوّهات الأصابع ، و الأصابع الزائدة ، وشفة الأرنب ، و الختان ، و لجام اللسان ، و انسداد الشرج و غيرها (1) .

و لعلّ من أهمّ من خاضَ في طبّ الأطفال ؛ الشيخ الرئيس " ابن سينا (ت 428 هـ) " ؛ الذي أفردَ في الجزء الأول من كتاب (القانون) قسماً خاصاً في تربية الطفل مؤلفاً من أربعة فصول : الأوّل في تدبير المولود كما يولد إلى أن ينهض ، و الثاني في كيفية الرضاعة و مواصفات اللبّ و شروط المرضعة الجيدة ، و الفطام و أوقائه و الثالث في أمراض الأطفال و علاجها و منها : أمراض الفم و العين و الأذن و الجهاز الهضمي و الجهاز التنفسي و الخالي النفسية للطفل ، و الرابع يتعلّق بتدبير الصبيان ؛ و فيه يتناول مسائل التربية و الإعداد الأخلاقي و النفسي و التعليمي و التوجيهي للأطفال ؛ و منه يختار " ابن سينا " سنّ السادسة كأفضل عمرٍ لبدء التعليم المدرسي .

و في الفصل الخامس من " القانون " يُخصّص ابن سينا فصلاً للخُدري و الحصبه و آخر للحميات ، كما يُخصّص فصلاً لتشجّح الأطفال (الإختلاجات) و سلس البول و احتباس البول . و يُعتبر ابن سينا أوّل من فرّق بين الصرع الكبير و الصرع الصغير .

و يُرجع " ابن سينا " أسباب الإسهال عند الأطفال إلى الأطعمة و الأغذية و الهواء المحيط (2) و يُوصي بقطع الطفل عن الرضاعة لليوم الذي يحصل فيه الإسهال ؛ فيقول : " ... و يُخدّر حينئذٍ من تجنّب اللبّ في معدّته ؛ بأن يُعدّي ذلك اليوم ما ينوب عن اللبّ ... " (3) . و في كلامه عن الديدان التي يُصاب بها الأطفال ؛ يقول

(1) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 120 .

(2) ابن سينا : القانون في الطب ؛ ج 1 ، ص. 75 .

(3) ابن سينا : القانون في الطب ، ص. 154 .

ابن سينا : " ... و قد يتولّد في بطن الصبيان دوّدٌ صغارٌ ، و أكثره في نواحي المقعدة ، و يتولّد فيهم منه الطوال و أمّا الأعراض فقلّما تتولّد ... " (1) .

كما يرى أن إختيار الإسم له تأثير على نفسية الطفل سواءً بالسلب أو الإيجاب ؛ لذلك ينصح بإختيار الإسم الحسن ؛ فنراه يقتدي بالرسول صلّى الله عليه و سلّم حين قال : { إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ و أسماء آبائِكُمْ ؛ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ } (2) .

أمّا الطبيب " يحيى بن عيسى بن عليّ بن جزلة البغدادي " (من أطباء القرن الخامس ميلادي) ؛ فقد الذي فرّق في كتابه (تقويم الأبدان في تدبير الإنسان) بين أمراض الأطفال و أمراض البالغين ، و أفاض في الكلام على الأمراض الخاصّة بالأطفال و تديرها (3) .

و من الأطباء الذين أبَدَعوا في هذا الاختصاص الطبيب المشهور " الرّازي " (ت 313 هـ) ؛ الذي ألّف كتاباً في الجُدري و الحصبة ؛ و هو أوّل مؤلّفٍ يبحث في هذين المرضين اللّذين يُصيّبان الأطفال ، و فرّق بينهما من حيث أوقات إنتشارهما ، و تحديد الأعراض و العلامات لكلّ منهما ، كما وَصَفَ الطّفح الجلدي المرافق لهما و سير المرض و تطوّره في كلّ منهما ، كما تكلم عن تغذية المصابين بأحد من المرضين . و ألّف رسالة في أمراض الأطفال و العناية بهم ؛ و هو أوّل مؤلّف طبي مستقلّ يبحث في أمراض الأطفال ؛ كالسَّعْفَة و الجَرَب و كِبَرِ الرَّأْس و إنتفاخ البطن و الصَّرَع ، و أمراض الأذن و تقيحاتها ، و أمراض الحَوَل ، و تقرّحات الفم ، و التقيؤ عند الأطفال

(1) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص. 157 .

(2) أبو داوود : المصدر السابق ، الحديث رقم 4948 .

(3) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 130 .

و الإسهالات ، و السعال و الحكة و الديدان ، و شلل الأطفال و غيرها من الأمراض . و خصّ في كتابه (المنصوري) بحثاً في تدبير الأطفال و في إختيار المرضعة و تدبيرها ، و في تدبير الصبيان و الفتيان (1) .

و فيما يتعلّق بالإسهال الذي يُصيب الطفل ؛ يشير " الرازي " على غرار أغلب الأطباء المسلمين إلى أنّه غالباً ما يترافق من نبات الأسنان عند الطفل ؛ و هو ما يتجلّى في قوله " ... يتكرّر حدوث الإسهال عند الأطفال من سبب ظهور الأسنان ، أو بسبب البرد أثناء لقّه بالقمط ، أو بسبب تعفّن الحليب من الصفراء و البلغم ... (2) .

يُعتبرُ الطبيب المعروف " أحمد بن إبراهيم بن الجزّار القيرواني " (ت 369 هـ) من الأطباء الذين أفردوا مؤلّفات في طبّ الأطفال ؛ فهو صاحب كتاب (سياسة الصبيان و تدبيرهم) و هو كتاب يتناول كلّ ما يتعلّق بطبّ الأطفال و العناية بهم و ما يتعرّضون له من عللٍ و أسقامٍ ، و في تدبير هذه الأمراض و طرق علاجها (3) .

و يتكلم " ابن الجزّار " على تدبير الأطفال منذ خروجهم من أرحام أمهاتهم ، و على تغذيتهم و مضجعتهم و غسلهم و تنظيفهم و إرضاعهم ، و صفات اللبّن و تركيبه ، و على المرضعات و الحاضنات ، و على الأمراض التي تُصيبهم ؛ كما تكلم عن طبائع الصبيان و عاداتهم . و يُحذّر ابن الجزّار من البكاء الشديد للطفل خشية إصابته بالصرع ، و ينصح بتنعيم الأصوات له ، و تجنّب الأصوات المزعجة (4) .

يردّ ابن الجزّار أسباب السعال عند الأطفال إلى البرد الذي يتعرّضون له فيقول : " ... و إنّما يهيج ذلك فيهم لقرب عهدهم بالدّفء في بطون أمهاتهم و خروجهم إلى برد الهواء ؛ و لأنّه ليس لألسنتهم قوّة على سدّ الحنجرة ؛

(1) الرازي : المنصوري في الطبّ ، ص. 231 . 234 .

(2) المصدر نفسه ، ص. 233 .

(3) أحمد عبد الحليم عطية : المرجع السابق ، ص. 374 .

(4) ابن الجزّار أحمد بن إبراهيم القيرواني (ت 369 هـ) : سياسة الصبيان و تدبيرهم ، تحقيق : الحبيب الهيلة ، تونس 1979 ، ص. 68 ، 69 .

فَيَهِيحُ السَّعَالَ لِبُرْدِ الْهَوَاءِ ، وَ وُصُولِهِ إِلَى حُلُوقِهِمْ وَ صُدُورِهِمْ ... (1) ؛ كَمَا يَرَى أَنَّ الْإِسْهَالَ وَالْقَيْئَ عِنْدَ الْأَطْفَالِ الَّذِي يُسَمِّيهِ " الْإِخْتِلَافَ " يَكُونُ بِسَبَبِ نَبَاتِ أَسْنَانِهِمْ أَوْ كَثْرَةِ الرِّضَاعَةِ ؛ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْغَدَاءَ لَا يَنْهَضُمُ وَلَا يَتَّبِتُ فِي الْبَدَنِ ؛ لِذَا كَانَ يَنْصَحُ بِالْحَمِيَةِ وَ التَّوَقُّفِ عَنِ إِعْطَاءِ اللَّبَنِ وَ الْإِكْتِفَاءِ بِالْمَاءِ (2) ؛ فَجَدُّهُ يَقُولُ " ... وَ قَدْ يَعْرِضُ لِلصَّبِيَّانِ الْإِسْهَالَ وَ الْقَيْءَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنْ أَسْنَانِهِمْ ، وَ كَذَلِكَ قَالَ أَبُقْرَاطُ ... وَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الصَّبِيَّانَ رَمَّا رَغَبُوا فِي كَثْرَةِ الرِّضَاعِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ مَا يَنْفَعُهُمْ مِنْهُ ؛ فَتَكَثَّرَ عَلَيْهِمْ لَعْلَةُ ذَلِكَ رَطُوبَةُ اللَّبَنِ ، فَإِذَا طَفَا وَ وَحَلَ ذَلِكَ اللَّبَنُ فِي مَعْدَتِهِ هَيَّجَ ذَلِكَ قَيْئاً ... (3) . وَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِدْيَانِ وَ الْحَيَّاتِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ فِي الْأَطْفَالِ ؛ يَرَى " ابْنَ الْجَزَّارِ " أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ لِسَبَبَيْنِ مَعاً هُمَا الْعَفْوَنَةُ وَ الْحَرَارَةُ الْكَثِيرَةُ وَ يَرَى أَنَّهَا تَتَوَلَّدُ فِي الْأَمْعَاءِ ، وَ قَدْ تَنْتَقِلُ إِلَى الْمَعْدَةِ (4) .

وَ يُفَرِّقُ " ابْنَ الْجَزَّارِ " بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحَوْلِ عِنْدَ الْأَطْفَالِ ؛ فَيَقُولُ : " ... إِمَّا أَنْ يُعْرِضَ لَهُمْ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِهِمْ وَ عِنْدَ الْوِلَادَةِ ، وَ الضَّرْبِ الْآخَرَ يَعْرِضُ لَهُمْ بَعْدَ الْوِلَادَةِ ؛ فَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ تُعَالَجَ ذَلِكَ ؛ فَأَمْرٌ أَنْ يُسَوَّى مَوْضِعُ الرَّأْسِ فِي الْمَهْدِ ، وَ يُجْعَلُ قَرِيباً مِنْهُمْ بِاللَّيْلِ سِرَاجٌ يُضِيئُ ؛ فَإِنْ كَانَ الْحَوْلُ مِمَّا يَلِي الْيَمِينَ فَلْيُجْعَلِ السِّرَاجُ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ (5) .

(1) ابن الجزار : المصدر السابق ، ص. 111 .

(2) المصدر نفسه ، ص. 154 .

(3) المصدر نفسه ، ص. 116 .

(4) المصدر نفسه ، ص. 124 ، 125 .

(5) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 133 .

لقد أكّد الطبّ الحديث على انتقال بعض الصفات و الميول النفسية من الآباء إلى الأبناء ؛ و هو ما أشار إليه ابن الجزّار في قوله : " ... إنّ الذي يُحتاج إليه من المرأة عند طلب الولد أمران : أحدهما من البدن ، و الآخر من النفس ... و أمّا الذي من النفس فصحة القرحة و قوّة الدهن و تهذيب الخاطر ... " (1) .

و أحتّم كلامي عن الأطباء الذين برزوا و برعوا في طبّ الأطفال بإنجازات الطبيب " أحمد بن محمد بن يحيى البلكدي " (ت سنة 880 هـ) ؛ الذي ألف كتاب (تدبير الحبالى و الأطفال و الصبيان و حفظ صحّتهم و مداواة الأمراض العارضة لهم) يتكلّم فيه عن الحمل و الجنين و العناية بالحامل ، و على الولادة و عسرّها و تدبيرها ، و على العناية بالوليد و تغذيته و تربيته ، و على الأمراض التي تُصيب الأطفال و معالجتها ، و يُعتبر البلكدي أول من أطلق فكرة المناعة ضد الأمراض (2) . كما يُضيف البلكدي على ما قاله " ابن الجزّار " أنّ الإقياء يكون " ... إمّا يكون لرداءة اللبن و فساده في نفسه ، و إمّا لضغف معدة الطفل ... " (3) .

إضافةً إلى هذا ؛ أدرك " البلكدي " التأثير النفسي للطفل بأخلاق مرضعته ، و أوصى أن تكون المرضعة حسنة الأخلاق و معتدلة المزاج ؛ لذلك يقول : " ... و إنّ أخلاق المرضعات نافعةً لأمزجة أبنائهنّ ، و ذلك المزاج يحدث للطفل خُلُقاً بحسبه ، إذا كانت أخلاق النفس تابعةً لمزاج الأبدان ، و يُفيدُ إياه من الشبه بها في طبّعها و خُلُقها ؛ فإنّه كماء الجسد في الشبه للوالدين ، كذلك تُشبهه الأنفس بعضها بعضاً ... " (4) . كما لاحظ " البلكدي " الأثر النفسي الجيّد لاستعمال التغمات العذبة ، و يقول " ... و كذلك تمهيدهم بالحركة اللطيفة و الصّوت الملحن ؛ فإنّ ذلك ممّا يُلهيهم و يُشغلهم و يحتلب التوم لهم ؛ فضلاً عن تسكينه لما يؤذيه ، و قد

(1) ابن الجزّار : المصدر السابق ، ص. 59 .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 131 .

(3) البلكدي ، أحمد بن محمد بن يحيى : تدبير الحبالى و الأطفال و الصبيان و حفظ صحّتهم و مداواة الأمراض العارضة لهم ، وزارة الثقافة و الإعلام العراقية ، بغداد (العراق) 1980 م ، ط 1 ، ص. 293 .

(4) المصدر نفسه ، ص. 190 .

يستدلّ بذلك أيضاً من طبائع الصبيان على أنّها مستعدّة لقبول الموسيقى و الرياضة ، و من كان قادراً على استعمال هاتين الصناعتين على ما يبقى ؛ فهو قادر على تهذيب النفوس على ما يجب ... " (1) .

نستخلص من كلّ ما سبق ؛ أنّ إسهامات أطباء العصر العبّاسي في طبّ الأطفال كانت ثريّة بالمعلومات و الإضافات و الابتكارات الرائدة فيما يتعلّق بالعلل التي تعترى الأطفال و تديرها ، و طرق تعليمهم و تربيتهم كما اهتمّوا بصحتهم النفسية كاهتمامهم بصحتهم البدنية ؛ و كان هذا الاهتمام جلياً في مؤلّفاتهم التي أفردوها للكلام عن طبّ الأطفال و تربيتهم ، و قد أدركوا أنّ الرعاية الصحيّة الجسمية و النفسية للأطفال تختلف باختلاف أعمارهم ؛ فاللعب يغلب على السنوات السبع الأولى ، و التأديب و التهذيب يغلب على السنوات السبع الثانية و التعليم و تحمّل المسؤولية على السنوات السبع الثالثة (2) .

ثامناً : طبّ العيون :

أطلق المسلمون إسم الكحالة على طبّ العيون ، و كانوا يسمون المشتغلين به من الأطباء باسم الكحالين و على غرار الطبّ الجراحي ، قام المسلمون بترجمة ما وصلهم من كتب غيرهم من أطباء الأمم الأخرى في هذا الإختصاص ، و عملوا على تطوير الأدوات التي أستخدمت فيه ، و ابتكروا طرقاً جديدة ، و أفلحوا في إجراء العمليات الجراحية لعلاج العلل التي تصيب العين (3) ، و لعلّ إبداع المسلمين و إجادتهم للكحالة يعود إلى كثرة إنتشار أمراض العيون في المناطق الحارة ، إلى جانب ذلك مارس الكحالون العرب تشريح عيون الحيوانات ممّا أوقفهم على معلومات قيّمة تتسم بالدقّة العلمية (4) ،

(1) البلدي : المصدر السابق ، ص. 217 .

(2) عبد الكريم شحادة : المرجع السابق ، ص. 134 .

(3) راغب السرجاني : المرجع السابق ، ص. 61 .

(4) هاني سعادة نادية : حفريات طبّ الرازي ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، ص. 91 .

و يعتبر " حنين بن إسحاق " ⁽¹⁾ رائد الكحالة عند المسلمين إذ أعتبرت مؤلّفاته مرجعاً مهماً لمن جاء بعده من الأطباء ، خاصةً كتابه : عشر مقالات في العين ، و يعدّ هذا الكتاب نقطة الإنطلاق في علم الكحالة عند المسلمين ⁽²⁾ .

إنّ إسهامات أطباء العصر العبّاسي في هذا الإختصاص قليلة ، و لكن بالرّغم من هذا ، فإنّها كانت مهمّة و أثبتت أنّ الطبيب المسلم لم يقف عند إختصاص واحدٍ ، و إنّما كان مُلمّاً بجميع الأمراض و العلل التي تصيب الإنسان ، و سنحاول بحول الله في هذا المبحث ؛ التركيز على إسهامات بعضهم ؛ كابن ربن الطبري ⁽³⁾ و الرّازي ، و ابن سينا في هذا الإختصاص ، إذ يعتبر من الذين برعوا في طبّ العيون ، و يتجلى ذلك في كتابه (القانون) ؛ حين خصّص الكتاب الثاني و الخامس منه للأدوية المفردة و المركّبة ، و نالت الأدوية الخاصة بطبّ العيون نصيباً وافراً منها ، ففي الكتاب الخاص بالأدوية المفردة ؛ يصف ابن سينا بعض الأدوية التي يمكن أن تشفي من أمراض العين المختلفة ، و التي في مجملها مستمدّة من بعض الأعشاب الطبيعية ، و كذا الأغذية التي يتناولها الإنسان ، فعلى سبيل المثال ، يرى ابن سينا أنّ العسل يجلو من ظلمة العين ، و يساعد على الرؤية ⁽⁴⁾

(1) حنين بن إسحاق : كان أوّل من فسّر اللّغة اليونانية ، و نقلها من السريانية إلى العربية ، وُلد في بغداد ، و نشأ في بلاد الشام ، و تعلّم فيها و قد كان يدخل كنائس النصارى ، و يتعلّم تعاليم دينهم ، فرأى يوماً صورةً للمسيح مُعلّقةً داخل الدّير ، فعبّر عن رفضه ؛ و اعتبرها بدعةً دخيلةً ، فأدّى ذلك إلى حبسه ، فصنّف في مدّة حبسه المسائل المنسوبة إليه في الطبّ ، و فسّر كتب اليونانيين ، و من أشهر أقواله : " ... من ترك الأكل على السكر و التمتّع في الحتام ، و إدخال الطعام على الطعام ، فقد إستغنى عن الطبيب ... " . إن التلّم : المصدر السابق ، ص. 365 ؛ إن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 279 ؛ البيهقي ظهر الدّين : المصدر السابق ، ص. 16 .

(2) راغب السرجاني : المرجع السابق ، ص. 61

(3) أنظر الملحق 6 ، ص. 202 ، 203 .

(4) ابن سينا : الأدوية المفردة ، من كتاب : القانون في الطبّ ، طبعة رومية 1593 ، شرح : جبران جبّور ، تعليق : أحمد شوكت الشطّي دار المعارف ، بيروت ، 1404 هـ / 1984 ، ط 4 ، ص. 24 .

كما أنّ عصارة البصل تنفع من الماء النازل في العين و مزجه بالعسل يقاوم بياض العين ⁽¹⁾ ، أمّا البطيخ فيقول بشأته : " ... قشره يُلصق بالجبهة ، فيمنع النوازل إلى العين ، و هو غاية ... " ⁽²⁾ ، أمّا البيض فيعتبره من الأدوية الشافية لأمراض العين ، إذ يرى أنّ بياض البيض يسكّن الوجع الذي يصيبها ، و صفته مع الزعفران و دهن الورد ينفع جداً من ضرباتها ، و صفرة البيض مع دقيق الشعير ضمّاداً يمنع النوازل عن العين ⁽³⁾ ، كما أنّه يعتبر أنّ لبن التين ينفع من الغشاوة و ابتداء الماء ، و غلظ الطبقات و خشونة الأجفان و جربها ⁽⁴⁾ ، أمّا زيت الزيتون فيقول في شأنه : " ... يكتحل بالزيت العتيق لظلمة العين ، و عكره يقع في أدوية العين ، و ورقه المحرّق بدل التوتيا للعين ، و صمغه ⁽⁵⁾ للغشاوة و البياض و غلظ القرنية ، و عصارة ورقه للجحوظ ، و لقروح القرنية و النوازل ، و البستاني أوفق للعين من البري ، و صمغه أيضاً يجلو العين و وسخ قروحها ، و يجلو الماء و البياض ... " ⁽⁶⁾ .

أمّا فيما يخصّ النباتات و الأعشاب الطبيعية التي تُبرئ و تشفي من أمراض العين ؛ فقد ذكر منها الكثير نكتفي بذكر بعضها ، و لعلّ من أهمّها : نبات الهليلج ⁽⁷⁾ ، المعروف عند العطارين ، و الذي ينفع للعين

(1) ابن سينا : الأدوية المفردة ، ص. 28 .

(2) نفسه .

(3) المصدر نفسه ، ص. 30 .

(4) المصدر نفسه ، ص. 46 .

(5) الصمغ : هو شئ يسيل من الشجرة و يجمد عليها . محمد عابد الجابري : الكليات في الطب ، مع معجم بالمصطلحات الطبية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1991 ، ص. 633 ؛ محمد هشام السمّاك : المرجع السابق ، ص. 169 .

(6) ابن سينا : : الأدوية المفردة ، ص. 104 .

(7) الهليلج : هو جنس نباتي ، ينمو في مناطق واسعة من بلاد الهند و الصين ، من أنواعه : " الكابلي " ، و " الهندي " ... إلخ . ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص 175 .

المسترخية و يدفع مواد السيل كحلاً و شُرْباً⁽¹⁾ ، و هناك نبات آخر يساعد العينين على التفتّح ، و هو نبات برّي يسمى: هندبا⁽²⁾ ، ينفع أيضاً من الرّمذ الحار ، و لبنه يجلو بياض العين⁽³⁾ ، كما أنّ هناك نباتاً آخر يجلو الغشاوة و البياض عن العين ، و الحرب ، و السيلان المزمن هو نبات يسمى : الأبانوس⁽⁴⁾ ، و هناك نباتات أخرى ذكرها ابن سينا ، مفيدة لأمراض العين ، كالرمد ، و الغشاوة و الورم منها : البلسان⁽⁵⁾ و البنفسج البنفسج و الأفسنتين⁽⁶⁾ .

(1) ابن سينا : الأدوية المفردة ، ص. 66 .

(2) الهندبا : نبات يقال له " هندبي " و " هندب " ، و هو السريس بجميع أصنافه البرّيّة و البُستانيّة . ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 177 ؛ وديع جبر : معجم النباتات الطيّبة ، دار الجيل ، بيروت 1408 هـ / 1987 م ، ص. 423 .

(3) ابن سينا : الأدوية المفردة ، ص. 96 .

(4) الأبانوس أو الأبنوس : هو نوع من الخشب البحري ، يعمل منه أشياء ، و أُتسست جماعة إلى تجارتها و تجارتها ، منهم : ابن الأنوسي الصيرفي . ابن البيطار : المصدر السابق ، ج 1 ، ص. 11 .

(5) البلسان : هو شجر أبيض الزهر ، يُستعمل في العطور و الأدوية ، و العامة تُسميه السيسان ، و هو شجر لا يُعرف في شئ من المعمورة إلا بعين شمس بديار مصر ، و لبنه موجود عندهم في غاية العزّة ، و عوده موجود كثير ، يُحمل لجميع البلدان ، و حبه معدوم البتّه حتّى في موضعه ، لأنهم لا يتكونه يُثمر لأن لبنة لا يكون إلا في قضبانة الرّخصة ، النابتة من أوتاده أوّل السنة ، ثم لا يكون فيها لبن ، و هو لا يُثمر من سنّته ، لأنّه من جنس الشجر ، و أيضاً لئلاّ يحمل ثماره ، و أمّا الحَبّ المجلوب المسمّى " حبّ البلسان " فإنّما هو حبّ شجرٍ يُشبهه جداً . ابن البيطار : المصدر السابق ص. 147 ، 148 ؛ ابن الحشاء : المصدر السابق ص. 289 ؛ داؤد الأنطاكي : تذكرة أولي الألباب ، و الجامع للعجب العجاب ، شرح و تعليق : علي شيربي ، مؤسسة عزّ الدين للتّشر ، بيروت 1411 هـ / 1991 ، ص. 121 ؛ محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص. 602 ؛ وديع جبر : المرجع السابق ، ص. 78 .

(6) الأفسنتين : هو نبات أقحواني ، ذو لونٍ أصفرٍ ، أنواعه كثيرة ، موجودة بالمغرب ، و أفضله المجلوب من بلاد الروم . ابن البيطار : المصدر السابق ، ص. 56 ، 57 ؛ ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 299 ؛ داؤد الأنطاكي : المصدر السابق ، ص. 79 ؛ وديع جبر : المرجع السابق ، ص. 44 .

لم يكتب ابن سينا بوصف الأدوية المفردة لعلاج أمراض العين ، و إنما نراه في الكتاب الخامس من كتابه : القانون ؛ يُدع في وصف الأدوية المركبة ، التي يلجأ إليها الطبيب في حال عدم فعالية الأدوية المفردة ، بل إنّه يذكر بعض الأدوية التي وصفها غيره ، و هو ما يُؤكّد الأمانة العلمية لهذا الطبيب ، مثل ذلك الدواء المشفي للزّمد و تخلّب المواد إلى العينين ، الذي ألّفه كخّال من بلاد فارس ؛ و هو خليط من عدّة موادٍ ، يقوم الطبيب بعجنها بالماء ، و تستعمل للتخفيف من الآلام ⁽¹⁾ ، و أهمّ تلك المواد : الماميثا ⁽²⁾ ، و الأنزروت ⁽³⁾ ، و الأفيون و يصف ابن سينا دواءً مركّباً سمّاه " جالب النّوم " ، و هو خليط من الماميثا و الأنزروت و الزعفران المرّ و دواءً آخر ينفع من الجرب و الرّمد العتيق ، و سيلان القيح من الأذن ، و القروح التي يعسر إندهالها ، و الآكلة التي تقع في الفمّ ، و هو خليط من النّحاس المحرّق و الفلفل و عقيد العنب ، حيث تُسحق الأدوية اليابسة و يُرشّ عليها في الشراب ، فإذا جفّ ؛ أُلقي عليها عقيد العنب و يُسحق به ، و يوضع في إناءٍ ، و يُطبخ بنايرٍ ليّنة و يُحفظ في إناءٍ من نحاس ⁽⁴⁾ .

و من الأدوية التي تنفع من سيلان المواد الكثيرة الناتجة عن عسرة الرّطب في العين ، أو وجود ورم بداخلها مائلاً إلى البياض في لونه ، أو الرّمد الذي يعلو فيه بياض العين على سوادها ؛ يصف ابن سينا دواءً يُستعمل قبل الحّمّام و هو خليط من عدّة مواد ، إذ يقول : " ... تأخذ من الحجارة التي يقال لها " شحطوس " ثمانية مثاقيل ...

(1) ابن سينا : القانون في الطب ، المجلّد 3 ، ص. 2445 .

(2) الماميثا : هي عصارة طبيّة ، طيّبة الرائحة ، مرّة الطعم ، لوّنها بين صفرة و حمرة ، و متى أخذت من العشبة المذكورة ، تصبح متجمّدة سهلة الكسر زعفرانية العصاره ، يُستعمل لعلاج الرطوبات ، و نقص اللّحم ، و إسترخاء الجفن ، و ضعف البصر كحلاً ، و الأورام و المفاصل الحارة طلاءً ... إلخ داؤد الأنطاكي : المصدر السابق ، ص. 414 ؛ محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص. 652 .

(3) الأنزروت : هو الكحلّ الفارسي و الكرمانبي ، و يُسمى " زهر جشم " ؛ و هو عبارة عن صمغ شجرة شائكة في بلاد فارس ، فيه مرارة ، جيّده يُضرب إلى الصفرة ، و يشبه اللّبان . داؤد الأنطاكي : المصدر السابق ، ص 90 ؛ محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص. 598 .

(4) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 3 ، ص. 2445 .

كندر⁽¹⁾ سبعة مثاقيل ، نحاس محرق مغسول ، و أفيون و صمغ ... يُعجن بشراب مقدار كفاية ، و يُستعمل ببياض العين رقيقاً ، بأن يقطر في العين منه مراراً⁽²⁾ .

و من الأدوية الأخرى التي وصفها ابن سينا لعلاج الأوجاع الشديدة و البثور⁽³⁾ ، و القروح الوسخة و القروح المتآكلة دواء سمّاه : " الكوكب الذي لا يُغلب "⁽⁴⁾ ، و هناك دواء آخر يقال له : " التّفاحي " ينفع لمن لا تتحمّل عينه مسّ الأدوية ، و يصلح للبثور و القروح الغائرة ، و الوسخة ؛ التي تحدث في الطبقة القرنية⁽⁵⁾ ، كما يصف الشيخ الرئيس دواءً آخرًا يقال له " الهندي " ، يمنع من الرّمذ ، و ينفع من الحكّة⁽⁶⁾ .

و من الأطباء الذين كانت لهم إسهامات في طبّ العيون : " الرازي " ؛ الذي خصّص فصلاً كاملاً للعيون في كتابه (الحاوي) ، أبداع فيه وصف العلل و الأمراض التي تصيب العين ؛ كالرّمذ ، و البثور ، و القروح و الحكّة و السيلان ، و الأوجاع الشديدة⁽⁷⁾ ، و على غرار ابن سينا ؛ نجد الرازي يصف العلاج اللازم لها بالإعتماد على

(1) الكندر : هو نبات شائك معروف باسم اللّبان ، و يُسمى " البُستج " ، و يُجلب من بلاد المشرق ؛ خاصة من بلاد اليمن ، و الذكر منه مستديرٌ صلبٌ ، ضاربٌ إلى الحمرة ، أما الأنثى ؛ فهو أبيض هشٌّ ، و قد يُؤخّر طرياً ، و يُجعل في الماء فيستدير ، و يُسمى " المدحرج " ، و تبقى قوّته نحو عشرين سنة . و للكندر فائدة كبيرة ، إذ يُستعمل لجبس الدّم ، و إزالة القروح ، و تنقية البلغم ، و تضميد الجروح ، و علاج أمراض العين و الأذن و الأنف ، و أمراض الجلد ؛ كالحكّة و الجرب ، إضافةً إلى أمراضٍ أخرى ؛ كالقبيّ و الغنيان ... إلخ . ابن البيطار : المصدر السابق ، ج 4 ص. 348 ، 349 ؛ داود الأنطاكي : المصدر السابق ، ص. 397 ؛ ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 240 .

(2) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 3 ، ص. 2446 .

(3) البثور : هي الخراجات الصغار . ابن الحشاء : المصدر نفسه ، ص 285 . عبد الرحيم مارديني : موسوعة كنز المعلومات ، دار البدر ، المحمدية (الجزائر) د س ط . ص. 28 .

(4) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 3 ، ص. 2447 .

(5) المصدر نفسه ، مج. 3 ، ص. 2448 .

(6) نفسه .

(7) حسان الحلاق : المرجع السابق ، ص. 38 .

على طرقٍ بسيطةٍ ، أساسها الأعشاب الطبيعية و بعض الأغذية ، و قد أُعتبرت هذه الإسهامات مرجعاً للعديد من الكحّالين من بعده ، على غرار أحد الأطباء الكحّالين من أسرة " بختيشوع " ؛ الذي رجع في مناسباتٍ عديدةٍ إلى خمس نسخ من فصل العيون في كتاب (الحاوي في الطب) (1) .

عالم الرازي حالاتٍ مختلفة للأضرار التي تصيب العين ، نكتفي بذكر بعضها ، مثال ذلك ؛ علاجه لامرأةٍ وصف حالتها ، إذ يقول : " ... جدرت امرأةً جدرياً على جدري أربع مرات ، بادرتُ إلى العين فوقيتها بالكحل المحكوك بماء الورد ، فلم يخرج في عينها شيئٌ البتّه ، على أنّه قد كان حواليتها أمر غليظ جداً ، فعجب لذلك العجائز اللآئي كنّ حولها من سلامة عينها ... " (2) . كما أنّه أُصيب في آخر أيّامه بالعمى (3) ، و يُروى أنّه كان كان مُصاباً برطوبة في العينين ، و جاء قدّاح ليقدها ، فسأله الرازي : كم طبقة في العين ؟ فقال : لا أعلم فقال : لا يقده عيني من لا يعلم ذلك (4) ، كما أنّه يصف حالة هيجان العين ، و يُرجعها إلى كثرة المشي في الشّمس والعلاج في نظره أن يُشَمّ الأفيون المصري ، و تُطلّى به العين ، كما أنّ الهيجان يكون عقب الجلوس عند التّار ، و علاجه أن يتناول شيئاً من الطعام ، و يكتحل بشيءٍ من الهليلج ، فإنّه يُبرأ في الوقت (5) .

(1) توماس أرلوند و آخرون : تراث الإسلام ، ترجمة : جرجيس فتح الله ، دار الطليعة ، بيروت 1972 ، ط. 2 ، ص. 465 .

(2) الرازي ، أبي بكر محمد بن زكريا : كتاب المرشد أو الفصول ، مع نصوص طبّية مختارة ، تقديم : ألبير زكي إسكندر ، معهد المخطوطات العربية القاهرة 1995 م ، ط. 2 ، ص. 158 .

(3) Gustave Le Bon : op . cit , p 447 .

(4) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 226 .

(5) Fuad sezin , op . cit , p 82

أمّا الطبيب المعروف " النجيب السمرقندي " ؛ فهو من الأطباء الموالي الذين أبدعوا في وصف الأدوية الشافية لمختلف الأمراض التي تُصيب العين ؛ مثال ذلك ما قدّمه ؛ حين خصّص فصلاً كاملاً من كتابه لوصف العين و تشخيص أمراضها ، و وصف العلاج اللازم لها (1) .

تاسعاً : طبّ الحيوان

تُعَدّ البيطرة من المهن ذات الصلة بصناعة الطبّ ، و أُخضعت كغيرها من الصناعات إلى مراقبة و إشراف المحتسب ؛ الذي كان يشترط على البيطار أن يكونَ خبيراً بعِلل الدواب ؛ عريفاً بما يحدث فيها من عيوب ؛ بل إنّ أغلب من كتَب في موضوع الحسبة اعتبر علاج الحيوان أصعب بكثيرٍ من الآدميين ؛ باعتبار أنّ الدّواب لا تستطيع أن تُعبّر عن مَرَضِها و ألمها ، و أيّ سوء تقديرٍ يُؤدّي إلى هلاكِها ؛ و هو ما سننطرقُ إليه بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث .

أمّا فيما يتعلّق بإسهامات أطباء العصر العباسي في هذا الاختصاص ؛ فتبقى قليلة جداً مقارنةً ببقية التخصصات ؛ فألّف بعضهم كتباً ، حاولوا فيها وصف أصناف عديدة من الحيوانات وصفاً دقيقاً ، و التعرّض للنواحي العلاجية ، و الفوائد الطّبيّة لبعضها ، نذكر منها كتاب (الحيوان) للجاحظ (2) و كتاب (عجائب

(1) أنظر الملحق 8 ، ص. 200 .

(2) الجاحظ (ت 255 هـ) : أبو عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، أحد أشهر الأدباء في عصور الأدب العربي ، لُقّب بالجاحظ لبحوثه في عينيه كما لُقّب كذلك بـ " الحدقي " ، و يعرف بأنّه زعيم فرقةٍ من المعتزلة يقال لها " الجاحظية " ، و له ولع كبير بعلم الكلام و ظهر ذلك الولوج واضحاً في كتبه حيث يأخذ في الرأي ، و يدافع عنه ، ثمّ بضدّه و يُدافع عنه أيضاً ، و أسلوبه في الكتابة هو من السهل الممتنع ، بالإضافة إلى قدرة تصويرية ساخرة لا مثيل لها . و قد ذكرت المصادر و المراجع التي ترجمت له أنّ له قرابة ثلاثمائة و خمسين كتاباً ، أهمّ تلك الكتب : الحيوان ، البيان و التبيين ، الخلاء المحاسن و الأضداد ، و له مجموعات من الرسائل في مواضيع متعدّدة مثل : الجوّاري ، البغال ، التّرك ، إعجاز القرآن . عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص. 198 ؛ محمد أتونجي : مشاهير العالم ، إشراف : إميل يعقوب ، دار الجليل ، بيروت (د س ط) ، ج 1 ، ص. 48 .

المخلوقات و غرائب الموجودات) لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن الملقب بـ " القزويني " (1) ، و كتاب (حياة الحيوان الكبرى) لأبي البقاء محمد بن موسى المعروف بـ " الدّميري " (2) ، و غيرها من الكتب .

يُعتبر " علي بن ربن الطبري " من الأوائل الذين خاضوا في هذا المجال ؛ إذ خصّص فصلاً كاملاً من كتابه (فردوس الحكمة) للحيوان ؛ صنّف فيه الحيوانات إلى أرضية و مائية و هوائية (3) ، و حاول فيه وصف أعضائها و وظائفها ، و قدّم رأيه و تفسيره لتشكّل بعض الأعضاء ؛ كالقرون و الأظلاف و الحوافر و الأظافر و يقول في هذا الشّأن : " ... فأما علّة القرون و الأظلاف ؛ فأقول إنّ من الدواب دواب دائمة للإرتعال و الأكل و لجسّمها حصافة شديدة ، و تجتمع فيها لذلك رطوبات كثيرة ، و تحتبس حرارتها ... و تلك الحرارة تدفع رؤوسها الرطوبات الغليظة ، فتطلع عند ذلك منها القرون ، و الدواب التي لها قرون لا تُنبت لها أسنان في فكّها الأعلى ...

(1) القزويني (ت 739 هـ) : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، أديب و فقيه و محدّث ، ولد في الموصل ، و تولّى القضاء ناحية الروم و هو لم يتجاوز العشرين ، و اشتغل بالقضاء في دمشق ، ثمّ خطيباً في جامعها ، ثمّ قاضي القضاة فيها ، ثمّ قاضي القضاة في مصر ، و أُعيد إلى قضاء دمشق بعد ذلك . من مؤلفاته : تلخيص المفتاح في المعاني و البيان ، إيضاح التلخيص ، الشذر المرجاني من شعر الأرجاني ، عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات محمد ألتونجي : المرجع نفسه ، ص. 153 ؛ عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص. 216

(2) الدّميري (ت 808 هـ) : هو أبو البقاء محمد بن موسى ، ولد و مات في القاهرة ، و هو من أهل ديمره ، كان يشتغل بالخطابة ، و يعيش من عمله ، ثمّ أقبل على العلم ، فدرس الأدب و التفسير و الحديث و الفقه حتّى اشتهر بذلك كلّه ، و شرع بإلقاء الدروس في القاهرة ، ثمّ سافر إلى مكّة و المدينة ، و ألقى الدروس فيهما ، ثمّ عاد إلى مصر ، و كان له في الأزهر حلقة خاصة ، و مال إلى الزهد و التقشّف ، فنُسبت له الكرامات ، له مؤلّفات عديدة ، أهمّها ما كتبه عن الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) ، و صنّفه على شكل معجم ، رُتبت فيه موادّه على أساس التسلسل الهجائي و كان يُعرّف بالحيوان لغوياً ، و يصفه و يذكر أهمّ خصائصه ، و مؤلفاته الأخرى مُلخصات أو شروح مثل : التّجم الوهاج ، الديباجة ، أرجوزة في الفقه ... إلخ . عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص. 208 ؛ محمد ألتونجي : المرجع السابق ، ص. 76 ؛ محمد أمين فرشوخ : الموجع السابق ، ص. 55 .

(3) الطبري علي بن ربن (ت 232 هـ) : فردوس الحكمة ، تحقيق : محمّد زبير الصديقي ، مطبع أفتاب ، برلين (ألمانيا) 1928 م ، ص. 27 .

و ما تنزل من تلك الرطوبات إلى أسفلها كان منها الحوافر و الأظلاف و الأظفار...⁽¹⁾ . كما أبدع الطبري في وصف بعض الحيوانات البرية و المائية ، و البرمائية ، و الطيور ؛ نكتفي بذكر بعضها . ففيما يخصّ الأسماك ؛ فقد ذكر لنا بعض أصنافها و أوصافها ، و بيّن أنّها تبيض ؛ و لا أرحام لها ، و لا قوائم ؛ إلاّ أنّه ذكر أنّ بعضها لها أرحام ، و تلدّ كما تلدّ الحيوانات الثديية ، و يقول في هذا الصدد : " ... على أنّه قد أخبرني غير واحد ؛ ممّن أثقّ به من زهبان جزائر البحر ، أنّ في بحرهم سمكاً ممدوراً مثل الترس ؛ تحمل في بطنها السمك و تلدّ ، و ليس للسمكة رئة ؛ فهي لا تتنفس ، و لا تحتاج للإستنشاق لكنّها تشرب الماء ، ثمّ تضمّ فيها ، و تعصر أذنبها ؛ فيخرج الماء عنها كما يخرج من حيوان البرّ فضول الهواء عنه بالأنفاس...⁽²⁾ ، كما قدّم لنا هذا الطبيب بعد أوصاف الحيوانات البرمائية كالسلاحف و السراطين ، و تطرّق بالتفصيل إلى مراحل تشكّل الفروخ في البيضة ، و قال : " ... ثمّ تتفرّع أعضاء الفروخ في البيضة كما تتفرّع الشجرة ، و إذا فئى غذاء الفروخ في البيضة ؛ تتحرّك حينئذٍ لطلب الغذاء ، و تُحسّ الدجاجة بحركته في البيضة ؛ فتخرجه منها بمنقارها...⁽³⁾ . و بالتالي أثبت هذا الطبيب أنّه كان بارعاً في علم التشريح ؛ إذ أنّ كلّ الأوصاف التي قدّمها لنا حول أعضاء الحيوانات ؛ كانت بعد تشريحها كما كان لا يتردّد في إجراء بعض التجارب عليها ، و تجريب بعض الأدوية عليها ؛ خاصةً تلك التي لها نفس خصائص أعضاء جسم الإنسان ؛ و هو ما اشترك فيه أغلب أطباء العرب و المسلمين .

أمّا الطبيب الكبير " أبو بكر الرّازي " ؛ فهو الآخر خاض في هذا العلم ؛ مستفيداً ممّا أخذه من أستاذه " ابن ربن الطبري " ؛ إذ كان بارعاً في تشريح الحيوانات ؛ و وصف أعضائها ، و القيام ببعض التجارب العلمية

(1) الطبري ، علي بن ربن : المصدر السابق ، ص. 28 .

(2) المصدر نفسه ، ص. 30 .

(3) نفسه .

على بعضها ؛ خاصةً القردة ، لشدّة شبهها بالإنسان ، فكان يُعطي القرد جرعاتٍ من الدّواء ، ثمّ يلاحظ تأثيره فيه فإن نجح طبّق تجربته على الإنسان و هذه الطريقة هي التي يتّبعها الأطباء حالياً⁽¹⁾ .

أمّا الحكيم " ابن سينا " ، فقد خصّص الجزء الخامس من كتابه : " الشفاء " لعلم الحيوان ، و دخل في بعض التفاصيل التي تدلّ على أنّه من العلماء الكبار في هذا المجال⁽²⁾ ، فقد عرض الشيخ الرئيس نماذج رائعة لدراساته في علم الحيوان و التشريح و مختلف أنواع الطير و الحيوان ؛ ممّا يدلّ على طول باعه في هذا العلم ، بل إنّ ما كتبه في الحيوان يزيد أضعافاً مضاعفة ممّا كتبه في النبات و الطبيعيات ، و لعلّه أن تكون لذلك دلالة شغف الشيخ بعلم الحيوان لما أفاض فيه هذه الإفاضة العجيبة⁽³⁾ .

لقد درس ابن سينا الحيوانات دراسة مستضيئة ، و ركّز على أخلاق و طبائع و عادات الحيوانات ، و ضمّن دراسة مفصّلة عن أعراض الحيوانات عامّةً ، سواء كانت من الدواب ، أو النّعم ، أو الطيور ، أو الهوام ، أو الحشرات أو الأسماك أو السّباع⁽⁴⁾ ، إذ تناول بحثه العظام و الغضاريف ، و الأعصاب و الشرايين ، و الأوردة و الأغشية و الرباطات و الأجهزة العضلية و الهضمية و الدورية و التناسلية و التنفّسية⁽⁵⁾ ، و بالتّالي شملت هذه الدراسة ؛ الحيوانات المائية و البرمائية و البريّة . ففيما يخصّ الحيوانات المائية ؛ فقد قسّمها إلى جيّنة و شطيّة و هذه الأخيرة قسّمان : طينية و صخرية ، و أوضح أنّ الحيوانات المائية ، إمّا ذات ملاحقٍ ؛ كبعض أصناف

(1) علي بن عبد الله الدقّاع : رواد الحضارة ...، ص. 218 ؛ حربي عبّاس و حستان حلاق : العلوم عند العرب ، أصولها و ملامحها الحضارية دار النهضة ، بيروت 1995 م ، ص. 273 .

Madleine Michaux : **Histoire du Moyen age** , édition Eprolles , Paris 2007 P 190 .

(2) علي بن عبد الله الدقّاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 م ، ط. 1 ، ص. 261 .

(3) عبد الحلّيم منتصر : المرجع السابق ، ص. 132 .

(4) علي بن عبد الله الدقّاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 262 .

(5) عبد الحلّيم منتصر : المرجع السابق ، ص. 132 ؛ حربي عبّاس و حستان حلاق : المرجع السابق ، ص. 294 .

الصدف ، و إمّا مُتحرّرة الأجساد كالسّمك ، و يرى ابن سينا أنّ من الحيوانات المائية من يتحوّل مع مرور الوقت للعيش في البرّ (1) .

إضافةً إلى هذا ، فقد قدّم ابن سينا دراسةً مستفيضةً و كاملةً عن أعضاء الحيوانات المتشابهة ، و يتّضح ذلك من خلال قوله : " ... و أوّل الأعضاء المتشابهة الأجزاء العظم ، و قد خُلِقَ صلباً ، لأنّه أساس البدن و دعامة الحركات ، ثمّ الغضروف ، و هم أليئُ من العظم ، و أصلب من سائر الأعضاء ، و المنفعة في خلقه أن يُحسن به إتّصال العظم بالأعضاء اللّينة ، فلا يكون الصلب و اللّين مرّكباً بلا متوسط ، فيتأدّى اللّين بالصلب ، و خصوصاً عند الضربة و الضغطة ... " (2) ، كما تحدّث أيضاً عن الوجنة ، الأسنان ، الفكّين ، العنق ، الكتف اللّسان ، الحنجرة ، الثديين ، الصدر ، و البطن (3) . و بعد أن فصّل ابن سينا في الأعضاء المتشابهة عند الحيوانات ، بدأ في دراسة وصفية و مقارنة ، و التطرّق إلى الخصائص ؛ التي تُتميّر بعض الحيوانات عن غيرها كالحمار الهندي ، الكركدن ، البقر ، التمساح ، الطير الضفدع و الدلفين (4) .

و من الأطباء الذين أسهموا في هذا الإختصاص " ابن مسكويه " (5) ؛ الذي تناول علم الأحياء في كتابه (الفوز الأصغر) ، فقسّم الحيوانات إلى أصنافٍ ، إذ يرى أنّ هناك حيوانات دنيعة ؛ لم تستوفِ الصفات الحيوانية الكاملة ، و التي في صفاتها تشابه بالحياة التّباتية كالأصداف (6) و الحلزون ، كما تكلمّ عن الحيوانات عديمة

(1) الدقّاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 262 .

(2) ابن سينا ؛ نقلاً عن الدقّاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 262 .

(3) الدقّاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 267 .

(4) الدقّاع : إسهامات علماء العرب ، ص. 267 .

(5) لمعرفة هذه الشخصية ، أنظر الفصل الرابع من هذا البحث ، ص. 147 .

(6) الأصداف : هي جمع صدف ، و الصدف هو غطاء الحيوان المسّمى مائئُهُ " محاراً " و برئُهُ " حلزوناً " . ابن الحشاء : المصدر السابق ، ص. 92 .

البصر مثل الخلد (1) ، و أعطى أمثلةً للحيوانات الضعيفة البصر كالنمل و غيره ، و المعروف أنّ النمل ضعيف البصر إلى حدّ كبيرٍ ، بل منه أنواعٌ فاقدة للبصر ، في حين أنّ باقي الحواس مُستكملة قويّة ، فالنمل يستطيع بحاسة الشمّ أن يهتدي من مسافاتٍ بعيدةٍ إلى المواد السكّرية التي لا يُشمّ لها رائحة ، كما تكلم عن وجود حيوانات عيونها عاطلة من الجفون كالأفاعي و الأسماك الكبيرة ضعيفة البصر .

إضافةً إلى كلّ هذا ، يتحدّث " ابن مسكويه " عن الحيوانات التي استكملت حواسها الخمس ، إذ يرى أنّها على مراتب متفاوتة ، فمنها البليدة الجافية الحواس ، و فيها الذكيّة اللطيفة الحواس التي تستجيب للتأديب ، و تقبل الأمر و النهي كالفرس من البهائم ، و البعّاء من الطيور ، التي يصل بها الأمر إلى حدّ استعدادها لقبول أثر النطق و التمييز ، أمّا القردة و أشباهها فقد صنّفها " ابن مسكويه " في قَمّة مرتبة التأديبات ، و جعلها أحطّ من مرتبة الإنسان ، خاصّةً فيما يتّصل بالمواهب ، من قبول التأديب و التمييز و الإهتمام إلى المعارف (2) .

(1) الخلد : هو حيوان ثديي من القوارض ، يفقد بصره بتأثير الطبيعة ، حيث تولد صغاره بعيونها ، ثمّ تضمر العينان ، و يُغطّيها الشعر في جحورٍ مُظلمةٍ محفورةٍ تحت الأرض ، و يُعوّض هذا الحيوان حاسة البصر بحواسٍ أخرى كالسمع و الشمّ و اللمس . الدفتاع : إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 140 .

(2) نفسه .

الفصل الثالث :

دور الحسبة في حفظ الصحة العامّة

أولاً : الحسبة على المهّن ذات الصلة بصناعة الطبّ .

1 . الحسبة على الأطباء .

2 . الحسبة على الصيادلة .

3 . الحسبة على البيطرة .

4 . الحسبة على الفصّادين .

ثانياً : الحسبة على صانعي الأطعمة و الأشرية .

1 . الحسبة على الدقّاقين .

2 . الحسبة على الخبّازين .

3 . الحسبة على الجزّارين و القصّابين .

4 . الرقّابة و الإشراف على الشوّائين .

5 . الرقّابة و الإشراف على الرؤاسين .

6 . الرقّابة و الإشراف على النقائقيين .

7 . الرقّابة و الإشراف على قلاّئي السمك .

8 . الرقّابة و الإشراف على السمانين .

ثالثاً : تنظيم الأسواق و الطرقات .

I. دور الحسبة في حفظ الصحة العامة :

تُعتبر الحسبة (¹) من النّظم الإدارية التي نشأت في الدولة الإسلامية ؛ تقوم في أصل نشأتها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ امتثالاً لقوله تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور } (²) . وقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم بدور المحتسب في صدر الإسلام ، و سار الخلفاء الراشدون على نفس النهج ، فتولوا الحسبة بأنفسهم في بادئ الأمر عندما كانت الدولة الإسلامية محدودة الأطراف ؛ حتّى إذا ما اتّسعت رقعتها ؛ أنابوا عنهم من يتولّى منصب المحتسب للإشراف على الأسواق و الموازين المكييل ، و القيام بالمحافظة على الآداب العامة ، و صيانة الحرمات و مراعاة الأحكام الشرعية ، و محاربة المنكرات من العقود المحرّمة و الغشّ في البيوع .

و في العصر و العباسي توسّعت مهام و اختصاصات المحتسب لتشمل الجانب الصحي ؛ إذ أنّ الدولة العباسية أولت عنايةً هامّةً بصحة الأبدان و السلامة العامة ؛ فسخرت نظام الحسبة لتحقيق هذه الغاية ؛ و هو ما فصلت فيه كتب الحسبة ؛ على غرار كتاب (معالم القرية في طلب الحسبة) لابن الأخوّة ، و كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيرزي ، و كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لابن بسّام... إلخ . و يبدو للقارئ أنّ الدولة لم تغفل عن كلّ صغيرة أو كبيرة ؛ من شأنها أن تُهدّد صحة الناس و تُلحق الضرر بهم ؛ فوسّعت من صلاحيات المحتسب ليشمل الجانب الصحي ؛ من خلال رذع و معاقبة من يتسبّب في ذلك ؛ سواء تعلّق الأمر بالمهّن ذات الصلة بصناعة الطبّ ؛ كالأطباء ، الصيادلة البيطرة الحجامين ، الفصّادين ، الكخّالين... إلخ ، أو بائعِي الأَطعمة و الأشربة ، و كلّ ما يتعلّق بالبيئة و الآداب العامة .

(¹) الحسبة : هي النّظر في أمور المدينة ؛ بإجراء مراسم معتبرة في الرياسة الإصطلاحية و نهي ما يُخالفها ، و تنفيذ ما تقرّر في الشرع من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر . القنوجي ، صديق بن حسن (ت 1307 هـ) : أبجد العلوم ؛ المعروف بـ " الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم " منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد ، دمشق (سوريا) 1978 م ، ج 2 ، ص. 26 ، 27 .

(²) الآية 41 من سورة الحجّ .

أولاً : الحسبة على المهنة ذات الصلة بصناعة الطب :

أ . الحسبة على الأطباء

لقد وضع الإسلام شروطاً و ضوابط لممارسة صناعة الطب ؛ مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم :
 { مَنْ تَطَبَّبَ وَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ طَبُّ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ } (1) ؛ أي مسؤول عن الضرر الذي يُلحقه بالمريض ،
 و بهذا وضع الإسلام الأساس السليم لمن يُريد ممارسة هذه المهنة ، و معاقبته على إهماله ، و محاسبته على خطئه
 (2) و لأجل ذلك أخضعت هذه الصناعة في العصر العباسي لرقابة الدولة ؛ لإنتقاء الأمهر و الأجدد من الأطباء
 ؛ لأنّ الطبّ علمٌ يعتمد على الجانب النظري و التطبيقي في آنٍ واحدٍ ، و في هذا الشأن يقول الشيرزي :
 " ... الطَّبُّ عِلْمٌ نَظَرِيٌّ وَ عَمَلِيٌّ أَبَاحَتْ الشَّرِيعَةُ عِلْمَهُ وَ عَمَلَهُ ، لِمَا فِيهِ مِنْ حِفْظِ الصِّحَّةِ وَ دَفْعِ الْعِلَالِ وَ الْأَمْرَاضِ
 ... وَ الطَّبِيبُ هُوَ الْعَارِفُ بِتَرْكِيبِ الْبَدَنِ وَ مَزَاجِ الْأَعْضَاءِ ، وَ الْأَمْرَاضِ الْحَادِثَةِ فِيهِ وَ أَسْبَابِهَا وَ أَعْرَاضِهَا وَ عَلَامَاتِهَا
 وَ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ فِيهَا وَ طَرِيقِ مُدَاوَاتِهَا ، لِيُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوِيَةِ فِي كَمِّيَّاتِهَا... " (3) .

فمن لم تتوفر فيه هذه الصفات فلا يحلّ له من الناحية الشرعية مزاوله صناعة الطب ؛ لأنّ أيّ خطأ أو سوء
 تقديرٍ قد يُؤدّي إلى الإضرار بصحة المريض و تهديد حياته ؛ و هو ما حدّث في أوّل عهد الدولة الإسلامية ؛ حين
 كان الأطباء يُمارسون الطبّ بعد قراءته على أيّ طبيب من مشاهير الأطباء أو في كتب الأقدمين ؛ أو يُمارسونه
 أخذاً على آبائهم ، ثمّ يُباشرون الصناعة بعد ذلك بغير قيود ، و استمرّ الحال على ذلك إلى غاية العصر العباسي ؛
 أين احتلّ موضوع تنظيم المهنة الطبيّة و معرفة آداب الطبيب و واجباته و التزاماته حيّزاً مهمّاً في إهتمامات الدّولة
 العباسية ؛ خاصةً مع إزدياد عدد الأطباء في بغداد و باقي الحواضر الإسلامية الكبرى ؛ إذ بلغ عددهم في بغداد

(1) أبو داوود : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 195 .

(2) الكتاني : المرجع السابق ، ص. 358 .

(3) الشيرزي عبد الرحمن بن نصر : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق : الباز العريني ، القاهرة 1946 م ، ص. 97 .

وحدها نحو 870 طبيباً في بداية القرن الرابع الهجري ؛ عدا الأطباء المشهورين في الصناعة ، و الذين كانوا في خدمة الخلفاء (1) . و لكي يطلع هؤلاء الخلفاء على أعمال الأطباء و معاملتهم للمرضى و إخلاصهم للصناعة و صدق ممارستهم فيها ؛ نصبوا رئيساً هو في الغالب أحد أطباء الخليفة الذين هم من المتقدمين في المهنة و ممن يُحسن ممارستها .

و في عهد الخليفة العباسي "المقتدر بالله" (2) " بدأ تطبيق مبدأ المراقبة على ممارسي صناعة الطب ؛ على إثر وفاة أحد المرضى بسبب خطأ طبي من طرف أحد الأطباء ؛ مما دعى بالخليفة إلى وضع حد لهذا الأمر و فرض شروط و ضوابط لممارسة هذه الصناعة و الحد من الفوضى التي كانت عليها من قبل ؛ فأمر مُحْتَسِبُهُ " إبراهيم بن محمد بن بطحا " ؛ بمنع جميع الأطباء من مواصلة مهنة الطب إلا بعد الحصول على ترخيص من رئيس الأطباء " سنان بن ثابت بن قرّة " ؛ حيث أمره الخليفة بإمتحان نحو 860 طبيباً ؛ تمكن منهم 68 طبيباً فقط من اجتياز (3) . و هنا ينبغي الإشارة إلى العدد الضخم للأطباء الذين لم يكونوا جميعاً أطباء بالمعنى الصحيح ؛ و إنما كانوا مزيجاً من الفصّادين و الجبّرين و المحجّمين و الكحالين و غيرهم ، و يُمارسون هذه المهنة طلباً للرزق فقط ؛ إذ كانت مهنة الطب من المهن المريجة .

(1) القفطي : المصدر السابق ؛ ص. 191 .

(2) المقتدر بالله (295 هـ - 320 هـ / 908 م - 932 م) : هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، أفضت إليه الخلافة و هو في الثالثة عشر من عمره سنة 295 هـ . لم يكن المقتدر على مستوى الأحداث التي أحاطت به . و لما شبَّ عكفَ على لذاته ، و تركَ تصريف شؤون دولته لوزيره التركي " مؤنس الخادم " ، و انتشرت في أيامه الفتن في الداخل ؛ إذ تميّزت فترة حكمه بظهور خطر القرامطة ؛ الذين أخذوا الحجر الأسود و ارتكبوا المجازر في حقّ الحجاج سنة 317 هـ ، و قيام دولة الفاطميين في بلاد المغرب ، و قيام رجال الجيش بخلعِهِ عن العرش لمزنيين ، و انتهى الأمر بقتله سنة 320 هـ / 932 م . الطبري : المصدر السابق ، ج 10 ، ص. 141 ؛ المسعودي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 214 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 302 .

و قد وَرَدت أخبار ممتعة في جلسات الإمتحانات المذكورة ؛ يُمكن الرجوع إليها في كتاب (العيون) ، و يُبرز في هذه الإمتحانات المذكورة إثنان ؛ أحدهما في حكم " المقتدر " ، و كان فيه رئيس الأطباء " سنان بن ثابت بن قرة " ، و الإمتحان الثاني في حكم " المقتفي " ؛ و كان فيه رئيس الأطباء أمين الدولة " ابن التلميذ " (1) و في هذا الشأن ؛ يروي لنا القفطي حادثة وَقَعَت أثناء الامتحان الذي أشرفَ عليه " سنان بن ثابت " ؛ حين قال لأحد الممتحنين . و كان شيخاً كبيراً . : " ... لا تهجم على مريضٍ بما لم تعلم ، و لا تُشيرُ بفصدٍ و لا بدواءٍ مُسهلٍ إلا لما قَرَّب من الأمراض ، فقال له الشيخ : هذا مذهبي مُذكُنت ؛ ما تُعدِّثُ السكَّنَجِين (2) و الجَلَّاب ثم انصرفَ ... " (3) .

إنَّ رئاسة الأطباء هو تنظيم انضباطي مهني كان معمولاً به عند اليونانيين حتَّى العهد البيزنطية (4) ، و يبدو أنّ هذه الوظيفة كانت تخصّ الجانب الإنساني و الدِّيني من صناعة الطبّ ، أمّا رئاسة الأطباء فمهنية خاصة ؛ و ربّما لم يُعيّن الخليفة " المعتضد " (5) صديقه الحميم " ثابت بن قرة " رئيساً لأطباء بغداد ؛ بل عيّن " غالباً "

(1) القفطي : المصدر السابق ، ص. 340 ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 351 .

(2) السكَّنَجِين : هو المركَّب من الخَلِّ و العسل ، ثم يُسَمَّى بهذا الاسم ؛ و إن كان مكان العسل سَكْر ، و مكان الخَلِّ السفرجل أو غيره .

الخوارزمي : المصدر السابق ، ص. 200 ؛ فايز الداية : المرجع السابق ، ص. 205 .

(3) القفطي : المصدر السابق ، ص. 191 .

(4) ابن الأُخوة ؛ محمّد بن أحمد القُرشي (ت 729 هـ / 1328 م) : معالم القرية في أحكام الحسبة ، تحقيق : محمّد محمود شعبان و آخرون

الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 1976 هـ / 1408 م ، ط 1 ، ص. 255 ؛ كامل السامرائي : مختصر تاريخ الطبّ العربي ، ص. 329 .

(5) المعتضد (279 هـ . 289 هـ / 892 م . 902 م) : أبو العبّاس أحمد المعتضد ؛ واصل سياسة والده " المعتمد " الداخلية و الخارجية ، أهمّ ما

ميّز فترة حكمه هو تراجع نفوذ الأتراك . محمد سهيل طقّوش : التاريخ الإسلامي (الوجيز) ، دار النَّفّاس ، بيروت 1432 هـ / 2011 م ، ط 5

ص. 174 .

(¹) في هذا المنصب لأنه أقدّر في ممارسة الطبّ من " ابن قوّة " ، كما أناط الخليفة برئيس الأطباء لا المحتسب إمتحان الأطباء في معلوماتهم الطبيّة ليمنع من يفشل في هذا الإمتحان من ممارسة المهنة (²) .

و ظهر في عصر النهضة الفكرية العباسي ؛ إضافة إلى لقب رئيس الأطباء و المحتسب لقب " الأستاذ المتميّز " (³) ، و يُطلق على من تبرز أسماؤهم في هذه الصناعة ، و على الأساتذة الأقدمين في تعليمها ؛ و واضح أنّ هذا اللقب عُربي ؛ يخلعه ذوو المهنة على من يستحقّ هذه المرتبة المعنوية السامية ، و ليس للقب دخلٌ بالأمر الحكومية أو الإدارية .

و إدراكاً لأهمية الطريقة العلمية إلى جانب الدراسة النظرية في تعلّم الطبّ و الوصول إلى الحقائق العلمية ؛ فإنّ خلفاء بني العباس قد حرصوا على إدخال نظام الإمتحانات و إعطاء الإجازات بعد إكتشاف الخبرة في مخالطة المرضى في المستشفيات و مقارنة ما تَلَقَّونه نظرياً بما يُشاهدونه علمياً . و كان الطبيب لا يُصرّح له بمزاولة مهنة الطبّ إلاّ بعد اجتيازه لإمتحان التخصّص في الفرع الذي يختاره ؛ بحيث لا يخرج عن نطاق حدوده البتّه و حصوله على شهادة رسمية تعترف بعلمه و كفاءته . و للوقوف على مدى جدّية التعليم الطيّب و الحرص على رفع مستوى المتخرّجين ؛ تُورد على سبيل المثال نصّ شهادة حَصَلَ عليها طبيب عربي مختصّ بالجراحة الصغيرة فيمالي : "

... بسم الله الرحمن الرحيم ؛ بإذن البارئ العظيم ؛ نَسَمَحُ له بممارسة فنّ الجراحة لما يعلمه حقّ العلم و يُتقنه حقّ

(¹) غالب : هو طبيب المعتضد ؛ اشتهر بخدمته للمعتضد بالله ، و كان أولاً في خدمة الموفق طلحة بن المتوكل ؛ كما أوضحت زوجته أولاد المتوكل كلّهم . السامرائي : المرجع السابق ، ص. 329 .

(²) نفسه.

(³) توماس أربولوند و آخرون : المرجع السابق ، ص. 740 .

الإتقان ؛ حتى يبقى ناجحاً و مؤقفاً في عمله ؛ و بناءً على ذلك فإن بإمكانه معالجة الجروح حتى تشفى و بفتح الشرايين و استئصال البواسر ، و قلع الأسنان و تطهير الأطفال ... (1) .

و لا يفوت الزاوي في كتابه " المرشد " أن يلقي الضوء على أسس المعرفة بعلم الطب ، فيقارن في إيجازٍ بديع بين القياس و التجربة بقوله : " ... لا يكفي في أحكام صناعة الطب قراءة كتبها ؛ بل يحتاج مع ذلك مزاوله المرضى إلا أن من قرأ الكتب ثم زاول علاج المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيراً ، و من زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب يفوته و يذهب عنه دلائل كثيرة و لا يشعر به البتة ، و لا يمكن أن يلحق بها مقدار عمره ، و لو كان أكثر الناس مزاولاً للمرضى ... (2) ؛ كما يقول الله عزّ و جلّ : ﴿ وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (3) .

و كان الأطباء يخضعون لرقابة الدولة وفقاً للإئحة تُنظّم أسلوب تعاملهم مع الجماهير ؛ فكان المحتسب يُلزّمهم بقسم بقراط (4) الذي يأخذه على سائرهم ؛ إذ يُخلفهم ألا يُعطوا أحداً دواءً مضراً ، و لا يُركّبوا له سمّاً ، و لا يصفوا التمام عند أحدٍ من العامة ، و لا يذكروا للنساء الدواء الذي يُسقط الأجنّة و للرجال الدواء الذي يقطع

(1) أحمد فؤاد باشا : التراث العلمي للحضارة الإسلامية و مكانته في تاريخ العلم و الحضارة ، دار المعارف 1403 هـ / 1983 م ، ط 1 ص 175 .

(2) الزاوي : كتاب المرشد ، ص. 125 .

(3) الآية 46 من سورة يس .

(4) قَسَمَ بقراط : يُنسبُ إلى الطبيب و الفيلسوف اليوناني المشهور " بقراط " ، و ينصّ على : " ... إني أقسم بالله ربّ الحياة و الموت ، و واهب الصحة ، و خالق الشفاء و كلّ علاج ، و أقسم بأولياء الله من الرجال و النساء جميعاً ، و أشهدهم جميعاً على أيّ آني بهذه اليمين و هذا الشرط و أرى أنّ المعلم لي هذه الصنعة بمنزلة آبائي ، و أواسيه في معاشي ، و إذا احتاج إلى مالٍ واسئته و واصئته من مالي ... " . ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص. 45 .

التَّسَلُّ (1) ، و يُحَرِّصُوا عَلَى غَضِّ أَبْصَارِهِمْ عَنِ الْحَارِمِ عِنْدَ دُخُولِهِمْ عِنْدَ الْمَرْضَى ، و عَدَمَ إِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ (2) .
 كما كان المحتسب يحرص على التأكد من حيازتهم الآلات المفروضة لصناعتهم (3) ، و إحتيازهم الإمتحانات
 المفروضة عليهم ، و على ألا يُسَلِّمُوا آلَاتِهِمْ إِلَى الدَّجَالِينَ غَيْرِ الْمُرْتَحِّصِينَ (4) .

أما من حيث واجبات الأطباء ؛ فقد تفوَّقَ العرب في رسم تقاليد تضمن آدائهم لهذه الواجبات على خير وجه
 و تضمن للمجتمع محاسبتهم إذا أخطأوا عن جهلٍ فاضحٍ أو عمدٍ ، و لعلَّ أوَّلَ صورةٍ لذلك ؛ ما جاء في الحديث
 الشريف من تحديد مسؤولية الطبيب في قوله صلَّ الله عليه و سلَّم : { مَنْ تَطَبَّبَ و لم يَعْرِفْ عَنْهُ طَبَّ فَهُوَ
 ضَامِنٌ } (5) ؛ أي أنَّه مسؤول عن عمله محاسب عليه .

أما الكخَّالون ؛ فقد كان المحتسب يمتحنهم بكتاب (العشر مقالات) لحنين بن إسحاق ؛ ليطلِّعَ على مدى
 معرفتهم بأمراض العين و طُرُقِ مُدَاوَاتِهَا و تشريحها ، و خِبْرَتِهِمْ بِتَرْكِيْبِ الْأَكْحَالِ و أمزجة العقاقير (6) . و في هذا
 هذا الشَّانِ ؛ رَفَضَ " الرَّازِي " نفسه أن تُجْرَى لَهُ عَمَلِيَّةٌ جِرَاحِيَّةٌ فِي عَيْنِيهِ ؛ عِنْدَمَا فَقَدَ بَصَرَهُ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ ؛ و
 ذلك لِأَنَّهُ سَأَلَ الْجِرَاحِ قَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ فِي عَمَلِيَّتِهِ عَن عِدَدِ طَبَقَاتِ أَنْسِجَةِ الْعَيْنِ ؛ فَلَمَّا أَضْطَرَبَ الطَّبِيبُ وَ صَمَتَ
 قَالَ لَهُ الرَّازِي : " ... إِنَّ مِنْ يَجْهَلُ جَوَابَ هَذَا السُّؤَالِ عَلَيْهِ أَلَّا يَمْسُكَ بِأَيَّةِ آلَةٍ يَعْبَثُ بِهَا فِي عَيْنِي ... " (7) .

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 98 .

(2) ابن الأخرىة : المصدر السابق ، ص. 256 .

(3) انظر الملحق رقم 15 ص. 202 ، 203 .

(4) أحمد فؤاد باشا : المرجع السابق ، ص. 177 .

(5) أبو داوود : المصدر السابق ، ج 4 ، ص. 195 .

(6) ابن الأخرىة : المصدر السابق ، ص. 257 .

(7) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 135 .

أما المجبرون ؛ فقد كان المحتسب يُلزمهم بمعرفة المقالة السادسة من كتاب "بولص" في الجبر ، و يمتحنهم في عدد عظام الآدمي . و هو مائتان و ثمانية و أربعون عظماً . و صورة كلِّ عظمٍ منها ، و شكَّله و قدره ؛ ليتأكد من مدى قدرة المجبر على ردِّ العظم إلى موضعه في حال إنكساره أو إخلاعه (1) .

ب . الحسبة على الفصّادين :

تُعتبر مهنة الفصد إحدى المهن التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمهنة الطب ؛ لذا كان لزاماً على المحتسب أي يفرض رقابته على ممارسيها ؛ انطلاقاً من امتحانهم ؛ مروراً بالوسائل و الأدوية التي يعتمدون عليها ؛ وصولاً إلى تعاملهم مع مرضاهم . و في هذا الصدد ؛ كان المحتسب لا يسمح بممارسة هذه المهنة إلا لمن كان له إطلاعٌ و درايةٌ بتشريح الأعضاء و العروق و العَضَل و الشرايين ، و الإحاطة بمعرفة كيفية تركيبها (2) ، لأنَّ أيَّ خطأٍ بسيطٍ أو سوء تقديرٍ يُؤدِّي إلى ما لا يُحمد عقباه ؛ و هُوَ ما حَدَثَ في كثيرٍ من الأحيان و لا يزال يحدث في زماننا ؛ بالرغم من التقدم التكنولوجي الذي يعرفه الطب الحديث . و لتفادي مثل هذه الأخطاء ؛ وَضَعَ المحتسب شروطاً لمزاولة هذه المهنة ؛ كأن يتعلَّم عملية الفصد في عروق و رِق ؛ حتَّى تستقيم يَدُهُ ، و تكتسب أصابعه المهارة الفائقة قبل الشروع في فصد عروق الإنسان . و حرصاً من المحتسب على أن تظلَّ أصابع الفصّاد تتمتع بكامل المهارة في إجراء عملية الفصد ؛ كان يُؤكِّد على ضرورة أن تكون يَدَاهُ ناعمتان ؛ تُساعدانه على تحديد العروق و نَبْشِهَا ؛ لذا كان يُمنع على أصحاب هذه المهنة ممارسة مهنةٍ أخرى شاقّة ؛ يُمكن أن تُكسِبَ أنامله صلابةً تعوق عمله (3) .

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص . 101 ؛ ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص . 258 .

(2) الشيرزي : المصدر نفسه : ص . 89 ؛ ابن بستم ؛ محمد بن أحمد المحتسب : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق : حسام الدين السامرائي مطبعة المعارف ، بغداد 1968 م ، ص . 110 .

(3) الشيرزي : المصدر نفسه ، ص . 89 ؛ ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص . 247 ؛ ابن بستم : المصدر نفسه ، ص . 110 .

إضافةً إلى كلِّ هذا ؛ و لما كانت عملية الفصد تحتاج إلى دقَّةٍ عاليةٍ ؛ فقد كان المحتسب يشترط على الفاصد ممارسة عمَلِهِ في مكانٍ مُضَيِّعٍ ، و الحرص على أن يظلَّ بَصَرُهُ قوياً ؛ لذا كان يُلزمُهُ بالإستعانة بالأكحال القويَّة إن اقتضى الأمر ؛ حتَّى يستمرَّ بَصَرُهُ قوياً سليماً ؛ مُطلَّعاً على المواضع الدقيقة في جسم الإنسان . كما كان يمنع أصحاب هذه المهنة من فصد الصبيان إلَّا بإذنٍ وِليِّهم ، و لا النَّساء الحوامل و لا من كانت طامثاً⁽¹⁾ ، و يُلزمُهُم بالتنسيق مع الأطباء و مشاوَرَتِهِم في بعض الحالات قبل الشروع في الفصد ؛ كَفصد الأطفال و الشيوخ ، و ذوو الأبدان السَّمينة و المخلخلة ، و الأبدان الصفر ، و الأبدان التي طالت بها الأمراض ، و عند الوجع الشديد و غيرها من الحالات التي ينبغي للفاصد أن يسأل عنها⁽²⁾ . و هناك حالاتٌ أخرى تُمنع فيها عملية الفصد ؛ لما ينتج عنها من ضررٍ على المريض ؛ كالفصد عَقَبَ الجماع ، و بعد الاستحمام ، و في حال إمتلاء المعدة ، و في حالة شدَّة الحرِّ و البرد .⁽³⁾

و فيما يتعلَّق بالعروق في حدِّ ذاتها ؛ فإنَّ المحتسب كان يمتحن الفصَّادين بمعرفتها ، و ما يُجاوِزها من العضل و الشرايين ، و ما أدهشني من خلال إطلاعي لِكُتُب الحسبة هو أنَّ المحتسب كان يعرف جميع أنواع العروق و كيفية التعامل معها ؛ و كأنَّك أمام طبيبٍ محترفٍ من الوقت الحالي ؛ و هو ما أشارت إليه كتب الحسبة ؛ التي شرَّحت بالتفصيل أنواع العروق الموجودة في جسم الإنسان⁽⁴⁾ ؛ و التي ينبغي للفاصد أن يعرفها ؛ منها عروق الرُّأس

(1) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 247 ؛ ابن بسَّام : المصدر السابق ، ص. 111 .

(2) ابن الأخوة : المصدر نفسه ، ص. 248 ؛ ابن بسَّام : المصدر نفسه ، ص. 111 ؛

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 90 .

(4) لمزيدٍ من التفصيل ؛ انظر الملحق رقم 16 ، ص. 203 .

و عروق اليدين و الرجلين و عروق البدن ؛ بل إنّ المحتسب كان يُحلفهم بعدم فصد العرقان الموجودان خلف الأذن ؛ لأنّ ذلك قد يُؤدّي إلى قطع النّسل ؛ و هو ما يتنافى مع تعاليم ديننا الحنيف . (1)

أمّا فيما يخصّ الوسائل التي ينبغي للفاصد أن يستعين بها فهي كثيرة ؛ منها المباحض المختلفة و الآلات الضرورية النظيفة ، و كبة من حرير و نافحة مسك و بعض المواد المنبّهة ؛ يستعملها من باب الإحتياط ؛ خاصة في حالة تعرّض المريض إلى الغثيان و القيء و الإغماء . و في حالة حدوث نزيف دمويّ حادّ من عرق أو شريانٍ كان الفصّاد يستعين بوبر الأرنب و دواء الكندر ؛ الذي كان يُستعمل كمرهم . (2)

ج . الحسبة على الصيادلة :

تعتبر الصيدلة من الاختصاصات التي أبداع فيها الأطباء المسلمون ، و كان يُطلق عليها إسم " الأقراباذين " (3) و قد كانت في بداية أمرها تابعة لعلم الطبّ ، مُلحقةً به ، حين جمع الطبيب بين الطبّ و الصيدلة ، فكان يفحص مرضاه و يستمع إليهم ، ثمّ بصف لهم العلاج النّاجع و الدّواء الشّافي ، و يقبض ثمنه ، مُستعيناً بأعوانٍ يُساعدونه في جمع و تحضير الأعشاب الطبيعية و العقاقير و المواد الطّبيّة (4) ، و نظراً لكثرة العقاقير ، و تشعب طرق تركيبها كان من الضّروري التفرّغ لها ، و البحث عن الأعشاب الطبيعية في كلّ مكانٍ ، و زاد ذلك أنفة بعض الأطباء عن قبض ثمن الدّواء ، و هو ما أدّى إلى انفصال الصيدلة عن الطبّ ، فأضحت تُمثّل علماً قائماً بذاته .

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص . 93 .

(2) المصدر نفسه ، ص . 91 .

(3) الأقراباذين : لفظ يوناني ، معناه " التركيب " ؛ أي تركيب الأدوية المفردة ، و تصنيفها . حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله القسنطيني الرومي : كشف الظنون في أسامي الكتب و الفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1413 / 1992 ، ج 1 ، ص . 136 .

(4) إبراهيم بن مراد : بحوث في تاريخ الطبّ و الصيدلة عند العرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1991 ، ص . 247 ؛ حنيفة الخطيب :

الطبّ عند العرب ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت 1988 ، ص . 221 ؛ محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع السابق ؛ ص . 324 ؛ علي

شلق : المرجع السابق ، ص . 122 ؛

يعتبر الطبيب المسلم أول من أسس الصيدلة ، و فصلها عن علم الطب⁽¹⁾ ، و أنشأ المدارس لتعليمها و الحوانيت لبيع الأعشاب و العقاقير ، فافتتح المسلمون بذلك الصيدليات العامة في عهد الخليفة العباسي المنصور و أحقوها بالبيمارستانات ، و أنشؤوا صيدليات خاصة بميادين القتال ، كانت تصحب البيمارستانات المحمولة المتنقلة ، و جعلوا على كل الصيدالدة نقيباً يُسمى " رئيس العشابين " حتى يتسنى مراقبتهم ؛ عريفاً ذو ثقة ؛ خبيراً بمهنتهم ؛ بصيراً بغشوشهم ، لأنّ العقاقير كما قال ابن بسّام : " ... العقاقير ثلاثة آلاف عقار و لها أشباه و أمثلة تُدانيها و تُقاربها في الصورة ، و تُنافيها و تبعد عنها في المزاج و المنفعة ... " (2) ، كما أخضعوا هذه الصناعة لنظام الحسبة ، ليحولوا دون غشّ الدواء ، و منذ أيام المأمون ؛ و من بعده المعتصم إنتظم أمر الصيدليات ، و اتسع نطاقها ، و عمّ نفعها على الناس ؛ خاصة بعد أن أمر المأمون بإجراء امتحانٍ للصيدالدة⁽³⁾ ، و قرّر المعتصم بعده أن تُعطى للصيدلي رُخصةً تُثبت جدارته و إنسايه ، فأضحت الصيدلة خاضعةً لنظام الحسبة ، لتفادي الغشّ الذي إنتشر في صناعة الطبّ و هو ما أشار إليه " الشيرزي " و " ابن بسّام " و غيرها من ألفوا كتباً حول نظام الحسبة ؛ و ما أدهشني أنّ هؤلاء كان لهم علم و دراية بأدقّ التفاصيل عن أساليب الغشّ التي مسّت الأدوية و العقاقير و طرق كشفها من طرف المحتسب ؛ إستناداً إلى شكلها أو لونها أو مذاقها ؛ بلّ إنهم أعرضوا عن ذكر الكثير منها خشية أن يتعلّمها الغشاشون ؛ و في هذا الشأن يقول ابن بسّام " ... و قد أعرضتُ عن أشياء كثيرة في هذا الباب لم أذكرها لخفيّ غشّها ، و لإمتزاجها بالعقاقير ؛ مخافة أن يتعلّمها ممّن لا دين له ؛ فيُدلس بها على المسلمين ... و أمسكتُ عن أشياء غير مشهورة ؛ قد ذكرها صاحب كتاب **كيمياء العطر** ؛ فرحم الله من وقّع في

Madleine Michaux : **op . cit** , P 189 .

(1) (الملا ، أحمد عليّ : أثر العلماء المسلمون في الحضارة الأوربية ، ط 2 ، دار الفكر ، 1401 هـ / 1981 م ، ص. 141 .

(2) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 85 .

(3) أحمد عيسى بك : المرجع السابق ، ص. 49 .

يده ذلك الكتاب فَمَزَقَهُ و حَرَفَهُ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ ... (1) . و نظرًا لأهمية الأدوية و العقاقير و أثرها الإيجابي أو السلبي على صحّة الإنسان ؛ إعتبرها المختصّون أضرّ على الخلق من غيرها ؛ و هو ما أشار " الشيرزي " حين قال : " ...تدليس هذا الباب و الذي بعده كثير ، لا يمكن حصر معرفته على التمام ؛ فَرَحِمَ اللَّهُ من نظر فيه و عَرَفَ إستخراج غشوشه ؛ فهي أضرّ على الخلق من غيرها ؛ لأنّ العقاقير و الأشربة مختلفة الطبائع و الأمزجة ، و التداوي على قدر أمزجتها ؛ فمنها ما يصلح لمرضى ، فإذا أُضيفَ إليها غيرها أحرَفَها عن مزاجها فَأَضْرَتَ بالمريض لا محالة ... (2) ، و بالتالي كان من الواجب على المحتسب مراقبة عمل الصيادلة و تخويفهم و تعزيزهم . إضافةً إلى كلّ هذا فقد أُستُحدثَ منصبٌ جديدٌ هو : " رئيس العشّابين " ، لمراقبة نشاط الصيادلة إلى جانب المحتسب (3) .

لقد أسهم الأطباء المسلمون في العصر العباسي إسهاماتٍ كثيرةٍ في علم الصيدلة ، نكتفي بذكر البعض منها مثال ذلك ما أنجزه الطبيب الكبير " الرازي " ، الذي يُعتبر أوّل من قال باستقلال الصيدلة عن الطبّ (4) ، و قد ترك لنا هذا الطبيب آراءً هامةً في مُصنّفاته و كُتبه في ميدان الصيدلة ، فكان يُلحّ دائماً على ضرورة الإهتمام الشديد بالتجربة ، كما كان يرى أنّ جهل الطبيب بمعرفة العقاقير لا يحول دون ممارسة الطبّ ، و ذلك في قوله في إمتحان المرشّح لأن يكون طبيباً : " ... أمّا إمتحانه بمعرفة العقاقير ، فأرى أنّها محنة ضعيفة ، ذلك أنّ هذه الصناعة هي بالصيدلاني أولى منها بالطبيب المعالج ، إلّا أنّ تقتصر معرفته بالكثير ... الإستعمال منها يدلّ على قلة علمه

(1) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص . 92 .

(2) الشيرزي : المصدر السابق ، ص . 42 .

(3) علي شلق : المرجع السابق ، ص . 123 ؛ مؤيّد عيدان كاطع ألّهبي : المرجع السابق ، ص . 25 ؛ محمد فؤاد الذاكري : " الصناعة الطيّبة في بلاد الشام " ، مجلّة : آفاق الثقافة و التراث ، العدد 40 ، سؤال 1423 هـ / يناير 2003 ، ص . 168 .

(4) علي شلق : المرجع نفسه ، ص . 123 .

و مُزاولته ، فأما المطالبة بمعرفة الغريب النادر منها ، و الفرق بين الجيد و الرديء منها ، فليس ذلك خاصاً بصناعته ، و يمكن أن يكون طبيياً فاضلاً ، مُقتصراً على كثيرٍ من العقاقير ... " (1) .

و بهذا ظهرت الصيدلة كمهنةٍ منفصلةٍ عن الطبِّ ، و فتحت الصيدليات تُحصِّر الوصفات الطبيّة ، و يُقسم الصيدالة على أن يكونوا أمناء في تحضير العقاقير بدقّة ، و حدّدت الدولة أثمان العقاقير ، و وضعت رقابة شديدة عليها ؛ فإذا خالفَ الصيدلي أو الرقيب الذي يقوم بالتفتيش عليه تلك القوانين و ارتكب أيّ غشٍّ في أنواع العقاقير عُوقِبَ بعقوبات قاسية قد تصلُّ إلى الإعدام و ذلك لحماية عامة النَّاس . و لم يقف تنظيم الطبِّ و الصيدلة عند العرب إلى هذا الحدِّ ؛ فقد فرضوا على الأطباء أن يكتبوا مي يصفوا للمريض من أدوية على ورقة خاصة كانت تُسمّى بأسماء مختلفة (التذكرة ، الصفة ، النسخة .. إلخ) و سُمّيت أخيراً " الوصفية الطبيّة " (2)

و ما يمكن قوله في الأخير هو أنّه نظراً لأهميّة مهنة الصيدلة و تعلقها بحياة النَّاس ؛ فقد نظمت عملية الحسبة على الصيادلة بما يضمن أن يرقبوا الله في ذلك ، و للمحتسب أن يُفطنهم و يُخوفهم بالعقوبة و التعزير و الضرب على أيديهم إذا خالفوا أصول المهنة ، و أضافوا إلى عقاقيرهم ما يُفسدها و يُخرجها على خواصها الطبيعية و العلاجية (3) . و من هنا يتبيّن لنا أنّ المحتسب قد لعب دوراً مهمّاً في الرقابة على الصيادلة و الإشراف عليهم ؛ من أجل منع حالات الغشِّ في صناعة الأدوية التي إنتشرت بين الصيادلة ، و كان أكثر الخوف يأتي على صحّة المرضى من الصيادلة الذين يعملون لحسابهم و يفتحون حوانيت لبيع الأدوية و الأعشاب ؛ فهؤلاء همهم الأوّل هو التكتسب و ليس صحّة المرضى ، و هذا يتّضح من الموقف الذي حدّث بين " ابن النفيس و أحد

(1) الرازي : نقلاً عن جلال محمد عبد الحميد موسى : منهج البحث العلمي عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، القاهرة 1988 ، ص. 245 .

(2) الملأ ؛ أحمد عليّ : المرجع السابق ، ص. 142 .

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 42 ؛ ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 85 .

العشّابين عندما قال له : " ... و أمّا إذا قعدت عندي فلا تصِفَ إلاّ السّكر و الشّراب و الأدوية ... " (1) ؛ أي أنّه لا يُجَبَدُ العلاج الموصوف من العشّابين ، و أن يكون العلاج حسب إرشادات الطبيب .

د . الحسبة على البيطرة :

لم يقتصر حرص المحتسب على حفظ صحّة البشر فحسب ؛ و إنّما تعدّاه ليشمل حتّى الحيوان ؛ و هذا ردُّ صريحٌ على أولئك الذين يتّهمون ديننا الحنيف بالتعدّي على حقوق الحيوان ؛ كلّما احتفل المسلمون بعيد الأضحى المبارك ، فعلى غرار الأطباء و الصيادلة و الفصّادين و الحجّامين ؛ كان نشاط البيطرة يخضع لمراقبة و إشراف المحتسب ؛ الذي كان يشترط على البيطار أن يكونَ خبيراً بعلل الدواب (2) ؛ عريفاً بما يحدث فيها من عيوب بل إنّ أغلب من كتّب في موضوع الحسبة اعتبر علاج الحيوان أصعب بكثيرٍ من الآدميين ؛ باعتبار أنّ الدّواب لا تستطيع أن تُعبّر عن مَرَضِها و ألمها ، و أيّ سوء تقديرٍ يؤدّي إلى هلاكِها (3) ؛ و هو ما أشار إليه " ابن بسّام " حين قال : " ... البيطرة علمٌ حليلٌ ، و هي أصعب علاجاً من الآدميين ؛ لأنّ الدّواب ليس لها نُطقٌ تُعبّر به عمّا تجد من المرض و الألم ؛ فيفتقر البيطار إلى علل الدّواب و علاجها ؛ فلا يتعاطى البيطرة إلاّ من له دينٌ يصدّه عن التهجّم على الدّواب بفصدٍ أو قطعٍ أو كيٍّ ، و ما أشبه ذلك بغير مخبّرة ؛ فيؤدّي إلى هلاك الدّابة أو عَطَبِها ... " (4) . و قد ذكرت لنا كتب الحسبة أيضاً بعض طرق علاج الدّواب من عللهم ؛ على غرار علاج

(1) الملاء ؛ أحمد عليّ : المرجع السابق ، ص. 142 .

(2) ذكّر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أنّ علل الدّواب ثلاثمائة و عشرون علّة ؛ منها الخنّاق ، و الخنّان الرطبّ و الخنّان اليابس و الجنون ، و فساد الدّماغ ، و الصّداع ، و الحُمُر ، و التّفحّة ، و الورمُ ، و المُرّة الهائجة ، و الحُشامُ ، و وجع الكبد ، و وجع القلب ، و الدّود في البطن ، و المغسّ و الصّداع ، و السعال البارد ، و السعال الحار ، و غُسر البؤل ، و الماء الحادث في العين ، و غير ذلك ممّا يطول شرحه . ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 122 .

(3) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 234 .

(4) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 124 .

الحوافر ؛ إذ كان يُلزم البيطار على الملاحظة و التشخيص الجيّد للحافر قبل الشروع في التقليم ، بل كان حريصاً أيضاً على شكل و طول المسامير إستناداً إلى وضعية الحافر ؛ بعرض الحصول على اعتداله ؛ مع الحرص على عدم المبالغة في نسف الحافر فتؤذى الدابة ، أو تُرخى المسامير فيتحرّك النعل و يدخل تحته الرّمْل و الحصى ، كما كان يعتبر أنّ النعال المُطوّقة ألزّم للحافر ، و اللينة أثبتت للمسامير الصلابة ، و المسامير الدقيقة خيرٌ من الغليظة (1) .

إضافةً إلى كلّ هذا فإنّ المحتسب كان يُراقب البيطار في علاجه للدّواب التي تحتاج إلى فتح عروقها ؛ و في هذا الشأن يقول الشيرزي : " ... و إذا احتاجت الدابة إلى فتح عرقٍ ؛ أخذ البيطار الموضع ، و أخرج من رأسه نصف ظفرٍ ، ثمّ فتح العرق بخفةٍ و رفقٍ ، و لا يضرب العرق حتّى يجسّهُ بإصبعه ؛ سيماً عروق الأوداج ، فإنّها خطيرةٌ لمجاورتها المريء ، فإن أراد أن يفتح شيئاً من العروق خنق الدابة خنقاً شديداً ؛ حتّى تبدو العروق ؛ فيمتكّن حينئذٍ ممّا أراد ... " (2)

ثانياً : الحسبة على صانعي الأطعمة و الأشرية :

أ . الحسبة على الدقّاقين :

و لأنّ صحّة الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالغذاء الذي يتناوله ؛ كان على المحتسب أن يضع ضوابط و شروط على صانعيه و بائعيه ، و باعتبار أنّ غذاء الإنسان يعتمد بالدرجة الأولى على الدقيق ؛ أولى المحتسب أهمية كبيرة لمراقبة الدقّاقين ؛ ذلك أنّه كان يُلزمهم بغرلة القمح أو الشعير من التراب و تنقية الغلّة من الزوان (3) و تنظيفها من الغبار قبل طحنها ؛ مع ضرورة رشّ الحنطة بالماء عند طحنها لأنّ ذلك يكسو الدقيق بياضاً و جودةً ؛ و ذلك تجنّباً لخلطها بالشعير أو الحمص ، إضافةً إلى هذا حرصَ المحتسب على منع الدقّاقين من إحتكار الغلّة ، و خلط

(1) ابن الأحوّة : المصدر السابق ، ص. 234 .

(2) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 82 .

(3) الزوان : الزوان حبّ صغيرٌ مستطيلٌ أحمر مثل سوس الحنطة ؛ يجعل الطعام مرّاً . الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 36 .

رديء الخنطة بجيِّدها ، و لا عتيقها بجديدها (¹) ؛ مع إلزامهم بغسلها ثمَّ تخفيفها تخفيفاً بليعاً ، ثمَّ بيعها منفردة ، و يقول الشيرزي في هذا الشأن : " ... يُجرم عليهم إحتكار الغلّة ، و لا يخلطون رديء الخنطة بجيِّدها ، و لا عتيقها بجديدها ؛ فإنّه تدليس على النَّاس ... فإنّهم ربّما خلطوا فيه دقيق الشعير المنخول أو دقيق الحمص أو نحو ذلك أو ما هو مطحون على رحي منقورة أو ما خالطه زوان أو غبار الطاحون ؛ فإن إرتاب بهم خلّفهم أن لا يعملوا شيئاً من ذلك ... " (²) .

ب . الحسبة على الخبّازين :

يُعتبر الخبز الغذاء الأساسي للإنسان ؛ لذلك وَضَعَ المحتسب معايير و شروطاً صارمةً على أصحاب هذه الصنعة ؛ تَضْمَن صحّة النَّاس و تدفّع عنهم الضرر ؛ ذلك أنّه كان يشترط عليه سقائف حوانيتهم و فتح أبوابها و جعل منافذ واسعة يخرج منها الدّخان المنبعث من الأفران ، و إصلاح المداخن ، و تنظيف الفرن كلّ ساعة من اللّباب المحترق و الشرر المتطاير و الرّماد المتناثر ؛ لئلا يلصق في أسفل الخبز منه شيء ، كما كان يُلزمهم بمسح التّنور بخرقة نظيفة قبل الشروع في الخبز ؛ و هو ما أشار إليه الشيرزي في كتابه ؛ حين يقول : " ... ينبغي أن تُرفع سقائف حوانيتهم و تُفتح أبوابها ، و يُجعل في سقوف الأفران مَنَافس واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرّر بذلك النَّاس ، و إذا فرغ الخبّاز من إحمائه ؛ مَسَحَ داخل التّنور بخرقة نظيفة ، ثمَّ شرّع في الخبز ... " (³) .

لقد حرصَ المحتسب أشدّ الحرص على نظافة و غسل أوعية الماء و المعاجن و ما يُحمّل عليه ، و منع العجن بالقدمين أو الرّكبتين أو المرفقين ، و تجنّب كلّ ما من شأنه أن يخلط بالمعجن و يُضّر بصحّة النَّاس كالشّعور و العرق و الذباب و البصاق ؛ و في هذا الصدد يقول ابن بسّام : " ... و يأمرهم بنظافة أوعية الماء و غسل المعاجن

(¹) ابن الأحوّة : المصدر السابق ، ص . 125 .

(²) الشيرزي : المصدر السابق ، ص . 22 .

(³) الشيرزي : المصدر نفسه ، ص . 21 .

و نظافتها ، و ما يُغَطَّى به الخبز ، و ما يُحْمَل عليه ، و لا يعجن العجّان بقدميه و لا بِرُكْبَتَيْهِ و لا بمرفقيه ؛ لأنّ في ذلك مهانة للطعام ، و زُيْمًا فَطَرَ في العجين شيئاً من عَرَقٍ إِنْطَه و بدنه ؛ فلا يعجن إلاّ و عليه مُلْعَبَةٌ أو مشتّ مقطوع الأكام ... (1) ، ثمّ يُضَيَّف قائلًا : " ... و يكون مُلْتَمًا ؛ لأنّه إذا عَطَسَ أو تكلمَ فَفَطَرَ شيئاً من بُصاقه في العجين ، و يشدّ على جَبِينِهِ عَصَابَةً بيضاء لِئَلَّا يعرق فيقطر منه شيئاً في العجين ، و يحلق شعر ذراعيه لِئَلَّا يسقط منه شيئاً في العجين ، و إذا عَجَنَ في النَّهار فليكن في يَدِهِ مَذْبُتَةٌ يطرد عنه الذباب ... (2) . أما إذا كَثُرَت عند الخباز أطباق العجين ؛ وَجَبَ عليه إخراج خبز كلِّ واحدٍ بعلامةٍ يتميِّز بها عن غيره لِئَلَّا يختلط الجميع فلا يُعرَف عند النَّاس .

أما صنّاع الزلايية فقد كان المحتسب يُلزمهم بقلبيها في مقلَى من النَّحاس الأحمر الجيّد ، و إتباع خطوات من شأنها ضمان صحّة المستهلك و دفع الضرر عنه ؛ و هو ما أشار إليه " الشيرزي " قائلًا : " ... ينبغي أن يكون مقلَى الزلايية من النَّحاس الأحمر الجيّد ؛ فأول ما يُحَرَّق فيه التّخالة ، ثمّ يُدَلِّكه بورك الصلّق إذا بُرِدَ ثمّ يُعاد إلى النَّار و يُجَعَل فيه قليل من عسلٍ ، و يوقد عليه حتّى يحترق العسل ، ثمّ يُجلى بعد ذلك بمدقوق الخنزف ثمّ يُغسل و يُستعمل ؛ فإنّه يُنقى من وَسَخِهِ ... (3)

ج. الرّقابة و الإشراف على الجزّارين و القصابين .

أما الجزّارين و القصابين ؛ فقد كان المحتسب يحرص أشدّ الحرص على أن تكون الدّبيحة سليمةً من أيّ مرضٍ قد يُضرّر بصحّة المستهلك . و إنطلاقاً من سلطاته الواسعة في الرّقابة و الإشراف على الجزّارين و القصابين و حفاظاً منه على الصحة العامة ؛ فقد كان يستعين بعريفٍ منهم يكون بصيراً بغشوشهم المختلفة ؛ فكان هذا

(1) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص . 21 .

(2) المصدر نفسه ، ص 22 .

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص . 25 .

العريف يأمر الجزّارين بعدم ذبح دوابهم على أبواب حوانيتهم لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث الطريق بالدمّ و الرّوث فيؤذي النّاس و يُضّر بهم ، كما كان هذا العريف يمنعهم من ذبح الحيوانات المريضة لأنّ لحومها ضارّة بصحة الإنسان (1) و حتّى يأمن النّاس على صحتهم و سلامتهم عند تناول اللّحوم ؛ فكان يُشترط فيمن يقوم بعملية الذّبح من الجزّارين الإلتزام بالأحكام الشرعية في الذّبح ؛ كالتكبير و إستقبال القبلة (2) ، و نحر الإبل معقولةً و ذبح البقر و الغنم مضطجعة على الجنب الأيسر ، و تجنّب كلّ ما من شأنه أن يتسبّب في تعذيب الشاه كالذّبح بسكّين كآلةٍ ؛ و هو ما نهى عليه الرسول ثلّ الله عليه و سلّم ؛ و يقول الشيرزي في هذا الشّأن : " ... يُستحبُّ أن يكون الجزّار مسلماً بالغاً عاقلاً ؛ يذكر اسم الله على الذّبيحة و أن يستقبل القبلة ، و أن ينحر الإبل معقوفةً ، و يذبح البقر و الغنم مضطجة على الجنب الأيسر ... و لا يجزّ الشاة برجلها جرّاً عنيفاً ، و لا يذبح بسكّين كآلةٍ ... " (3) .

إضافةً إلى كلّ هذا ؛ كان المحتسب يُلزم الجزّار بقطع الوّدجين و المريء و الحلقوم ، و عدم الشروع في السّلخ حتّى تبرد الشاه و يخرج منها الروح ، كما نهى عن نفخ الشاة بعد السّلخ ؛ لأنّ نكهة الآدمي تُغيّر اللّحم و تُزوّده و منهم من يشقّ اللّحم من الصّفاقين ، و ينفخ فيه الماء ، و لهم أماكن يعرفونها في اللّحم ينفخون فيها الماء فيزاعيمهم المحتسب عند غيبة العريف ، و منهم من يُشهر في الأسواق البقر السّمان ، ثمّ يذبح غيرها و هذا تدليس (4) .

(1) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 161 .

(2) نفسه .

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 27 .

(4) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 163 .

أما القصابون (1) ؛ فكان يمنعهم المحتسب من إخراج اللحوم من حدّ مصاطب حوانيتهم ، بل تكون متمكّنة في الدخول عند حدّ المصطبة و الركنين ؛ لئلا تُلاصقها ثياب الناس فيتضرّرون بها . و يقول ابن الأخوة في هذا الشأن : " ... فيمنعهم المحتسب من الذبح على أبواب دكاكينهم ؛ فإنهم يُلوثون الطريق بالدم و الروث و هذا منكّرٌ يجب المنع منه ؛ فإنّ ذلك تضيقٌ للطريق و إضرارٌ بالناس بسبب ترشيش النجاسة ... و يمنعهم من إخراج اللحم عن حدّ مصاطب حوانيتهم ؛ بل تكون متمكّنة في الدخول على حدّ المصطبة لئلا تُلاصقهم ثياب الناس فيتضرّرون بها ... " (2) . كما كان المحتسب يأمرهم أن يُفردوا لحوم الماعز عن لحوم الضأن و لا يخلطوا بعضها ببعض ؛ و حتّى يتّضح ذلك ألزمهم أن يُنظفوا لحوم الماعز بالزعفران لتتميّز عن غيرها و يتركوا أذنان الماعز مُعلّقة على اللحوم حتّى آخر البيع (3) و مازالت هذه العادة موجودةً حتّى الآن ؛ يُحاول بها بعض الجزّارون و القصابون أن يُثبتوا بها مدى نزاهتهم و شرفهم و عدم غشّهم ؛ فهم بذلك يتركون ذنّب الحيوان المذبوح معلّقاً بلحمه حتّى نهاية البيع ليُتعرّف المشتري على نوع الدّبيحة . أمّا في حالة شكّ المحتسب في الحيوان ؛ إن كان قد ذبح ذبحاً شرعياً أو كان ميتة ؛ فكان يتحقّق من ذلك من خلال إلقاء الحيوان في الماء ؛ فإذا رسب فهو مذبوح ، و إن كان غير ذلك فهو ميتة (4) ، و يقول ابن الأخوة في هذا الصدد : " ... و إن شكّ المحتسب في الحيوان هل هو ميتة أو مذبوح ؟ إختبر بالماء ؛ فإن طَفَحَ فهو ميتة ، و إن رسب فهو حلال ، و إن لم يعلّق على الجمر فهو

(4) القصابون : مفردا قصاب و القصاب الجزّار ؛ يُقال : " قَصَبَ الجزّار الشاه قصباً " ؛ أي قَطَعَهَا قطعاً . أحمد مختار عمر : معجم اللّغة العربية

المعاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة 1429 هـ / 2008 م ، ط 1 ، المجلد 1 ، ص. 1819 .

(2) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 163 .

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 27 ؛ ابن الأخوة : المصدر نفسه ، ص. 163 .

(4) الشيرزي : المصدر نفسه ، ص. 29 .

ميتة ، و إن عَلَقَ فهو حلال ... و يعتبر على صيادي العصافير و سائر الطيور بما ذكرناه بالماء ؛ فإنَّ أَكْثَرَهُمْ لا دين لهم ؛ و ربّما إحتنقَ الطيرُ فباعوه مع المذبوح ... " (1) .

إضافةً إلى هذا ؛ كان المحتسب و معاونه حريصين على أن تكون الأدوات التي يستخدمها القصاب نظيفةً ؛ فكان يُشَدّد على القصاب إذا انتهى من البيع و قبل إنصرافه إلى بيته ؛ أن يضع ملحاً مسحوقاً على القرمية (2) حتى لا تلحقها الكلاب أو يدبّ عليها شيئاً من هوام الأرض ، و في حالة عدم وجود الملح كان عليه أن يستعمل الأشنان (3) حتى تظلّ القرمية نظيفةً غير ملوثة (4) .

د . الرقابة و الإشراف على الشوائب :

إنَّ حِرْصَ المحتسب على صحّة النَّاس و سلامتهم لم يقف عند حدّ مراقبة الجزّارين و القصابين فحسب ؛ بل تعدّاه ليشمل كلّ المهنة التي لها صلة بإستهلاك اللحوم ؛ و أخصّ بالذكر هنا الشوائب و الرؤاسين و النقائتين و ما أدهشني من خلال إطلاعي على كتب الحسبة هو قدرة المحتسب على كشف مختلف أنواع الغش التي تطال هذه المهنة ، و تشدّدِهِ الكبير حول مسألة النظافة .

فبالنسبة للشوائب ؛ فإنَّ نشاطهم كان تحت رقابة و إشراف المحتسب ؛ سواء تعلّق الأمر بجودة اللحم أو طريقة الشواء ، أو حتى الوسائل المستعملة لذلك ؛ إذ كان يُلزمهم باستعمال الطين الجيّد المعجون بالماء الطاهر في صناعة

(1) ابن الأخرىة : المصدر السابق ، ص. 164 .

(2) القرمية : هي قطعة من الخشب السميك ؛ يُقطع عليه اللحم . أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص. 1804 .

(3) الأشنان : نبات لا ورق له ، و أغصانه رقيقة ، و طعمه يميل إلى الملوحة ، يُستعمل لغسل الثياب . ابن الأخرىة : المصدر السابق ، ص. 164 ؛

ابن البيطار ، أبو محمّد عبد الله بن أحمد ضياء الدين (ت 647 هـ) : الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية ، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان)

1412 هـ / 1992 م ، ط 1 ، ج 1 ، ص. 13 .

(4) الشيرزي : المصدر السابق ، ص 28-29 .

التنانير ؛ لأنّ الكثير من الشوائب من كان يستعين بطينٍ أراضى حوانيتهم ؛ و هو بلا شكّ نجس لإحتلاله بالدمّ و المخلفات الأخرى ؛ فإذا اندثر منه شئى على الشواء نجسُهُ و جعله غير صالح .

إضافةً إلى هذا ؛ كان المحتسب حريصاً أشدّ الحرص على نظافة الحوانيت و الأواني المستعملة في الشواء ؛ خاصةً تلك المصنوعة من الرصاص و النحاس ؛ و في هذا الشأن كان يمنع وضع الشواء فيها و هو ساخن أو تغطيته عند إخراجها من التّنور . أما فيما يتعلّق بجودة اللحم ؛ فقد ذكّرت لنا كتب الحسبة بعض الأساليب التي كان يتبعها المحتسب في معرفة الجيّد و الرديئ من اللحم ، و التّاضج منه و غير التّاضج ، و كان سبيله إلى التّحقّق من ذلك هو جذب الشواء بسرعة ؛ فإذا جاءت فالشواء تاضج ، أو أن يشقّ الشواء ؛ فإذا ظهر فيه عروق حمراء و نزلّ منه الماء فهو نبيئ و غير تاضج ؛ كما كان يمنعهم من دهن اللحم بالعسل ؛ لأنّه إذا نزلّ في التّنور على هذا الحال فإنّه يحمّر بسرعة ؛ فيُحَيّل لمن يراها بأنّها ناضجة فيُقبل على شرائها .

هـ . الرقابة و الإشراف على الرؤاسين :

أما الرؤاسين ؛ فقد كان المحتسب يُلزمهم بغسل الرؤوس و الأكارع بالماء الشديد الحرارة ، ثمّ تنظيفها و تنقيتها من الشّعير و الصوف ، ثمّ غسلها من جديدٍ بالماء البارد التّظيف ، و يأمرهم بعدم إخراج الرؤوس من وعاء الطّهي إلّا بعد تنضج جيّداً ؛ كما كان يمنعهم من خلط الرؤوس البائتة مع الرؤوس الطازجة و يُلزمهم بعرض كلّ منها على حدى (1) .

و . الرقابة و الإشراف على التّقائمين و قلائي السمك :

و فيما يتعلّق بالتّقائمين ؛ و نظراً لكثرة غشّ أصحاب هذه المهنة ؛ فقد جعل المحتسب مواضعهم التي يعدّون فيها التّقائى بجوار دكّته التي يجلس عليها حتّى يتمكّن من مراقبتهم جيّداً ؛ إلى جانب العريف الذي كان يُساعده في مهامه ؛ و الذي كان يراقب و يُشرف على عمل التّقائمين ؛ إنطلاقاً من اختيار اللحم الجيّد ؛ مروراً بعملية

(1) لمزيد من التفصيل ؛ أنظر الملحق رقم 17 ، ص . 203 ، 204 .

الدقّ ثمّ القلي ؛ وصولاً إلى المستهلك . و في هذا الصدد ؛ كان المحتسب يُنبّه التّفائقيين بضرورة إختيار اللّحم الجيّد ، و نُعومة دقّه على القرم التّظيفة ، و أثناء هذه العملية ؛ كان يُلزمهم بالإستعانة بشخصٍ آخر يحمل مذبّة في يده يطرد بها الدّباب حتّى لا يسقط منه شيءٌ في اللّحم ، ثمّ تأتي مرحلة وضع البصل و التوابل على اللّحم ؛ و التي لا يُشرعُ فيها إلّا بحضور العريف ليتأكّد من نوعية اللّحم و المقدار المناسب منها بالوزن و جودّة التوابل ؛ لأنّ التوابل تُغيّر شكله فيخفى و لا يُمكن إكتشاف الغشّ الواقع فيه ، ثمّ تأتي مرحلة القليّ ؛ التي لا تتمّ إلّا بعد أن يتأكّد العريف من الدّهن الذي تُقلى به التّقائق ؛ إذ كان يُلزم أصحاب هذه المهنة باستعمال دهنٍ طيّبٍ غير مخزونٍ أو فاسدٍ ، و نشر التّقائق بتوابل طيّبة التّكهة .

و على غرار الشّوائين و التّفائقيين و الرّواسين ؛ فإنّ قلائي السمك لم يكونوا بمنأى عن مراقبة و إشراف المحتسب ؛ نظراً لكوّن السمك أحد الأطعمة الأكثر إستهلاكاً بين النّاس ، و أيّ إفراطٍ أو تقصيرٍ من طرف بائعيه و قلائيّه من شأنه أن يُضّر بصحة من يتناوله . و في هذا الشأن كان المحتسب يحرص على مراقبة أصحاب هذه المهنة ؛ من خلال إلزامهم بغسل موازينهم و قفافهم و أطباقهم التي يضعون فيها السمك ، و نشر الملح عليها كلّ ليلة ؛ لأنّهم إذا أهملوا في نظافتها تسبّبوا في فساد السمك الطازج إذا وُضِعَ فيها (1) ، و قبل الشروع في القلي ؛ كان يمنعهم من خلط السمك البائت بالسمك الطازج ، و يأمرهم بغسل السمك جيّداً و تنظيفه بعد شقّه ، ثمّ نثره بالملح و الدّقيق ، ثمّ يُترك فترةً ليخفّ ، ثمّ يُقلى بعد ذلك (2) ، و قد كان العريف المعاون للمحتسب يُشرف على عملية القلي كلّ ساعة ؛ حتّى لا يُضيف القلاؤون دهن شحم السمك إلى زيت القلي و يستخدموا زيت معاد غير

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 53 .

(2) الشيرزي : المصدر نفسه ، ص 33 ؛ ابن الأحوّة : المصدر السابق ، ص. 110 . 111 .

صالح (¹) . إضافة إلى هذا ؛ كان المحتسب ينهى قلائي السمك عن بل السمك بالماء عند القلي ؛ لأن ذلك يحول دون تمام نُضجِه ، أو إضافة العصفر (²) لدقيق القلي حتى يُعطي لوناً للسمك يوحى بنضجِه (³) .

ي . الرقابة و الإشراف على السمّانين :

السمّانون هم باعة السّمّن ؛ غير أنّه في العصور الوسطى كان السمّان يبيع الكثير من حاجيات البيوت ؛ فضلاً عن بيعه للسّمّن و غيره من المأكولات السائلة ؛ فغلبت عليه كلمة " السمّان " ، و نظراً لأهميّة هذه المأكولات و علاقتها بالصحة العامة و استهلاكها اليومي من طرف الناس ؛ فإنّ نشاط أصحاب هذه المهنة لم يكن بمنأى عن مراقبة و إشراف المحتسب ؛ إذ كانوا مُلزَمون بتنظيف ثيابهم ، و غسل أيديهم و مغارفهم و آنيتهم ، و مسح مكابيلهم و موازينهم (⁴) ؛ و وصل الأمر إلى أن يهتمّ المحتسب بطرق تخزين السلع و البضائع عند السمّانين فقد كان يُلزمهم بتخزين بضاعتهم في الأوعية و القفاف المحكّمة الغلق حتّى لا تُصيّبها الأتربة أو القاذورات أو الحشرات ، و إذا عَرَضوا للبيع كان عليهم أن يعهدوا إلى شخصٍ يحمل مذبة يطرد بها الذباب عن البضاعة (⁵) .

لقد كان المحتسب عليمًا بجلّ أنواع الغشّ التي كان يُمارسها بعض من يُمارس هذه المهنة ؛ كخلط البضاعة الرديئة بالجيّدة ، أو رشّ الماء على التمر و الزيت ليُرطّبه و يزيد من وزنه ، أو غشّ الزيت بدهن القرمط (⁶) أو إضافة

(¹) الشيرزي : المصدر السابق ، ص 33 ؛ ابن الأحرّة : المصدر السابق ، ص 111 .

(²) العصفر : هو الذي يُصَبَغ به ، و منه ريفي و بري ، و كيلاهما ينبت بأرض العرب ، و هو يُطَبَّب الطبخ ، و يُهَرَي اللحم الغليظ . ابن البيطار :

المصدر السابق ، ج 3 ، ص 170 .

(³) الشيرزي : المصدر السابق ، ص 33

(⁴) المصدر نفسه ، ص 57 .

(⁵) المصدر نفسه ، ص 58 .

(⁶) القرمط : هو نبات له ورقٌ طوال حشن مُشَوَّك ، و له ساقٌ طولها ذراعين ، و له زهُرٌ شبيهة بالزعفران و نَوّار أحمر و أبيض ؛ و قد يُستعمل زهره في

الطعام ، و يُستخدم ماؤه في علاج الكثير من الأمراض . ابن البيطار : المصدر السابق ، مج 2 ، ج 1 ، ص 15 . 16 .

الماء إلى الخلّ ، و غيرها من أنواع الغشّ ؛ التي كان المحتسب يكشفها بكلّ سهولة ؛ و هو ما أشار إليه " الشيرزي " في كتابه ؛ فعلى سبيل المثال كان يكتشف الزيت المغشوش بدهن القرطم ؛ بأن يتركه على النّار فيكون له دخانٌ كثيفٌ خائِقٌ ، أمّا الخلّ المغشوش بالماء فيكشفه المحتسب من خلال صبّه على الأرض ؛ فإذا كان مغشوشاً لم يُسمَع له صوت ، و إن كان صافياً سُمِعَ له صوت ، و من الممكن أن يكشفه بطريقةٍ أخرى ؛ حيث يضع حشيشة الطحلب فيه ؛ فإنّها تشرب منه الماء دون الخلّ (1)

و فيما يخصّ اللّبن ؛ فقد حرصَ المحتسب على معاينة السّمّانين الذين يضيفون إليه الماء ؛ إذ كان يكشف هذا الغشّ بالاستعانة بشعرةٍ يغمسها في اللّبن ؛ فإن لم يعلق بها شيءٌ من اللّبن كان اللّبن مغشوشاً ، و إن علّق بالشعرة شيءٌ من اللّبن دلّ ذلك على جودته و صفائه (2) . و إذا كان المحتسب قد حرصَ على عدم غشّ اللّبن ؛ فقد كان حرصه على نظافته أكثر ؛ حيث كان يأمر السّمّانين بإحكام تغطية الأواني التي يضعون فيها اللّبن لتفادي إختلاطه بالغبار أو الدخان أو الحشرات ، و إلزامهم بغسلها جيّداً كلّ يومٍ قبل وضع اللّبن فيها ، و منع المبتاعين من تذوّق اللّبن أو الجبن بأفواههم ؛ خشية أن يكون أحدهم مصابٌ بمرضٍ ما ؛ فتنتقل العدوى إلى غيره ممّن يتذوّق هذا اللّبن أو الجبن بعد ذلك (3) .

ثالثاً . تنظيم الأسواق :

حضيت الأسواق و الطرقات برعايةٍ كبيرةٍ في التشريعات البيئية الإسلامية ؛ سواء كان ذلك من حيث بنائها أو أماكن إقامتها ، أو ما يجوز إدخاله عليها و ما لا يجوز ؛ أو حتّى في تنظيمها ؛ و ما يُلاحظ أنّ هذه المعايير التي إعتد عليها المحتسب كانت تُراعي أمن النّاس و تضمن سلامتهم الصحية و البدنية ؛ و هو ما فصلت فيه

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 58 . 59 .

(2) نفسه .

(3) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 29 .

كتب الحسبة ؛ حين ذكرت أن المحتسب كان يحرص على أن لا تكون الأسواق في الإرتفاع و الإِتساع على ما وصفه الرّوم قديماً ؛ مع التزام التاجر بعدم إخراج مصطبة دُكّانه إلى الممرّ الأصلي لأنّه عدوان على المارة ؛ لذا وَجِبَ للمحتسب إزالته و المنع من فعله لِمَا في ذلك من إلحاق الضرر بالنّاس ⁽¹⁾ . و حرصاً على سلامة الأبدان ؛ عَمِلَ المحتسب على تنظيم الأسواق و تقسيمها حسب الحرف و الصناعات ، و جعل لكلّ صنعة سوقاً يختصّ بهم تُعرَفُ بهم صناعتهم ؛ مع ضرورة إبعاد من كانت صناعته تُسبّب تلوّثاً أو إضراراً بصحّة الأبدان أو إزعاجاً أو ضحيجاً إلى أماكن بعيدة ؛ إذ كان المحتسب يأمر بترحيلهم إلى منطقةٍ أخرى لا يتضرّر فيها أحد ؛ سواء تعلّق الأمر بالجيران أو المارة أو طلبة العلم أو المرضى في البيمارستانات ؛ و عليه فإنّ جميع الحدّادين و البخّارين و أصحاب المهن التي يُصدر منها إزعاج يُؤذي و يُقلّق أو تُصدر دخاناً أو غباراً أو غازاتٍ سامّة تُؤثّر على الماء أو الهواء أو الأرض أو الكلاً أو الأثمار و الخضروات ؛ ممّا له علاقة مباشرة بصحّة الأبدان ⁽²⁾ ، و في هذا الصدد يقول ابن بسّام :

" ... و من كانت صناعته تحتاج إلى وقودٍ كالخبّاز ؛ فعلى المحتسب أن يُبعد حوانيتهم عن البزّارين و العطارين لعدم المجانسة و حصول الأضرار ، و ينبغي أن تُمنع أحمال الحطب و الحلفاء و أحمال التّبن و الرّماد من الدخول إلى الأسواق ؛ لما فيه من الضرر بلباس النّاس ... " ⁽³⁾ ، كما كان المحتسب يحرص على نظافة الأسواق و يأمر أهلها بكنسها و تنظيفها من الأوساخ و غير ذلك ممّا يُضرّ النّاس ؛ مثال ذلك أنّه كان يمنع أحمال الحطب و الحلفاء و أحمال التّبن و الرّماد من الدخول إلى الأسواق و يُلزم الطحّانين غريلة الغلّة من الترابل و تنقيتها من الزوان و تنظيمها من الغبار ، و عرض ما هو محترّم من المأكولات و المشروبات ⁽⁴⁾ .

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 13 ؛ ابن الأخرّة : المصدر السابق ؛ ص. 135 .

(2) فؤاد عبد اللّطيف السرطاوي : كتاب البيئة و البعد الإسلامي ، دار المسيرة ، عمّان (الأردن) 1420هـ / 1999م ، ط 1 ، ص 136 .

(3) ابن بسّام : المصدر السابق ، ص. 17 .

(4) السرطاوي : المرجع السابق ، ص 138 .

أما الطرقات و أزقة الحارات و دروب المحلات ؛ فلا يجوز لأحدٍ إخراج جدار داره و لا دكانه فيها إلى الممر المعهود ، و كذلك كل ما فيه أذية و إضراراً على السالكين ؛ كالمزاريب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء و مجاري الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف إلى وسط الطريق ؛ بل يأمر المحتسب أصحاب المزاريب أن يجعلوا مسيلاً محفوراً في الحائط مكلساً ؛ يجري فيه ماء السطح ، و كل من كان في داره مخرج للوسخ إلى الطريق فإنه يكلفه سدّه في الصيف ، و يُجفر له في الدار حفرةً تُجمع فيها (1) . و يقول ابن الأخوة في هذا الشأن :

" ... و كذا طرح الكتّاسة على جوانب الطرق ، و تبيد قشور البطيخ أو رشّ الماء ؛ بحيث يُخشى من التزلق و السقوط ... و كذا إرسال المزاريب المخرجة من الحائط إلى الطريق الضيقة ؛ فإنّ ذلك يُنجس الثياب و يُصيّق الطرق ... و كذلك ترك مياه المطر و الأوحال في الطرق من غير كسح ؛ فذلك كُله منكر ... " (2) .

إنّ وظيفة المحتسب لم تقتصر على حفظ سلامة الناس و أمنهم فحسب ؛ بل تعداه إلى تحقيق الآداب العامة و الدفاع عن العرض و الشرف ؛ ذلك أنّه لا يجوز التطلّع على الجيران من السطوح و التوافذ ؛ و لا أن يجلس الرجال في طرقات النساء من غير حاجة ، و كذلك النساء لا يجلسن على أبواب بيوتهنّ في طرقات الرجال ، فمن فعّل شيئاً من ذلك عزّره المحتسب ؛ خاصة إذا رأى رجلاً أجنبياً مع امرأة أجنبية يتحدّثان في موضع خلوة ؛ فإنه أشدّ للثمة في حقهما (3) .

(1) السرطاوي : المرجع السابق ، ص 139 .

(2) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص. 135 ، 136 .

(3) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 14 .

الفصل الرَّابِع :

رَوَاد علم الطبِّ في العصر العبّاسي

1. علي بن ربن الطبري .
2. أبوبكر الرّازي .
3. ابن أبي الأشعث .
4. أحمد بن علي مسكويه .
5. علي بن عبّاس الأهوازي .
6. الحسن بن سوار .
7. أحمد بن محمد الطبري .
8. ابن مندويه الأصفهاني .
9. علي بن هندو .
10. ابن سينا .
11. الحسن القمري .
12. التّجيب السمرقندي .

لقد أعطى عباقرة الثقافة الإسلامية عقولهم و تجاربهم ، و برزوا في مجال الفكر ، و عمّت مآثرهم الفكرية البلاد الإسلامية ، و كثرت إسهاماتهم العلمية في شتى العلوم الحياتية (العقلية و الثقيلة) ، و لعلّ علم الطب كان أبرزها و أوسعها ، إذ أبدع فيه المسلمون على مدار عصور حضارتهم الزاهرة ؛ فكانت إسهاماتهم على نحو غير مسبوق ؛ شمولاً و تميّزاً و تصحيحاً للمسار ، و لم يكن هناك حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غيرهم ، إذ كانوا يعتبرون هذه العلوم ميراثاً إنسانياً ، يستفيد منه الجميع ، بما في ذلك الأمة الإسلامية .

تراجم لأشهر الأطباء في العصر العباسي :

إنّ إسهامات أطباء العصر العباسي في مختلف الاختصاصات الطبية ؛ بجعلنا نقفُ أمام عظمة هؤلاء العباقرة الذين تركوا بصماتهم في علم الطب ؛ فأبدعوا فيه ، و أسهموا في تطوّره ، و تركوا معارف طبية خالدة ؛ أثرت على غيرهم و مهّدت لهم الطريق للكشف عن حقائق أخرى في هذا المجال . و كما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث ؛ فإنّي قد حاولتُ البحث عن الأطباء الذين عاشوا في الفترة العباسية ؛ إلا أنّني وجدت أنّ أكثرهم عاش في القرنين ؛ الثالث و الرابع الهجريين ؛ أي في العصر العباسي الثاني (232 . 334 هـ / 847 . 945 م) و العصر العباسي الثالث (334 . 447 هـ / 945 . 1055 م) ، و قد اُكتفيْتُ بالتطرّق إلى اثني عشر طبيباً عباسياً ؛ من الذين عاشوا في بلاد المشرق الإسلامي ؛ تاركاً المجال لمن أراد أن يتوسّع في هذا الموضوع ، و يتناول شخصيات أخرى ؛ لم يردّ ذكرها في هذا البحث ؛ و التي عاشت في الأقطار الإسلامية الأخرى ؛ على غرار مصر و بلاد المغرب الإسلامي ، و بلاد الأندلس . و قد حاولتُ خلال هذا العمل ؛ تسليط الضوء على أهمّ جوانب حياتهم ؛ مجيئاً على عدّة تساؤلات منها : من هم أشهر الأطباء العباسيين ؟ و ما علاقتهم بغيرهم ؟ و كيف تعاملوا مع مرضاهم ؟ و ماهي أهمّ مؤلفاتهم ؟

. ب . 1 . عليّ بن سهل الطبري :

هو علي بن سهل بن ربن الطبري ؛ المكنّى بأبي الحسن ، وُلد و نشأ في الريّ بطبرستان ⁽¹⁾ ، عاش في القرن الثالث الهجري ، ينتمي إلى أسرة فارسية ؛ عُرفت بِجاهها و علمها ، إذ كان أبوه " سهل " بارعاً في الحساب و التنجيم و الطبّ ، فكان له الفضل الكبير فيما وصل إليه الطبري ، إذ تتلمذ على يده ، و اكتسب في صباه ثقافة واسعة في اللّغة ، و الأدب ، و التنجيم ، و الحساب ، و الطبّ . و رغم أنّه نشأ في أسرة نصرانية ⁽²⁾ فإنّه أسلم على يدّ الخليفة العبّاسي " المعتصم " ؛ بعد أن دعاه إليه في سامراء ⁽³⁾ .

لم يكتفِ ابن ربن الطبري بما تلقّاه من تعليم في صباه ، و إنّما رحل إلى بغداد طلباً للعلم ، و رغبةً في توسيع ثقافته العلمية ، و الإطّلاع على الكتب القيّمة و التّفيسة ؛ التي كانت تعجّ بها دار الحكمة ، و أملاً في الإستفادة من علماء عصره ، فكان له ما أراد ، و مكث فيها مُدّة من الزمن ، ثمّ عاد إلى بلاده ؛ ليُصبح عالماً مُدرّساً للعلوم الطّبيّة ، و طبيباً حكيماً ؛ يُلجأ إليه لِمعالجة مختلف العلل و الأمراض المستعصية ، فزادت شهرته و مكانته ، و علا شأنه ، و نال إحترام و تقدير الجميع ، و كثر طلابه . و ممّا يدلّ على هذه المكانة الرّاقية لهذا الطبيب ؛ هو أنّ

⁽¹⁾ طبرستان : بلاد معروفة في بلاد فارس ، مشهورة بجبالها الكبيرة ، و أشجارها الكثيفة ، و سُميت بذلك لأنّ الشجر كان حولها كثيفاً ، فلم تصل إليها جنود كسرى إلّا بعد قطع تلك الأشجار بالفؤوس ، و الطّبر و التّبر بالفارسية يعني : الفأس ، و لذلك قيل : " طبرزين " . و أستان بمعنى : الشجر . و قد عزّت العرب أستان ، فقالت لِضربٍ من الشجر : أسّتن . وقد فتحها المسلمون بِقيادة " سعيد بن العاص " سنة 29 هـ ؛ أي في عهد الخليفة " عثمان بن عفّان صلحاً ، ثمّ فتحها " عمرو بن العلاء " سنة 57 هـ . ابن قُتيبة : المصدر السابق ، ص . 568 ؛ البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ) : معجم ما أُستعجم من أسماء البلدان و المواضع ، تحقيق : جمال طُلبة ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، 1418 هـ / 1998 ، مج . 2 ، ص . 155 ، 156 ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج . 4 ؛ ص . 13 ، 16 .

⁽²⁾ Rosdi Rashed : op. cit , p 164 .

⁽³⁾ البيهقي ظهير الدّين : المصدر السابق ، ص 22 ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص . 414 .

أحد أبرز أعلام الطبّ الإسلامي على مدى عُصوره تتلمذ على يده ، و المقصود هنا هو " الرازي " (1) ، و كما أشرنا إليه سابقاً ، فإنّ الطبري استدعاه الخليفة " المعتصم " إلى سامراء ؛ بعد أن سمع به ، فكان ذلك الإستدعاء مُعرجاً حاسماً في حياته ، إذ كان سبباً في إعتناقه الإسلام من جهةٍ ، و من جهةٍ أخرى سمح له بالدخول إلى البلاط العبّاسي ، و كسبه لإحترام و رضا ولاة الأمور .

إنّ عليّ بن سهل بن ربن الطبري ؛ كغيره من علماء زمانه ، انكبّ على مطالعة و دراسة مؤلّفات علماء الأمم السابقة ؛ لاسيما في ميدان الطبّ ، و ترجمتها ، و إثرائها بالشرح و التحليل و التعليق ، و إبداء رأيه فيها ؛ إمّا بالترجيح أو النّقد ، مُعتمداً في ذلك على ما توصّل إليه من نتائج ؛ بعد الملاحظة و التجربة ، و بدا ذلك جلياً في مؤلّفاته القيّمة و النّفيّة ، و لعلّ من أهمّ تلك المؤلّفات : كتاب (فردوس الحكمة في الطبّ) ، و يُعتبر هذا الكتاب من المراجع الهامّة للطبّ الإسلامي ؛ إلى جانب كتاب (الحاوي) للرازي ، (كامل الصناعة الطّبيّة) للأهوازي ، و (القانون) لابن سينا ،... إلخ ، فقد جمع في هذا الكتاب بين العلوم الطّبيّة ، و الآراء و الأفكار الفلسفية لكثيرٍ ممّن سبقوه من العلماء كأبقراط ، و جالينوس ، و حنين بن إسحاق ، و غيرهم (2) ، فكان بحقّ موسوعة في مجال الطبّ ؛ إستفاد منها كثيراً طلاب العلوم الطّبيّة و الصيدلانية في العالم الإسلامي ، و كذا الغرب المسيحي .

إضافةً إلى هذا الكتاب النّفيّ ؛ ألف هذا الطبيب الحكيم كُتباً أخرى لا تقلّ أهميّةً عنه ، منها : كتاب (حفظ الصحة) ، و كتاب (منافع الأغذية و الأطعمة و العقاقير) ، و كتاب في الحجامة ، و آخر في ترتيب الأغذية ، و آخر في الأديان و محاسن الإسلام ، و غيرها من المؤلّفات ، أمّا عن أقواله المأثورة فهي كثيرة ؛ تُبيّن

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 414 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص 231 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند ... ، ص 176 .

(2) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص 178 ؛ علي أكبر ولايتي : موسوعة الإسلام و إيران ، دار الهادي ، بيروت

مدى حكمة هذا الطبيب ، نكتفي بذكر بعضها ؛ و منها : " شرّ القول ما نقض بعضه بعضاً " و " الطبيب الجاهل مستحقّ الموت " و " السلامة غاية كلّ سؤال " و " طول التجارب زيادة في العقل " (1) .

ب . 2 . أبو بكر الرّازي :

هو محمد بن زكريا الرّازي الصيرفي ، و ألحق لقب " صيرفي " (2) باسمه لإلته كان صيرفياً في بلده " الريّ " (3) يُعرف عند الغرب باسم " رازيس " ، و يُلقب بأبي الطبّ العربي ، ولد في مدينة " الريّ " (4) سنة 251 هـ (5) أي عاش في العصر العبّاسي الثاني ؛ أيّام الخليفة المعتضد (279 / 289 هـ) ، الذي عُرف بحبّه و تقديره للعلماء على غرار من سبقه من الخلفاء ، كهارون الرشيد و المأمون و المعتصم ، فكانت بغداد آنذاك قبلةً لطلّاب العلم من كلّ أرجاء العالم الإسلامي ، نظراً لكثرة علمائها و مكباتها و معاهدها العلمية المتخصّصة ، فاحتضن المعتضد الرّازي لمكانته العلمية في مجال الطبّ و الكيمياء ، فعينه رئيساً لجميع الأطباء ببغداد ، و من هنا زادت شهرته ، و ذاع صيته بين معاصريه (6) .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 414 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 177 .

(2) صيرفي : الصيرفي هو صرّاف الدراهم ؛ المتصرّف في الأمور ، و المجرّب لها . علي بن هادية و آخرون : القاموس الجديد للطلّاب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1411 هـ / 1991 ، ط. 7 ، ص. 575 .

(3) البيهقي ظهير الدّين : المصدر السابق ، ص. 21 .

(4) الريّ : مدينة مشهورة في بلاد فارس ، و هي قسبة بلاد الجبل ، بينها و بين نيسابور مائة و ستون فرسخ ، فتحها المسلمون بقيادة " أبي موسى الأشعري " ؛ في خلافة عثمان بن عفّان صلحاً . ابن قُتيبة : المصدر السابق ، ص. 568 . البقوي : المصدر السابق ؛ ص. 89 ؛ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج. 3 ، ص. 246 247 ؛

H.A.R GIBB : : op. cit , vol 2 , p 634 .

(5) ابن جليل : المصدر السابق ، ص. 77 .

(6) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 415 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 210 .

كان الرّازي منذ صغره يميل إلى الأدب و الشعر و الموسيقى ، فكان ماهراً في الغناء و ضرب العود ⁽¹⁾ و استمرّ في ذلك فترةً من شبابه ؛ أي حتّى وصل الثلاثين من عمره ، و بعدها انصرف عن ذلك ، و صبّ اهتمامه نحو العلوم العقلية ؛ لاسيما الفلسفة و الكيمياء و الطبّ ، فعكف على دراسة و قراءة كتب حكماء و فلاسفة الأمم الأخرى ، خاصةً " أبقراط " و " جالينوس " ، و على غرار بقية الأطباء المسلمين ، لم يكتب الرّازي بالإطلاع عليها و قراءتها ، و إنّما حاول تقييمها ؛ إمّا بالترجيح أو التعديل ، أو الرّفص أحياناً ، معتمداً في ذلك على ما وصل إليه من النتائج بعد الملاحظة و التجربة ، و هو ما سبق ذكره ، كما قام بجمع تلك المؤلّفات ، و كان له الفضل الكبير في إنقاذها من الضياع ، و في هذا الشأن كان يقال : " ... كان الطبّ معدوماً فأوجده أبقراط و ميّناً فأحياه جالينوس ، و مشتتاً فجمعه الرّازي ... " ⁽²⁾ ، كما تعامل مع تلك الآراء و الأفكار بأمانة علمية عالية ، ذلك أنّه كان ينسبها إلى أصحابها دون تأويل أو تحريف ⁽³⁾ .

إنّ نشأة الرّازي و كبر سنّه ، لم يمنعه من الخوض في مجال صعبٍ مقارنةً بالأدب و الشعر و الموسيقى و الغناء فلم يدرس الكيمياء و الفلسفة إلّا بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره ⁽⁴⁾ ، كما لم يبرز في مجال الطبّ إلّا بعد الأربعين إلّا بعد الأربعين من عمره ، و هذا يدلّ على مدى رغبة هذا الطبيب الفيلسوف في طلب العلم ، و إثراء ثقافته العلمية ، و الخوض في العلوم العقلية ؛ التي كانت مستعصيةً على الكثير من صغار السنّ ، فما بالك بالكبار ؟ ، و بالتالي سمح له ذلك من نيل مكانةٍ رفيعةٍ بين معاصريه ، نظراً لِعبقريته و سعة إطلاعه ، فجمع الأفكار الطيّبة من المصادر المختلفة في مؤلّفاته المختلفة ، و علّق عليها تعليقات مثمرة و نافعة ، فانفرد بإنجازات عظيمة ؛ كان لها

⁽¹⁾ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص. 77 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص. 272 ؛ حنان قرّوتي : المرجع السابق ، ص. 159 .

⁽²⁾ أحمد شوكت الشطّي : تاريخ الطبّ ، آدابه ... ، ص. 225 .

⁽³⁾ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 211 .

⁽⁴⁾ Rosdi Rashed : **op. cit**, tome 3 , p. 166 .

الأثر الكبير فيما وصل إليه الطبّ الحديث ، و أضحى كتبه و مؤلفاته مرجعاً مهمّاً لطلّاب العلوم الطّبيّة و الصيدلانية في العالم الإسلامي و كذا الغرب المسيحي ؛ بعد أن تُرجمت إلى لغاتٍ عديدةٍ ، و هو ما سنذكره بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا البحث .

إنّ ممّا زاد من حبّ النَّاس و تقديرهم للرازي ، هو تواضعه الكبير معهم ⁽¹⁾ ، و صدقه ، و كرهه للتّفاق و الرياء و الدّجل ، و رفقه بالمرضى ، و رأفته بالفقراء حتّى لُقّب بـ "طبيب الفقراء" ؛ إذ يقول : " ... و ينبغي للطبيب أن يُعالج الفقراء ؛ كما يُعالج الأغنياء .. و هكذا علينا أن نقتفي السنّة التي سنّها الحكيم ... " ⁽²⁾ و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الشأن : " ... و كان الرازي ذكياً فظناً ، رؤوفاً بالمرضى مُجتهداً في علاجهم ، و في بُرئهم بكلِّ وجهٍ يقدر عليه ، مُواظباً للنظر في غوامض صناعة الطبّ ، و الكشف عن حقائقها و أسرارها ... و فيما تفرّد به في مُداواة المرضى ، و في الإستدلال على أحوالهم ؛ فيما خيّره من الصفات و الأدوية التي لم يصل إلى علمها كثير من الأطباء ... " ⁽³⁾ ، كما عُرف عنه أنّه كان يُوزّع وقته بين طلابه و تجاربه العلمية و التصنيف و قراءة المعالجات الطّبيّة الجديدة ؛ التي وصل إليها زملائه و طلابه ، فكان يستفسرهم في بعض الحالات المرضية الخطيرة لإشراكهم في المسؤولية ، أو الحصول على رأي ثانٍ جديدٍ يمكن أن يساعد في شفاء المريض، و يُروى عنه ؛ أنّه كان يجلس في مجلسه و دونه تلاميذه ، و دونهم آخرون ، و كان الرجل يصف مرضه و حالته لأوّل من يلقاه منهم ، فإن كان عنده علم به عاجله ، و إلّا تعدّاه إلى غيره ، فإن أصابوا ، و إلّا تكلم الرازي في ذلك ⁽⁴⁾ .

⁽¹⁾ زنجريد هونكه : المرجع السابق ، ص. 246 .

⁽²⁾ الرازي ، أبو بكر زكريا : أخلاق الطبيب ، تحقيق : عبد اللّطيف محمد العبد ، المكتبة العصرية ، بيروت 1400 / 1980 م ، ط 2 ، ص.

⁽³⁾ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 416 .

⁽⁴⁾ أحمد شوكت الشطّي : تاريخ الطبّ ، آدابه ... ، ص. 244 .

لقد شملت إنجازات الرّازي الطّبية إختصاصات متعدّدة ، كالجراحة ، و التشريح ، و الطّبّ النّفسي ، و طبّ العيون ، و الأمراض التناسلية ، و علم الأدوية ، و غيرها من الإختصاصات التي ورد ذكرها في هذا البحث ، أبداع فيها في وصف و تشخيص العلل و الأمراض ، و تفنّن في علاجها ، إمّا بالإعتماد على الملاحظة و التجربة بالنسبة للأمراض الجسدية ، أو اللّجوء إلى الحيلة و الذكاء لمعالجة الأمراض النّفسية ؛ على غرار معالجته لأمير بخارى " المنصور " ، و هناك قصصٌ طريفةٌ أخرى تُروى عن الرّازي ، منها التي تخصّ مكان إختيار بناء البيمارستان العضدي ، حين إستشاره الخليفة " عضد الدولة " ⁽¹⁾ في ذلك ، فأخذ الرّازي قطعاً من اللّحم ، و وضعها في أماكن متفرّقة من بغداد ، و بعد مدّة قصيرة فحص اللّحم ، فاقترح على الخليفة أن يبني البيمارستان في المكان الذي وُجد فيه اللّحم أقلّ ميلاً إلى التعفن ، ثمّ طلب الخليفة أن يُرّشح له من يصلح لإدارة البيمارستان ⁽²⁾ ، فقدم له قائمةً طويلةً ، و بقي الخبراء يختصرونها للخليفة حتّى حدّدها بثلاثمائة طبيب ؛ من بينهم الرّازي ، فاختار الخليفة " عضد الدولة " الرّازي ليكون مديراً للبيمارستان ⁽³⁾ .

⁽¹⁾ عضد الدولة البويهّي ؛ فخرناسر بن بويه : أحد أشهر ملوك الدولة البويهية ، و قد بلغت الدولة في عهده أوج عظمتها ؛ إذ تمكّن من توحيد فارس و العراق تحت نفوذه ، و إستطاع خلال الفترة الطويلة التي حكمها (35 سنة) أن يُحقّق للدولة العبّاسية إستقراراً ، و إزدهاراً حضارياً كبيراً ؛ من خلال الأعمال العمرانية ، و تشجيع العلم ، و إكرام العلماء ، و الإنعام عليهم ، و صار يُقرّبهم من حضرته . الأشقر ، عمر سليمان عبد الله : مختارات من سير أعلام التّباة و تاريخ الإسلام للذهبي ، دار التّفائس ، عمّان (الأردن) 1436 هـ / 2015 م ، ط 1 ، ص. 332 ؛ عبد السلام الترماني : المرجع السابق ، ج. 2 ، المجلّد 1 ، ص 815 ؛ بديوي يوسف علي : عصر الدويلات الإسلامية في المغرب و المشرق ، دار الأصاله ، الجزائر 1431 هـ / 2010 م ، ص. 267-269 ؛ آدم متر : الحصار الإسلامي في القرن الزّاه الهجري ، تعريب : محمّد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1387 هـ / 1967 م ، ط 4 ، ص. 450 .

⁽²⁾ Rosdi Rashed : **op. cit** , tome 3 , p 166 .

⁽³⁾ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 415 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ، ص 218 ؛ محمد أمين فرشوخ : المرجع السابق ، ص 46 ؛ حربي عبّاس و حستان حلّاق : المرجع السابق ، ص. 292 .

إضافةً إلى كلّ ما ذكرناه ، فإنّ للرازي قصصاً أخرى تدلّ على ذكائه في معالجته لبعض الأمراض ، مثال ذلك قصة ذلك الرجل الذي كان ينفث الدّم ، فلمّا جيئ إلى الرازي ، سأله عن المياه التي شربها في طريقه ، فأخبره أنّه قد شرب من المستنقعات ، فأدرك الرازي أن ذلك التّفث للدّم من فعل علقه ؛ حوصلت في معدّته ، فطلب منه أن يشرب إنائين كبيرين ؛ وضع فيها طحلب أخضر ، و أجبره بالقوّة على إتمامها إلى أن تقيأ المريض ، و خرجت العلقه ؛ التي التّفّت بالطحلب ، و نهض الرجل معافى (1) .

ب . 3 . ابن أبي الأشعث :

هو أحمد بن محمد بن أبي الأشعث ، المكنّى بـ " أبي جعفر " ، المتوفى سنة 360 هـ ، طبيب من بلاد فارس و أحد كبار علمائها في زمانه ، قضى حياته متنقلاً بين بلاد فارس و العراق ، و قد جمع هذا الطبيب بين العلوم الطّبيّة و الدّينية ، الشّيء الذي انعكس على سلوكه و شخصيته ، إذ عُرف بحسن الخلق و التواضع و الصّلاح و حبّ الخير ، و العطف على الفقراء ، إضافةً إلى كثرة أولاده ، أشهرهم محمّد ، الذي اختار مهنة الطبّ على غرار أبيه ، لكنّه لم يرتق إلى مكانة والده .

إنّ ابن أبي الأشعث هو مثال للطبيب المسلم ، الذي اختار الأمانة العلمية منهاجاً له في علمه و مهنته ، فكان لا يرى حرجاً في نقل و ترجمة مؤلّفات أطباء الأمم الأخرى ، و نسبها إلى أهلها ، و إثرائها إمّا بالشرح و التفصيل و الملاحظات ، و إمّا بالتقدّ أحياناً ، و هو ما تجلّى في شرحه لكتب جالينوس (2) الستّة عشر ، إذ يقول ابن أبي

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 417 ؛ الدّعاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص 217 ؛ زيجريد هونكه : المرجع السابق ص 245 ، 246 .

(2) جالينوس : (129 . 199 هـ) طبيب يوناني ، يُعتبر أحد أعظم الأطباء في العصور القديمة ، أسّس الفيسيولوجيا التجريبية ، وضع عشرات من المؤلّفات في علمي التشريح و الفيسيولوجيا ؛ سيطرت على الفكر الطّبيّ في أوربا طوال القرون الوسطى ، و خلال عصر التّهضة . القفطي : المصدر السابق ، ص 122 ؛ منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص 156 .

أُصيبت في هذا الشّان : " ... و كان عالماً بكتب جالينوس ، خبيراً بها ، مطلعاً على أسرارها ، و قد شرح كثيراً منها ، و هو الذي فضّلها إلى جمل و أبواب و فصول ، و قسّمها تقسيماً لم يسبقه إلى ذلك أحد غيره ... " (1) .

أقام أبو جعفرٍ بالموصل ، بعد أن لجأ إليها هارباً من بلاد فارس ، إثر مصادرة أملاكه ، فدخلها بحالة سيّئة من العري و الجوع ، و من حسن حظّه أنّ إتّصل بالأسرة الحمدانية (2) الحاكمة ، و استطاع بواسطة علاجه لوليدٍ عليلٍ لناصر الدولة " أبي محمد الحسن (317 . 356 هـ) أن ينال رضا هذا الأمير ، فقد تمكّن بفضل دهائه و فطنته ، و غزارة علمه من علاج هذه الحالة المستعصية ، التي عجز أطباء الموصل عن شفائها ، و أبحر الجميع فكان جزاؤه أن قرّبه الأمير منه ، و خصّه بالعطاء و الإحترام ، و أصبح من كبار علماء الموصل و العراق في زمانه كما أنشأ مدرسة متخصصة في العلوم الطّبيّة ؛ و التي أصبحت قبلةً لطلّابها من أمصار العالم الإسلامي . و بعد وفاة ناصر الدولة ، بقي ابن أبي الأشعث مقرّباً من الأسرة الحمدانية الحاكمة ، خاصةً مع الأمير عضد الدولة " أبي تغلب الغضنفر " (356 . 369 هـ) ، و بالتالي قضى آخر أيّام حياته مقرّباً من الأمراء ، بعد أن كان طريداً لاجئاً في أرض العراق (3) .

لقد جمع ابن أبي الأشعث بين علمي الطبّ و الصيدلة ، إذ يرى أنّ الطبيب التّاجح ينبغي له أن يكون ملماً بكلّ أصناف الأدوية ، من أعشابٍ طبيعيّةٍ و عقاقيرٍ ، و مُدركاً لمدى تأثيرها على البدن ، و علاجها لمختلف العلل

(1) عيون الأنباء في طبقات، ص. 331 .

(2) الأسرة الحمدانية : ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون ؛ من قبيلة تغلب العربية الأصل ، أسسوا دولتهم في مناطق واسعة من العراق و الشام خاصةً في الموصل و حلب ، أشتهروا بمولاتهم للخلافة العبّاسية ، و بقتالهم للقرامطة . و قد دام وجود هذه الدولة قرابة واحدٍ و تسعين سنةً ، أي في الفترة الممتدّة بين (448 · 441 هـ / 1056 · 1147 هـ) . القرمانى ، أحمد بن يوسف (ت 646 هـ) : أخبار الدول و آثار الأول غب التاريخ تحقيق : أحمد حطّيط و فهمي سعد ، عالم الكتب 1412 هـ / 1992 م ، مج. 2 ، ص. 435 ؛ يوسف علي بدوي : المرجع السابق ص. 275 ؛ آدم متر : المرجع السابق ، ص. 136 .

(3) هشام نشابة و آخرون : موسوعة أعلام العلماء و الأدباء العرب و المسلمين ، دار الجيل . بيروت ، 1425 هـ / 2004 ، مج. 2 ، ص. 37 .

و هذا ما أشرنا إليه سابقاً ؛ حين طلب منه تلاميذه أن يُؤلّف كتاباً حول الأدوية المفردة ، فاستجاب لهم ، و ألّف كتابه المشهور (الأدوية المفردة) ⁽¹⁾ ، هذا الكتاب الذي نجد في مقدّمته كلاماً يدلّ على مدى فصاحته و براعته في التأليف ، فعندما قرّر تنفيذ رغبة طلابه ، خطر على باله أن يجعل هذا الكتاب الجديد مرجعاً للمتخصّصين في العلوم الطبية و الصيدلانية ، القادرين على الشّرح و القياس و الإستخلاص و النّقد ، و ليس في متناول عامّة النّاس و هنا تكمن عبقريته ⁽²⁾ .

إنّ الملاحظ في مؤلّفات أبي جعفر الكثرية ، هو أنّه تميّز عن غيره من الأطباء في الكتابة و التأليف ، ذلك أنّه جعلها لذوي المستويات المختلفة ، إذ نجده يُخصّص كتباً لدارسي الطبّ المبتدئين ، و أخرى لمن تجاوز حدّ تعلّم الطبّ ، و هيّأ للدراسات العليا ، كما أنّ مؤلّفاته لم تقتصر على الطبّ فحسب ، و إنّما كتب في علومٍ أخرى شأنه شأن الكثير من علماء زمانه ؛ الذين كانوا يكتبون كلّ ما تيسّر لهم من العلوم ⁽³⁾ ، و على العموم يمكن تقسيم مؤلّفاته إلى طبّية و غير طبّية ، أمّا بالنّسبة إلى الكتب الطّبيّة ، نجد هذا الطبيب في بعضها يشرح و يُصنّف كتب الأقدمين ، لاسيما كتب "جالينوس" ، التي فصلّها إلى جملٍ و أبوابٍ و فصولٍ ، و قسّمها تقسيماً لم يسبقه إليه أحد ، لئيسهل على الدّارس فهمها و إستيعابها ، كما ألّف بعض الكتب الطّبيّة العامة ، و تشمل نحو عشرة كتب أشار إليها ابن أبي أصيبعة ، و منها : كتب (السرسام و البرسام و مداواتهما) ، (أمراض المعدّة) (الجدري و الحصبة و الحميقاء) ، (البرص و البهق و مداواتهما)... إلخ ⁽⁴⁾ ، إضافةً إلى المؤلّفات التخصّصية التي ألّفها للطلبة ذوي المستوى العالي في الطبّ ؛ أي صنّفها للتّخبة من تلاميذه ، الذين وصلوا إلى مرحلة متقدّمة

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 332 .

(2) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 232 .

(3) هشام نشابة و آخرون : المرجع نفسه ، ص. 37 .

(4) عيون الأنباء في طبقات ... ، ص. 332 .

جداً في العلوم الطبيّة ، و لعلّ أهمّ تلك الكتب : كتاب (الأدوية المفردة) الذي أشرنا إليه سابقاً ، و الذي كتبه إستجابةً لطلب تلاميذه ، فجعله خاصاً لمن يستطيع الإنتفاع به ، و إستنباط ما فيه من أحكام لم يذكرها ، أو إضافةً أخرى ، فاشتمل هذا الكتاب على القوانين و الشرائع التي تُنظّم علم الأدوية و الغذاء ، و الكليّات و الخواص ، و مقادير الأدوية ، و هناك كتاب آخر يشرح فيه أعضاء الجسم من الناحية التشريحية ، و المنافع الطبيّة لكلّ منها سمّاه (الغاذي و المعتدي) ، ، و توجد من هذا الكتاب نسخة خطيّة في المكتبة البريطانية ، و هو أقدم كتاب عربي مخطوط في العلوم الطبيّة في هذه المكتبة ⁽¹⁾ ، أمّا مؤلّفاته غير الطبيّة فهي كثيرة ، منها : كتب (الحيوان) ، (العلم الإلهي) ، مقال في التّوم و اليقظة ... إلخ ⁽²⁾ .

إنّ ما ينبغي التذكير به ، هو أنّ ابن أبي الأشعث كتب معظم مؤلّفاته في قلعة " برقي " في أرمينية ⁽³⁾ ، التي لجأ إليها مُكرهاً ، إذ غادرها إثر الزحف المغولي على بلاد فارس ، فظلّ فيها مدّة من الزمن ، و لكنّ إستقرّ به المقام في مدينة الموصل ، و عمل هناك إلى غاية وفاته ، و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الصدد : " ... و كانت وفاة أحمد بن أبي الأشعث ؛ رحمه الله في سنة ثلاثمائة و نيف و ستين للهجرة ، و كان له عدّة أولاد ، و الذي و جدّته مشهوراً منهم في صناعة الطبّ محمّد ... " ⁽⁴⁾ .

(1) هشام نشابة و آخرون : المرجع السابق ، ص 38 ؛ عبد السلام الترماني : المرجع السابق ، مج. 1 ، ص. 765 .

(2) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 332 .

(3) أرمينية : إسم لصقّ عظيم من جهة الشمال ؛ و قد سُمّيَتْ بهذا الإسم نسبةً لـ " أرمينيا بن كيطا بن أوامر بن يافث ابن نوح عليه السلام ؛ و كان أوّل من سكنها . و كانت أرضاً تابعةً للروم حتّى فتحها المسلمون ، و قد ذُكر أنّ هذه الأرض الواسعة كان بها مائة و ثمانين عشراً مملكة . يعقوبي : المصدر السابق ، ص. 122 ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج. 1 ، ص. 160 ، 161 ؛

و في الأخير ، أختتم كلامي عن هذا الطبيب الكبير بنصيحته للأطباء ، و دعوته إيتاهم للإرتقاء بمهنة الطب و حسن معاملتهم للمرضى ، و خشية الله في عملهم ، إذ يقول : " ... إنّ الله فرض البلاغ أيها الأطباء ... إنّ الله يسألكم عمّا فعلتم في أبدان النَّاس ، فهذا ما أعظ به الطبيب ... " (1) .

. ب . 4 . أحمد بن عليّ مسكويه :

هو أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ؛ المكنّى بأبي عليّ ، سُمي كذلك نسبةً إلى المسك ؛ لخصاله الحسنة كما يُقال ، أو لإتته كان يُحبّ التطيّب بالمسك أو " المشك " بالفارسية ، و لذلك أطلق عليه بعضهم لقب : " مشكويه " (2) . هو طبيب ، و مؤرّخٌ ، و فيلسوفٌ فارسي (3) ، ينحدر من أصلٍ مجوسيّ ، و ينتمي إلى أسرة كبيرة ذات ثروة و جاه و تاريخ عريق ، يعتبره بعض المؤرّخين مجوسياً ثمّ أسلم ؛ على غرار ما ذكره ياقوت الحموي (4) و لكن هناك من ردّ عليه ، و أثبت أنّه كان مسلماً ، و أنّ جدّه هو الذي كان مجوسياً ؛ باعتبار أنّ اسمه " أحمد " ، و اسم والده " محمد " ، و كان يُكنّى " أبو عليّ " (5) .

(1) ابن أبي الأشعث ، نقلاً عن هشام نشابة و آخرون : المرجع السابق ، ص. 38 .

(2) زهير حميدان : أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية و التطبيقية ، مكتبة الأسد ، دمشق ، سوريا 1995 م ، المجلد 1 ص. 97 .

(3) Dominique Sourdel : : op. cit , p 68 .

(4) ياقوت الحموي الرّومي : معجم الأديباء . إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1993 م ج. 2 ، ص. 495 .

(5) الدقّاع : إسهامات علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 127 ، 128 .

وُلد هذا الطبيب في أصفهان ⁽¹⁾ سنة 330 هـ ، و ترعرع فيها ، و عاش مُتَنَقِّلاً بين مناطق مختلفة في بلاد فارس ، مرّ بأوقاتٍ صعبةٍ في صباه ؛ إثر وفاة والده ، و تزوّج والدته بشابٍ أصغر منها سنّاً ، و ما إنجرّ عن هذا الزواج من مشاكلٍ ؛ أثرت على حياته ، فأهملته والدته ، حتّى صار طعماً لرفقاء السوء ، فانحرف ، و انصرف إلى اللّهُو و المتعة ، و التفاجر بالمال و الجاه ، ولكن سرعان ما استيقظ ، و عاد إلى جادة الصواب ، و تدارك الأمر و انصرف لطلب العلم ⁽²⁾ . ويُعتبر " ابن مسكويه " من العلماء العِصاميّين القلائل ؛ الذين عرفتهم الحضارة الإسلاميّة ، إذ لم يتلمذ على أستاذٍ مُعيّنٍ ، و إنّما اعتمد على نفسه في توسيع ثقافته العلميّة ؛ مُستفيداً من عمله كخازنٍ ⁽³⁾ عند " عضد الدولة البويهّي " ، ممّا سمح له المجال بالإطّلاع على مختلف الكتب التي كانت تعجّ بها المكتبات ، فأضحى عالماً فاضلاً ، متمكناً و مُبدعاً في مختلف العلوم التّقليّة و العقليّة ؛ كالأدب ، العلوم الشرعيّة الفلسفة ، الكيمياء ، و الطبّ ... إلخ ، و كسب إحترام الجميع ؛ بما في ذلك وُلاة الأمور ، و احتلّ المكان اللائق في البلاط العبّاسي ، ويقول القفطي في هذا الشّأن : " ... إنّ أبا عليّ بن مسكويه هو من كبار فضلاء العجم و أجلاء فارس ، له مشاركة حسنة في العلوم الأدبيّة ، و العلوم القديمة ، منها : علم الحيوان ، كان خازناً للملك عضد الدولة البويهّي ، مأموناً لديه ، أثيراً عنده ، وله مناظرات و محاضرات ، و صولة و جولة ... " ⁽⁴⁾ .

و بالتّالي تمكّن " ابن مسكويه " من فرض وجوده بين علماء زمانه ؛ بالرّغم من كونه عِصامياً ، خاصّةً و أنّ العصر الذي عاش فيه شهد حركة علميّة واسعةً ، ميّزها إنتشار حركة الترجمة ، و تطوّر العلوم ، و تنوّعها ، و بروز

⁽¹⁾ أصفهان : و تُعرف أيضاً باسم " أصفهان " ، من أكبر مدن بلاد فارس ، يرجع تاريخها إلى العصور القديمة ، و لا يُعرف الشّيء الكثير عن تاريخها قبل الفتح الإسلامي . تُشتهر بكثافة سكّانها ، و كثرة مساجدها . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلّد 1 ، ص. 206 - 210 ؛ إبراهيم القرشي عثمان و آخرون : الموسوعة العربيّة العالميّة ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر و التوزيع ، الرياض 1416 هـ / 1996 م ، ج. 2 ، ص. 244 .

⁽²⁾ الدفّاع : إسهامات علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، ص. 126 .

⁽³⁾ الخازن : الخازن هو اللّسان ، و خازن الأمير هو الذي يتولّى حفظ ماله و إنفاقه . علي بن هاديّة و آخرون : المرجع السابق ، ص. 298 .

⁽⁴⁾ تاريخ الحكماء ، ص. 331 .

علماء ؛ أبداعوا فيها ، و أسهموا في الإزدهار الحضاري الذي عرفته الدولة العبّاسية ، ممّا جعل المنافسة بينهم على أشدّها ، فنال تقديريهم و إعجابهم ، بل إنّه واجه غيرة بعضهم ، على غرار ما حدث له مع الشيخ الرّئيس " ابن سينا " . و في هذا الصدد ، يروي لنا القفطي أنّ " ابن سينا " قال في بعض كتبه ؛ و قد ذكر مسألة : " ... فهذه المسألة حاضرتُ بها أبا علي مسكويه ، فاستعادها كراتٍ ، و كان عسير الفهم ، فتركته و لم يفهمها على الوجه المطلوب ... " (1) ، بل إنّ التنافس بين الرّجلين وصل إلى أبعد من هذا ؛ و في هذا الشّأن ، يُروى أنّ " ابن سينا " دخل على مجلسٍ فيه " ابن مسكويه " و تلاميذه ، فرماه بجوزةٍ و قال : بيّن مساحة هذه الجوزة بالشّعيرات ، فرفع " ابن مسكويه " أوراقاً في الأخلاق ، و رماها إلى " ابن سينا " و قال له : أمّا أنت فأصلح أخلاقك أولاً حتّى إستخراج المساحة ، و أنت أحوج إلى إصلاح أخلاقك ممّي إلى مساحة الجوزة (2) . و إنّ صحّت هذه الروايات ؛ فإنّ سلوك " ابن سينا " مع " ابن مسكويه " لا يليق بعالمٍ جليلٍ ، و طبيبٍ حكيمٍ مثل ابن سينا .

أمّا فيما يتعلّق بآثاره العلمية ؛ فقد ترك لنا هذا الطبيب الفيلسوف العديد من المؤلّفات و الكتب ، منها : كتاب في تاريخ الدولة العبّاسية حتّى عام 382 هـ / 982 م ؛ سمّاه : (تجارب الأمم و تعاقب الهمم) (3) و كتّبه : (الأنس الفريد) ، (ترتيب السعادات) ، (جاويدان خرد) ، (تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق) (المستوفي) (الأدوية المفردة)... إلخ ، كما كتب العديد من الرّسائل منها : رسالة في الطبيعة ، رسالة في جوهر النفس ، رسالة في اللذات و الآلام ، رسالة للرّد على بديع الزمان الهمداني... إلخ (4) .

(1) القفطي : المصدر السابق ، ص. 332 .

(2) جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربيّة ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت 1415 هـ / 1995 م ، ط. 3 ، ص. 209 .

(3) يسرى عبد الغني عبد الله : معجم المؤرّخين المسلمين ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1411 هـ / 1991 م ، ص. 166 .

(4) زهير حميدان : المرجع السابق ، ص. 98 ، 99 .

ب. 5. علي بن عباس الأهوازي :

هو أبو الحسن ، علي بن عباس الأهوازي ، المعروف باسم " المجوسي " ، المتوفى سنة 384 هـ ، يُنسب إلى مدينة الأهواز ؛ بالقرب من جنديسابور ، التي وُلد فيها ، هو طبيب فارسي ، ترك بصماته في الطب الإسلامي و نال إعجاب من حوله من الناس ، و الطلبة ، و كذا الأمراء البويهيين ، نظراً لغزارة علمه ، و سعة إطلاعه و حكمته ، و وقوفه عند تصانيف من سبقوه من الأطباء المسلمين و حكماء الأمم الأخرى ، لاسيما " أبقراط " و " جالينوس " و غيرهم (1) .

إنّ كثرة إطلاع الأهوازي على مؤلفات سابقه ، جعله يقرّر تصنيف كتاب شامل في ميدان الطب ، يحاول من خلاله شرح و تحليل و نقد أفكارهم و نظرياتهم ، و إنتقاء ما ينفع منها ، بالإعتماد على أسلوب بسيط ، ليكون هذا الكتاب الجديد مرجعاً لطلّاب العلوم الطّبيّة ، و قد سمّاه : (كامل الصناعة الطّبيّة) ، و لما إنتهى من تأليفه أهداه لصديقه عضد الدولة " فناخسرو البويهي " ، الذي سمّاه : (الملكي) ، كما سُمّي أيضاً : (القانون العضدي في الطب) (2) ، و يقول في مقدّمة كتابه : " ... أحببت أن أُصنّف كتاباً كاملاً في صناعة الطب ، جامعاً لما يحتاج إليه المتطبّبون و غيرهم ؛ من حفظ الصّحّة على الأصحّاء ، و ردها على المرضى ، إذ كنت لم أجد لأحد من القدماء و المحدثين من الأطباء ، كتاباً يحوي جميع ما يُحتاج إليه من بلوغ غاية هذه الصناعة ... " (3) ، و بالتّالي تمكّن الأهوازي من تأليف هذا الكتاب ، الذي كان بالفعل موسوعةً طبيّةً شاملةً آنذاك ، و واحداً من المؤلّفات الشهيرة و المهمّة في الطب الإسلامي في القرن الرابع الهجري (4) ، و تفوّق على جميع الكتب المعروفة يومذاك ، إذ

(1) الدقّاع : رؤاد علم الطب... ، ص. 247 .

(2) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 320 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطب ... ، ص. 277 .

(3) الأهوازي : المصدر السابق ، ص. 4 .

(4) الدقّاع : رؤاد علم الطب ... ، ص. 247 .

فضّله طلّاب العلوم الطّبيّة على كتاب (المنصوري) للرازي ، و (فردوس الحكمة) لابن ربن الطبري ، و بقي كذلك حتّى ظهور كتاب (القانون في الطبّ) لابن سينا ، فتحولوا إليه ، و يقول الففطي في هذا الصدد : " ... و صنّف للملك عضد الدولة " فحناسرو بن بويه " كُنّاشه المسمّى بالملكي ، و هو كتاب جليل في كُنّاشِ نبيلٍ إشتمل على علم الطبّ و عمله ، حسن الترتيب ، مال النَّاس إليه في وقته ، و لزموا دراسته إلى أن ظهر كتاب القانون في الطبّ لابن سينا ، فمالوا إليه ، و تركوا الملكي بعض التّرك ... " (1) .

و بالتّالي ، ظلّ هذا الكتاب مرجعاً مهمّاً ، لما يحتويه من شرحٍ مُفصّلٍ لمختلف الأمراض و العلل ، و طرق علاجها ، و نزعات علمية و أخلاقية راقية ، نالت إعجاب المؤرّخين ، الذين تناقلوها من بعده ، خاصّةً إلحاحه على الوقاية قدر المستطاع ، و الإعتناء بصحّة الجسم ، و تجنّب كلّ ما من شأنه أن يتسبّب في المرض ، كما نجده على غرار " الرازي " و " ابن سينا " ، ينصح بعدم اللّجوء إلى الأدوية المركّبة إلّا في الحالات الضرورية ، و تجنّب تناول الأدوية المجهولة ، كما أكّد على ضرورة معالجة المريض قبل اللّجوء إلى الأدوية (2) .

أمّا من الناحية الأخلاقية ، ينصح الأهوازي الأطباء بالتواضع ، و رقّة الكلام مع المرضى ، و الرّحمة و العطف على الفقراء ، و الإبتعاد عن اللّهو و شرب الخمر و الفجور ، و صفاء النّيّة في التّ نظر إلى التّساء ، و عدم وصف الأدوية القاتلة ، أو المساعدة على إسقاط الأجنّة ، و كثرة المداولة لأموال المرضى ، و ملازمة البيمارستانات ، كي يسهّل الإتّصال به في حالة الضرورة (3) . إنّ أهمية هذا الكتاب أدّت إلى ترجمته من طرف أطباء الغرب المسيحي

(1) تاريخ الحكماء ، ص. 332 .

(2) الدّفاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص 248 .

(3) الدّفاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص 249 ؛ حربي عبّاس و حسان حلاق : المرجع السابق ، ص. 291 .

و يُعتبر " قسطنطين الإفريقي " ⁽¹⁾ أول من ترجمه إلى اللغة اللاتينية ، لكنّه نسبه إليه ، و انتشر الكتاب إنتشاراً مُذهلاً في بلاد الغرب ، و صار كتاباً منهجياً في جميع المدارس الطبيّة ، و هذا منافع للأمانة العلمية ؛ التي كثيراً ما كان علماء الغرب المسيحي يفتخرون بها ، و ينسبونها إلى أعمالهم و مؤلفاتهم ، لكنّ هذه السرقة العلمية سرعان ما كشفها " إتيان الأنطاكي " ⁽²⁾ حيث ترجم الكتاب مرّة ثانية سنة 521 هـ ، بعد حصوله على المخطوط الأصلي ، و نسبه إلى صاحبه " علي بن عباس الأهوازي " ، و منذ ذلك الحين عُرف كتاب (كامل الصناعة الطبيّة) باسم مؤلفه الحقيقي .

ب . 6 . الحسن بن سوار :

هو الحسن بن سوار بن بابا البغدادي ، طبيب ينتمي إلى أسرة نصرانية من بغداد ، من أصل فارسي ، و يُعرف بـ " ابن بهنام بن الخمار " ، و بهنام باللغة الفارسية تعني الخير ⁽³⁾ ، و لئذا كُني بابن الخير ، أمّا تسميته بابن الخمار ، فلاذّ والده كان نصرانياً يصنع و يبيع الخمر . وُلد في بغداد سنة 331 هـ ، و يُجهل تاريخ وفاته ، لكنّ الثابت أنّه اعتنق الإسلام في آخر أيّامه ، و قد عُرف بذكائه ، و فطنته ، و سعة إطلاعه ، و غزارة علمه ، و كثرة مصنّفاته و يقول ابن القفطي في هذا الشأن : " ... الحسن بن سوار بن بابا أبو الخير ، المعروف بابن الخمار ...بغدادى فاضل ، منطقي ... و هو في نهاية الذكاء و الفطنة و الإطلاع على علوم أصحابه ، و مولده في شهر

⁽¹⁾ هو قسطنطين الإفريقي ، المتوفى سنة 1087 م ، وُلد في قرطاجنة ، و رحل إلى خراسان و بغداد و الشام و مصر و القيروان و الهند ، و لما رجع إلى تونس وقع أسيراً ، ثمّ اعتنق النصرانية ، و التحق بمدرسة " سالرنه " ، ثمّ ترهّب في دير " مونتى كاسينو " . عُرف بترجمته العديد من المؤلفات من العربية إلى اللاتينية ، و لكن يُعاب عليه أنّه كان ينسبها إلى أعماله ؛ و هو ما يتعارض مع الأمانة العلمية . نجيب العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف القاهرة ، ط. 4 ، ج. 1 ص 110 ؛ سلمان قطاية : " قسطنطين الإفريقي مرّة أخرى " ، مجلّة العربي ، العدد 333 ، أوت 1986 ، ص 64 .

⁽²⁾ إتيان الأنطاكي : و يُسمى أيضاً " إسطفان البيزاري " ، نُقل كتاب (الملكي) سنة 1127 م ، و كان من بين الأطباء الذين ظهروا خلال الحملات الصليبية ، حيث عمّد على نقل بعض كنوز المسلمين في علم الطب ، و حفظها للمسيحية . زنجريد هونكه : المرجع السابق ، ص. 297 .

⁽³⁾ أبى أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 428 .

ربيع الأوّل سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة ، و له تصانيف مذكورة ، و نقل من السريانية إلى اللغة العربية العديد من الكتب ... " (1) .

سار هذا الطبيب على درب من سبقه من أطباء العرب و المسلمين ، حين جمع بين الطبّ و علومٍ أُخرى كاللغة و الفلسفة و الأدب و الشعر ، فكان بحقّ موسوعةً علميةً نادرةً في زمانه ؛ نظراً لغزارة علمه ، و كثرة تصانيفه و مؤلفاته ، الشيء الذي جعله ينال إعجاب و إحترام النَّاس ، و يحظى بمكانة مرموقة عند ولاة الأمر و معاصريه من الأطباء ، كما كان مطلعاً على مؤلفات من سبقوه من أطباء الأمم الأخرى ، و كذا أطباء العرب و المسلمين ، إذ لم يكتفِ بالمطالعة و الترجمة ، و إنّما حاول الاستفادة من تلك الكتب و المؤلفات ، و التعليق عليها ؛ بالترجيح أو التقد ، معتمداً في ذلك على ما توصل إليه من نتائج ؛ بعد المشاهدة و التجربة ، ممّا سمح له بتشخيص أسباب الأمراض و العلل ، و وصف العلاج المناسب لها ؛ و هذا ما يُميّز المنهج العلمي عند الأطباء العرب و المسلمين عن غيرهم من أطباء الأمم السابقة ، الذين يعتمدون على نظرياتٍ فلسفيةٍ بعيدةٍ كلّ البعد عن الواقع ، و هذا ما أدركه العرب و المسلمون ، فراحوا يخضعون تلك النظريات إلى المشاهدة و الملاحظة و التجربة ويثرونها بالإضافات و التعليقات (2) .

إنّ هذا الطبيب الفيلسوف عُرف بتواضعه ، و رأفته بالمرضى ، و عطفه على الفقراء ، و تعاظمه على العظماء و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الشأن : " ... و ذلك إذا دعاه من أظهر العبادة و الزهد مشى إليه راجلاً و قال : جعلت هذا المشي كفارةً لِمُروري إلى أهل الفسق و الجباية ، و إذا دعاه السلطان ركب إليه في زيّ الملوك و العظماء ... " (3) ، كما عُرف عنه ؛ معارضته الشديدة لكلّ أشكال السحر و الشعوذة و الدّجل في علاج

(1) القفطي : المصدر السابق ، ص. 194 .

(2) الدّفاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 258 .

(3) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص 429 .

المرضى ؛ بالرغم من كونه قضى معظم حياته نصرانياً ، و في هذا الشأن ؛ يُروى عنه أنّه اقترح كثيراً من الحلول للقضاء على هذه الظاهرة السيئة ، و لعلّ من أهمّها تلك المقالة التي ألفها للأمير " خوارزم شاه " ؛ و هي عبارة عن مقالة خاصة في إمتحان الطبّ ، تضع شروطاً على الأطباء لممارسة هذه المهنة ، من بينها الإلتزام بعدم اللجوء إلى أيّ شكلٍ من أشكال الدّجل و الشعوذة ، فكان من الأمير خوارزم شاه أن عمّمها بدوره على جميع الأطباء ، كما أنّ الحسن بن سوار يتميّز عن غيره من الأطباء المسلمين في كونه أبدى اهتماماً بالغاً بصحة المستنّين ، بل إنّّه شرح ما توصل إليه من أبحاثٍ حول الحالات المرضية التي تصيب كبار السنّ ، و طرق علاجها في كتابه : (تدبير المشايخ) ؛ على طريقة المسألة و الجواب ، و الذي أصبح مرجعاً مهمّاً لدى الباحثين و طلاب العلوم الطّبية ، و ظلّ كذلك لفترةٍ طويلةٍ من الزمن (1) .

إنّ الحسن بن سوار كما أشرنا سابقاً ، قضى معظم حياته في دين النصرانية ، لكنّه اقتنع في آخر حياته بالإسلام ، فاعتنقه بعد تردّد طويلٍ ؛ و لأنّه كان عالماً ذكياً فطناً ؛ و بحكم نشأته في مجتمعٍ مسلمٍ ، اطّلع على القرآن الكريم ، و لاحظ ما يحتويه من قيمٍ إنسانيةٍ راقيةٍ ، و من إعجازٍ علميٍّ خارقٍ ، فاعتنق به ، و أدرك أنّه الدّين الحقّ . أمّا عن قصة إسلامه ؛ فيروى أنّه أسلم على يدّ الأمير " سبكتكين " (2) سنة 408 هـ ؛ بعد أن دعاه إلى قصره في غزنة (3) .

أمّا فيما يخصّ مؤلّفات هذا الطّبيب فهي كثيرة ، منها : كتاب (تدبير المشايخ) السابق ذكره ، و كتاب (الوفاق بين رأي الفلاسفة و النصارى) ، و مقالة في الهيلولي ، و مقالة في الصديق و الصداقة ، و مقالة في سيرة

(1) الدّعاء : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 260 .

(2) سبكتكين (ت. 351 / 962 هـ) : أحد أعظم ملوك الدولة الغزنوية ، و المؤسس الحقيقي لها ، وصل إلى الحكم سنة 366 هـ ، و تمكّن من توسيع نفوذ دولته في خراسان ، و أجزاء هامّة في الهند و البنجاب ، و أقام علاقات ودية مع السامانيين . عبد السلام الترماني : المرجع السابق مج. 2 ، ص 901 ؛ يوسف علي بديوي : المرجع السابق ، ص. 271 ، 272 .

(3) غزنه : مدينة عظيمة ، و ولاية واسعة في طرف خراسان ، و هي الحدّ بينها و بين الهند . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج. 4 ، ص. 201 .

الفيلسوف ، و مقالة في الجوّ ، و مقالة في السعادة ، و مقالة في الإفصاح على رأي القدماء في الباري تعالى و في الشرائع و مورديها ، و مقالة في المرض المعروف بالكاهني (1) .

ب . 7 . أحمد بن محمد الطبري :

هو أحمد بن محمد الطبري ، يُكْتَبُ بِأبي الحسن ، لا تُعرف سنة ميلاده و لا وفاته ، و لكنّ الأرجح أنّه كان حيّاً قبل عام 366 هـ ، طبيب من طبرستان ، عاش مُتَنَقِّلاً بين أقاليم بلاد فارس ؛ كالري ، و الأهواز ، و همدان و أصفهان . ذاع صيته ، و نال شهرةً عظيمةً بين مُعاصريه ، و كان محلّ إعجابٍ و إحترامٍ من حوله من النَّاسِ في كلّ المناطق التي حلّ بها ؛ نظراً لذكائه ، و سعة إطلاعه ، و ثقافته الواسعة ، و تفوّقه على أطباء زمانه ، الشيء الذي جعل الأمراء يُقَرِّبونه إليهم ؛ لاسيما والي الأهواز ، ثمّ علا به المقام ؛ إلى أن أصبح الطبيب الخاص للخليفة " ركن الدّين البويهبي " (2) .

إنّ وصول الطبري إلى هذه المكانة العلمية الراقية ؛ يعود لإحتكاكه و استفادته ممّن عاصره من الأطباء المسلمين على غرار " الأهوازي " ، و كذا لكثرة إطلاعه على مؤلّفات أطباء الأمم الأخرى ؛ خاصةً " أبقرط " ، إذ عكف على قراءتها ، و بذل جهداً كبيراً في تحقيقها و شرحها ، بل إنّه ألّف كتاباً خاصاً سمّاه : (المعالجات البقرطية) يعرض فيه آراء و أفكار " أبقرط " الطبيّة ؛ ليثبت مدى تحلّي الطبيب المسلم بالأمانة العلمية ، من خلال نسبة الأعمال إلى أصحابها ، و بالتالي تمكّن هذا الطبيب من تقديم و توضيح معلومات ضرورية لعلاج الإنسان من رأسه إلى قدمه ، و قد سُمّي هذا الكتاب : (الكنّاش) . و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الشّأن : " ... و لأحمد بن

(1) القفطي : المصدر السابق ، ص 194 ؛ الدّقاع : رؤاد علم الطبّ عند العرب و المسلمين ، ص. 260 .

(2) الدّقاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 240 .

محمد الطبري من الكتب (الكُنَّاش) المعروف بالمعالجات البقرائية ، و هو من أجلّ الكتب و أنفعها ، و قد استقصى فيه ذكر الأمراض و مداواتها على أتمّ ما يكون ، و هو يحتوي على مقالاتٍ كثيرةٍ ... " (1)

إنّ ما يميّز هذا الطبيب عن غيره من أطباء العرب و المسلمين ؛ هو تخصّصه في طبّ الأطفال ، بل إنّهُ يُعتبر من الأوائل الذين أسّسوا هذا العلم ؛ إلى جانب الرّازي ، و لعلّ ما جاء في كتابه (الكُنَّاش) خير دليلٍ على تفوّقه في هذا الإختصاص ، إذ يعرض شرحاً مفصّلاً للأمراض المختلفة ؛ التي يتعرّض لها الطفل منذ ولادته إلى غاية بلوغه سنّ الرّشد ، و طرق علاجها ؛ فنجدهُ يُلحّ على ضرورة العناية بالطفل ، و تغديته إلى غاية نموّ أسنانه . أمّا فيما يخصّ تلك الأمراض ؛ فهي كثيرةٌ ؛ منها : الجرب ، الصرع ، الكزاز ، الإسهال ، أمراض الأنف ، أمراض العين الزوائد اللّحمية ، أمراض الفمّ و اللّسان ، أمراض الجهاز البولي... إلخ . و بالتّالي أولى الطبري عنايةً خاصّةً للأمراض التي تُصيب الطفل ، و طرق علاجها ، فتفوّق على كثيرٍ من أطباء زمانه في هذا الإختصاص ، و يرجع له الفضل في فصله عن طبّ البالغين ، لأنّه كان مُقتنعاً بأنّ هناك بعض الأمراض التي تُصيب الطفل ؛ لا يتعرّض لها البالغ و العكس صحيح ، كما أنّه عارض سابقه من الأطباء ؛ عندما ألحّ على ضرورة علاج الطفل نفسه ، و عدم الإكتفاء بعلاج المرضعة ، ممّا يدلّ على أنّه السّباق إلى هذا العلم . و قد زوّي عنه أنّه قال : " ... وهذا أمرٌ لم يتكلّم فيه واحدٌ من الأوائل كلاماً شافياً ، و اعتمدوا في ذلك على أنّ الطبّ عام ، و علمُهُ يشتمل على الأطفال و غيرهم ... و ذكر بعض الفلاسفة أنّ معالجة الأطفال هو من مقام جزئيات من الأمراض ، و أنّ إستخراج معالجتهم على الطبيب ؛ ... فلا بدّ من مداواة الطبيب ... " (2) .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 427 .

(2) الطبري ، نقلاً عن : الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ص 261 .

و من النصائح التي يُقدّمها هذا الطبيب لحفظ صحّة المولود أو الرضيع ؛ هو ضرورة تنظيف الحبل السريّ لأنّ تلوّثه يُسبّب الكزاز ، إضافةً إلى استعمال لبن الأمّ للمولود ، و تفادي استخدام أدوية البالغين للأطفال ؛ لأنّ معدّتهم و مزاجهم لا يحتمل ذلك ⁽¹⁾ .

ب . 8 . ابن مندويه الأصفهاني :

هو أحمد بن عبد الله بن مندويه ، يُكنّى بـ " أبي علي " ، و يُلقب بـ " الأصفهاني " ، المتوفّي سنة 410 هـ ، أحد عباقرة الطبّ الإسلامي ، ولد في " أصفهان " ، و نشأ في بيئة علمٍ و أدبٍ ، إذ تتلمذ على يد والده ؛ الذي كان أديباً و شاعراً معروفاً في بلاد فارس ، و لكنّه سلك طريقاً آخرأ ، يختلف عن طريق والده الأديب ، فاختار الطبّ و في هذا الشأن ، يقول ابن أبي أصيبعة " ... هو أبو علي أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه ، من الأطباء المذكورين في بلا العجم وخدم هناك جماعة من ملوكها و رؤسائها ، و كانت له أعمال مشهورة في صناعة الطبّ . و كان من البيوت الأجلأ بأصفهان ، فكان أبوه عبد الرحمن بن مندويه فاضلاً في علم الأدب ، وافر الدّين ، له أشعار حسنة... " ⁽²⁾ .

درس ابن مندويه العلوم الطبيّة و الصيدلانية ، و تفنّن فيها حتّى ذاع صيته بين زملائه بأعمالها الرائعة في هذا المجال و على غرار من سبقه من الأطباء المسلمين ، جمع ابن مندويه بين علومٍ عديدهٍ ، فإلى جانب الطبّ ؛ كان مفكراً حكيماً و فيلسوفاً ، و مطلعاً على العلوم الدّينية و الطبيعيّة ، فنال شهرةً عظيمةً في بغداد ، الشيّء الذي جعله يُختار ضمن أربعة و عشرين طبيباً ؛ عيّنهم " عضد الدولة " البويهّي ، ليعملوا كأطبّاء في اليمارستان العضدي الذي أنشأه في بغداد سنة 370 هـ ⁽³⁾ فكان هذا الإختيار نقطة تحوّل حاسمة في حياته العلمية ، إذ سمح له بتطوير

⁽¹⁾ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص . 241 .

⁽²⁾ عيون الأنباء في طبقات ... ص . 459 .

⁽³⁾ القفطي : تاريخ الحكماء ، ص 338 ؛ الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص . 270 .

معارفه و بحوثه الطّبيّة ، و بلور بوضوح أساليب المعالجات ؛ المبنية على التجربة العلمية ، و مكّنه من الإطّلاع على مؤلّفات من سبقوه من الأطّباء ، و إثرائها بالشرح و التفصيل ، و أحياناً بالنّقد و الإعتراض عليها ، فكان ذلك منطلقاً لتأليف كتابه المشهور (نهاية الإختصار في الطبّ) ؛ الذي كتبه بأسلوبٍ سهلٍ واضحٍ ، فكان شاملاً كاملاً و متداولاً بين طلاب العلوم الطّبيّة و الصيدلانية (1) .

إضافةً إلى هذا الكتاب ، كان للأصفهاني أكثر من أربعين رسالة ؛ وجهها لأصحابه كنصائح ، تحتوي في مجملها معارف و إرشادات طّبيّة قيّمة ، شملت إختصاصات متعدّدة منها : رسالة في علاج العين ، و أخرى في تدبير الجسد ، و رسالة في القولنج (2) ، و رسالة في علاج الحكّة ، و أخرى في النّفس و الروح عند اليونانيين (3) ، أمّا فيما يخص الكتب التي ألفها فهي كثيرة ، و من أشهرها : كتب (المدخل إلى الطبّ) ، (كنّاش الطبّ) (الجامع المختصر في الطبّ) ، (الأظعمة و الأشربة) ، (المغيث في الطبّ) ، (الكافي في الطبّ) ، الذي يُعرف بكتاب القانون الصغير (4) .

ب . 9 . علي بن هندو :

هو علي بن الحسين بن هندو ، المكنّى بـ " أبي الفرج " ، و يُلقب بالبغدادي ، المتوفّى سنة 420 هـ ، طبيب فارسي ، نشأ و ترعرع في نياسابور ، و على غرار الأطّباء الموالي الذين سبق ذكرهم ، جمع ابن هندو بين الحكمة و الطبّ و الأدب و الفلسفة ، فلم تمنعه نشأته في بلاد فارس من تعلّم العربية ، و إجادتها إجادَةً رائعةً ، تفوق

(1) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 271 .

(2) القولنج : هو انسداد المعى ، و إمتناع خروج الريح منه ، و هو مُشتق من القولون ؛ الذي فوق المستقيم . الخوارزمي : المصدر السابق ص. 188 ؛ زهير حمدان : المرجع السابق ، ص. 137 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 460 .

(4) المصدر نفسه ، ص 461 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص. 438 .

حتّى بعض العرب أنفسهم ، و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الشأن : " ... هو الأستاذ الفاضل ، أبو الفرج بن الحسين بن هندو ، من الأكابر المتميّزين في العلوم الحكّمية و الأمور الطّبيّة و الفنون الأدبية ، له الألفاظ الرّائقة و الأشعار الفائقة ، و التصانيف المشهورة ، و الفضائل المذكورة ، و كان أيضاً كاتباً مجيداً ، و خدم بالكتابة و تصرّف ... " (1) ، كما عُرف عنه أنّه كان عصامياً في ثقافته ، حيث أكبّ على الدّراسة حتّى نال إحترام الجميع ؛ بما فيهم أمراء بني بويه ، الذين قرّبوه إليهم ، ففضى بذلك بقية حياته خادماً في ديوان عضد الدولة البويهبي ، فتولّى بنجاح المراسلات الخاصة التي من المكتب الخاص (2) .

أبدع ابن هندو في العلوم الطّبيّة ، و أسهم في تعليمها لطلّابه ، و تجلّى ذلك من خلال معالجاته لمختلف العلل و الأمراض ، و كذا لكثرة مؤلّفاته في هذا المجال ، و إطلّاعه على كتب من سبقوه من أطباء المسلمين و الأمم الأخرى ، و إراثها بالدّراسة و الملاحظة و التّقد ، فاشتملت مؤلّفاته على قدرٍ كبيرٍ من الإضافات العلمية في علمي الطّبّ و الصيدلة ، فنراه يُلجّ دائماً على أهمّيّة الملاحظة و التجربة في الطّبّ ، عكس النظريات المبنية على الأفكار الفلسفية ، و هذا من سمات المنهج العلمي عند الأطباء المسلمين بصفةٍ عامّةٍ ، و يقول في هذا الصدد : " ... أرى أنّ الأسكندرانيين ، إنّما اقتصرُوا على الكتب الستّة عشر ، لا من حيث هي كافية في الطّبّ ، و حاوية للغرض بل من حيث إفتقرت إلى المعلّم ، و احتاجت إلى المفسّر ، و لا يمكن أن يقف المتعلّم على أسرارها و المعاني الغامضة فيها من غير مذاكرة ، و مطارحة ، و من دون مراجعة و مفاوضة ... " (3) .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 429 ، 430 .

(2) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 277 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 430 .

يعتبر كتاب (مفتاح الطبّ) من أشهر المؤلفات الطّبيّة لابن هندو ، إذ يحتوي على معلومات مهمّة حول طريقة علاج الأمراض و الوقاية منها ⁽¹⁾ ، و يحتوي هذا الكتاب على عشرة أبواب ، حاول من خلالها إبراز آراء من سبقوه ، ثمّ عرض مختلف الأمراض و العلل ، و أسبابها ، و أمزجة الأعضاء ، و أساليب معالجتها باستخدام الأدوية المفردة و المركّبة ، و في هذا الشّأن ؛ و على غرار من سبقه من الأطبّاء المسلمين ، نجد يوصي بغدم اللّحوء إلى الأدوية المركّبة إلّا اضطراراً ، و تفادي الأدوية المجهولة ⁽²⁾ .

إضافةً إلى هذا الكتاب ، ألف ابن هندو كتاباً أخرى ، اتّسمت في مجملها بسهولة اللّغة ، و خلّوها من التعقيد و الإطناب ، من أهمّها : كتب (في حدود الأشياء الطّبيّة) ، (الكلم الروحانية من الحكم اليونانية) ، (التّفيس) (الرسالة المشرقية) ... إلخ ⁽³⁾ ، أمّ في مجال الحكمة ، فقد عُرف هذا الطّبيب بحكمه المشهورة مثل : " عظمّ العلم في ذاتك ، و صغرّ الدنيا في عينيك ، و أخرج من سلطان شهوتك " و " كُن ضعيفاً عن الهزل ، و قويّاً عند الجدّ " و " العاقل لا يُكلّف نفسه ما لا تُطيق ، و لا يسعى فيما لا يُدرك ، و لا ينظر فيما لا يعنيه ، و لا يُنفق إلّا بقدر ما عنده من الإستطاعة " و " إنّما المرء حيث جعل نفسه " ⁽⁴⁾ .

لم يكتفِ ابن هندو بالطبّ و الحكمة و الأدب فحسب ، و إنّما كان شاعراً كبيراً ، و له ديوان في الشعر ، أبدع فيه ، من خلال قصائده الخالدة ؛ التي استعمل فيها مختلف بحور الشعر المعروفة كالطويل و القصير و الكامل ، ذكر بعضها ابن أبي أصيبعة ، مثال ما قاله في الصّبر :

(1) الدّفاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 277 .

(2) المرجع نفسه ، ص 279 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 435 .

(4) البيهقي : تاريخ الحكماء ، ص. 95 .

تصبر إذا همّ أسرى إليك فلا همّ يبقى ولا صاحبه (1)

و قال في مراجعة الشعر بعد تركه إيّاه :

و كنت تركت الشعر بعد تركه إيّاه و أكبر عن مدح و أزهّد عن غزل

فما زال بي حبيك حتى تطلّعت خواطر شعريّ كان طالعه أفل

نزّل القوافي عن لساني كأنّها يفاع يزلّ السيل منه على عجل (2)

و ما يمكن قوله في الأخير حول ابن هندو ، هو أنّ إبداعه في الحكمة و الطبّ و الأدب و الشعر ، جعله ينال

شهرةً عظيمةً في زمانه ، و يحظى باحترام من حوله من النَّاس ، و كذا المؤرّخين ؛ الذين وصفوه بالأديب البارِع .

. ب . 10 . ابن سينا :

هو الشيخ الرّئيس ، أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا ، أحد أشهر حُكّماء المسلمين ، و واحد من أبرز

أعلام الطبّ الإسلامي عبر عصوره المختلفة ، و رائد من رؤاد الفكر الإنساني ، و المعلّم الثالث للإنسانية بعد

أرسطو و الفارابي (3) ، وُلد في منطقة " أفشنة " ؛ إحدى قرى بُخارى ، عاش بين (371 هـ . 428 هـ) ، نشأ

في أسرةٍ ؛ عُرفت بِحُبّها و تشجيعها للعلم ، إذ كان والده حريصاً على تعليمه مُختلف العلوم العقلية و التّقليدية المعروفة

آنذاك . و رغم صغر سنّه ، فإنّه كان قويّ الإرادة و العزيمة ، جيّد الحفظ ، كثير التأمل ، واسع النظر ، مُتواضعاً في

سلوكه ، حكيماً في أقواله ، فنبغ في العلوم الدّينية ، و اللّغة ، و الشعر ، و الفلسفة ، و الكيمياء ، و الطبّ

و نال إحترام من حوله (4) ، و حظي بتقدير علماء زمانه ، و وُلاة الأمور فيما بعد .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ، ص 431 .

(2) المصدر نفسه ، ص 434 .

(3) عبد الخليم منتصر : المرجع السابق ، ص 127 .

(4) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 437 ، 438 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص 413 .

إنّ الفترة التي عاش فيها " ابن سينا " من أزهى عصور الحضارة الإسلامية ؛ شهدت إنتشاراً واسعاً لحركة الترجمة وتنوّع العلوم النّقلية و العقلية ، و غزارة المؤلّفات ، و كثرة العلماء ، و تنافسهم في إثراء المكتبات بالمؤلّفات و الكتب ، إضافةً إلى تشجيع ولاة الأمور للعلم و المعرفة ؛ على غرار حُكّام الدولة السّامانية ، التي عاش في كنفه هذا الطبيب الحكيم . فكلّ هذه الظروف جعلته ينكبّ على مطالعة كتب سابقيه من علماء المسلمين ، و كذا الأمم السابقة ، فقرأ كتب المنطق و الفلسفة لأرسطو⁽¹⁾ ، و أفلاطون⁽²⁾ ، و إطلّع على كتب الرياضيات و الهندسة لإقليدس⁽³⁾ ، و درس كتب الطبّ لأبقراط و جالينوس ، و بالتالي تمكّن من إكتساب ثقافة واسعة ساعدته فيما وصل إليه من مكانة . و كغيره من علماء العرب و المسلمين ؛ لم يكتف " ابن سينا " بمطالعة هذه المؤلّفات ، و إنّما أثارها بالشرح و الملاحظة و التعليق و النّقد و الإضافات ، و كان من الذين أرسوا دعائم المنهج

(1) أرسطو (460 . 370 ق م) : فيلسوف يوناني ، تتلمذ على يدّ " أفلاطون " ، و علّم " الإسكندر المقدوني " ، عُرف عنه أنّه كان يُحاضر ماشياً فشمي هو و أتباعه : " المشائين " . ألّف العديد من الكتب في الفلسفة و المنطق منها : (السماع الطبيعي) ، (الكون و الفساد) ، (السماء) (الأورغانون) ... إلخ . القفطي : المصدر السابق ، ص. 27 ؛ كمال محمد الدسوقي و آخرون : الموسوعة العربية الميسرة ، ط. 2 ، مج. 1 دار الجيل ، بيروت 2001 ، ص. 10 .

(2) أفلاطون (427 . 347 ق م) : فيلسوف و معلّم يوناني قديم ، يُعدّ واحداً من أهمّ المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية ، تتلمذ على يدّ " سقراط " معظم مؤلّفاته مُحاورات ؛ عالج فيها موضوعات مختلفة كالرياضيات ، و الفلسفة ، و المنطق ، و التربية ، و الحبّ و الصداقة ، و الفضيلة . أشهر محاورات أفلاطون : كتاب (الجمهورية) ، و قد رسم فيه صورةً للمدينة الفاضلة ؛ كما تخيلها ، مُعلنًا أنّ لا صلاح للجنس البشري إلّا إذا أصبح الفلاسفة حُكّاماً أو أصبح الحُكّام فلاسفة . ابن جلجل : المصدر السابق ، ص. 23 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص 17 ؛ كمال محمد الدسوقي و آخرون : المرجع نفسه ، المجلّد 1 ، ص. 247 ؛ منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 60 .

(3) أقليدس (365 . 300 ق م) : عالم رياضيات يوناني ، نشأ في مدينة الإسكندرية ؛ في عهد " بطلميوس الثاني " ، و درس الرياضيات فيها و وضع فيها مبادئ الهندسة المستوية ، أشهر آثاره كتاب (الأصول في الهندسة) ؛ و هو يتكوّن من ثلاثة عشر جزءاً ، حشد فيها عدداً من النظريات الهندسية ، و نسّقها تنسيقاً منطقياً ، كما أنّه درس الموسيقى و علم البصريات . منير البعلبكي : المرجع السابق ، ص. 60 .

العلمي الإسلامي الجديد ، و يتجلى ذلك من خلال قوله : " ... حسبنا ما كُتِبَ من شروحٍ لمذاهب القدماء ... لقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا ... " (1) .

إنّ التكوين الدّيني لابن سينا في صباه ؛ كان له الأثر البالغ فيما وصل إليه من مكانةٍ بين الناس و علماء زمانه إذ أنّه حفظ القرآن و هو دون العاشرة من عمره ، و اطلع على أصول الفقه و العقيدة و الحديث ، ممّا أكسبه ثقافةً لغويةً كبيرةً ، و فصاحةً و بلاغةً ؛ نafs بهما علماء اللّغة في زمانه .

و يُروى في صدد إتقانه اللّغة العربية ؛ أنّه كما جالساً في مجلسٍ حضره الأمير " علاء الدّين " (2) ، و " أبو منصور الجبائي " (3) ، فتناقش القوم في مسألة لغوية ؛ تكلم فيها الشيخ الرئيس دون أن يُتنع الحضور ، فقال له أبو منصور : إنّك فيلسوفٌ و حكيمٌ ، و لكنك لم تقرأ في اللّغة ما يُرضي كلامك ، ممّا سبّب إخراجاً شديداً له ، فعزم على توسيع ثقافته اللّغوية ، و انكبّ على مطالعة كتب اللّغة و قصائد الشعر ثلاث سنوات ، فكان له ما أراد ؛ إذ بلغ من الفصاحة و البلاغة ما لم يبلغه الكثير من علماء زمانه ، فأنشأ ثلاث قصائد ، و ألف ثلاثة كتب ؛ ضمّنها ألفاظاً غريبةً في اللّغة ، ثمّ أمر بتجليدها ، ثمّ سأل الأمير عرضها على " أبي منصور الجبائي " لينتقدّها ، و قيل له أنّها كتبتُ عُثر عليها في الصحراء ، فنظر " أبو منصور " ، و أشكل عليه كثيرٌ ممّا فيها ، فقال له الحكيم " ابن سينا " : إنّ ما تجهله مذكورٌ في موضع كذا و كذا ، و ذكر له كتباً معروفةً في اللّغة ؛ كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها ، ففتن أبو منصور أنّ هذه القصائد ، و تلك الكتب من إنشاء الشيخ ، فاعتذر له (4) .

(1) الدّفاع : روائع الحضارة العربية الإسلامية ، ص. 47 .

(2) الأمير علاء الدّين : هو محمد بن دشمنزار بن كاكوية ، حكم بلاد الريّ ، و كان أميراً على أصفهان بعد وفاة محمود بن سبكتكين سنة 420 هـ /

1030 م ، استوزر ابن سينا و قرّبه إليه ، ولكنّه توفي بعد سنه من حكمه ؛ أي سنة 421 هـ . ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 441 .

(3) أبو منصور الجبائي : من علماء اللّغة في زمانه . ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 442 .

(4) ظهير الدين البيهقي : المصدر السابق ، ص 65 ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 442 ، 443 ؛ أحمد شوكت الشطّي : =

و إلى جانب اللّغة ؛ أبدع الشيخ " ابن سينا " في الشعر ، و نafs بقصائده حتّى فطاحلة الشعر في زمانه
و ممّا قاله فيمن آذاه و حسده بين معاصريه :

عجباً لِقَوْمٍ يَحْسُدُونَ فِضَائِلِي ما بين غيابي إلى عذابي
عُتِبُوا عَلَيَّ فَضْلِي وَ ذَمُّوا حِكْمَتِي و استوحشوا ما نقصهم بكما لي
إِنِّي وَ كَيْدِهِمْ وَ ما عْتَبُوا بِهِ كالطّود يحقر نطحة الأوعال
وَ إِذا الْفَتَى عَرَفَ الرِّشَادَ لِنَفْسِهِ هانت عليه ملامة الجّهال (1)

كما ألّف قصيدة رائعة حول النَّفس ، و ممّا قاله الشيخ الحكيم فيها :

هبطت إليك من المحلّ الأرفع و رقاء ذات تعزّز و تمّنع
محبوبة عن كلّ مقلة عارف و هي التي سفرت و لم تتبرقع
وصلت على كرهٍ إليك و زُيِّما كرهت فراقك و هي ذات تفجع
أَنْفَتْ وَ ما أَنْسَتْ فَلَمّا واصلت أَلَفَتْ مجاورة الخراب البلقع (2)

أمّا فيما يخصّ علم الطبّ ؛ الذي أبدع فيه " ابن سينا " ، فإنّه كان يعتبره كفرع من فروع الفلسفة ، لذلك
دأب على التوسّع في الآراء و النظريات الفلسفية القديمة ، فلم تكن دراسته للطبّ تهدف في الأصل إلى اتّخاذ مهنة
للكسب ، إذ كان يُعالج المرضى دون أجرٍ ، و بالتالي ذاع صيته ، و زادت شهرته ؛ فأخذ النَّاس يتهافتون عليه

= المرجع السابق ، ص 240 ؛ محمد حسن عرقسوسي : ابن سينا و النفس البشرية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 م ، ط. 2 ، ص 63

؛ جميل صليبا : المرجع السابق ، ص 209 .

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 453 .

(2) المصدر نفسه ، ص 446 .

و يتحدثون عن أعاجيبه ، و أسلوبه في العلاج ، و ما لبث أن صار من كبار معلّمي الطبّ ، فنال بذلك احترام و تقدير الجميع ؛ بما في ذلك الملوك و الأمراء ، منهم سلطان بخارى " نوح بن منصور " ، الذي دعاه ليدأويه (1) .

بدأ " ابن سينا " التأليف و التصنيف و هو في الحادي و العشرين من عمره ؛ بعد أن فرغ من دراسة مختلف العلوم ، و تمكّن بعبقريته النادرة من تأليف كتبٍ كثيرةٍ ؛ وصل عددها مائتين و ستّ و سبعين كتاباً ، لم يكتبها في بلدٍ واحدٍ ، و لا في فترةٍ متّصلةٍ ، إذ كان يُحرّر رسائله الصغيرة في أثناء رحلاته و أسفاره ، بل حتّى أثناء سجنه فكان إذا عزم السفر حمل أوراقه قبل زاده ، و إذا دخل السجن طلب المداد و الأوراق قبل الأكل و الشرب (2) .

أمّا فيما يخصّ مؤلّفاته ؛ فقد أُعْتُبرت بحقّ كنزاً علمياً ثميناً ، إستفادت منه الحضارة الإسلامية بشكلٍ خاصٍ و الحضارة الإنسانية بشكلٍ عامٍ ، إذ كانت تُمثّل مراجع هامةً لإطّلاب العلم في الكثير من الإختصاصات ؛ لاسيما الطبّ . و في هذا الصدد ؛ ألف أهمّ و أجلّ كتبه و مؤلّفاته ، و هو كتاب (القانون في الطبّ) ، الذي كان يُمثّل موسوعةً طبّيةً نادرةً في زمانه ، و حتى بعد وفاته ؛ لما يحتويه هذا الكتاب من السلامة في العرض ، و السلاسة في الأسلوب ، و الوضوح في البيان ، مع الدّقة ، و الأمانة العلمية ؛ التي تنتزع التقدير و الإعجاب . فقد تناول هذا الكتاب شرحاً مفصّلاً لوظائف الأعضاء ، و الأمراض و العلل التي تُصيب الجسم ، و طرق علاجها و كذا علم الأدوية ؛ المفردة منها و المركّبة ، فأضحى كتاب (القانون في الطبّ) مرجعاً مهماً لطلبة العلوم الطّبية و الصيدلانية في العالم الإسلامي ، و كذا الغرب المسيحي ، و ظلّ كذلك لمدّةٍ طويلةٍ من الزمن ، فترجم إلى اللّغات الأوربية المختلفة ، و طبع خمسة عشر مرّةً ، و كان العمدة في دراسة الطبّ في الجامعات الأوربية حتّى مُنتصف القرن السابع عشر ميلادي (3) .

(1) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص 245 .

(2) الدّقاع : روائع الحضارة العربية الإسلامية ، ص 46 .

(3) عبد الحلّيم منتصر : المرجع السابق ، ص 128 .

إضافةً إلى هذا الكتاب النفيس ، ألف " ابن سينا " كُتُباً أُخرى ؛ لا تقلُّ أهميّةً عنه ، و أهمّها : كتب :
 (الشفاء) (الأرصاء الكلّية) ، (الإنصاف) ، (النّجاة) ، (الهداية) ، (الأدوية القلبية) (الإرشادات)
 (الموجز) (المختصر الأوسط) ، ، (بعض الحكمة المشرقية) ، (بيان ذوات الجهة) ، (الإشارة في المنطق)
 (المبدأ و المعاد) ، (حيّ بن يقظان) ، (أقسام من الحكمة) ، (عيون الحكمة) ، (القولنج) ... إلخ . أمّا عن
 رسائله ، فهي أيضاً كثيرةٌ ؛ منها : رسالة في القضاء و القدر ، رسالة المنطق بالشعر ، رسالة في الآلة الرصدية
 رسالة في مختصر النّبض ؛ بالفارسية ، رسالة في الحدود ، رسالة في الأجرام السماوية ، رسالة في إختصار إقليدس
 رسالة في نعوت المواضيع الجدلية ... (1) .

إنّ المكانة التي وصل إليها هذا الفيلسوف الحكيم ، و هذا الإبداع النّادر الذي ميّز أعمال الشيخ الرّئيس
 جعله عُرضةً للحسد و المؤامرة ؛ خاصةً من المرتزقة ؛ المحيطين بولاية الأمور آنذاك ، فسُرقت بعض كُتُبهِ الثمينة
 و أُدخل السّجن مرّتين ، مرّةً في عهد الأمير " شمس الدّين البويهبي " ؛ حاكم همذان ، و مرّةً في عهد الأمير
 " علاء الدّين (2) .

و يُروى أن " ابن سينا " أُصيب في آخر أيّامه بمرض القولنج ؛ عجز عن علاجه ، فكان سبباً في وفاته في سنة
 ثمانٍ و عشرين و أربعمئة ، و كان عمره آنذاك ثلاثاً و خمسين سنّةً . وكان من الوصايا التي تركها ؛ تلك التي
 أوصى بها أحد أصدقائه يُسمى : " أبوسعيد ابن أبي الخير الصوفي " قائلاً : " ... ليكن الله تعالى أوّل فكرٍ له
 و آخره ، و باطن كلّ إعتبارٍ و ظاهره ، و لتكن عين نفسه مكحولَةً بالنّظر إليه ، و قدّمها موقوفة على المشول بين

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 457 ، 458 ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص 418 ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج. 3

(2) ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه ، ص 441 ؛ الدّقاع : روائع الحضارة العربية الإسلامية ، ص 47 .

يديه ، مُسافراً بِعقله في الملكوتِ الأعلى ؛ و ما فيه من آياتِ ربّه الأعلى ، و إذا انحطّ إلى قراره ، فليُنزّه الله تعالى في آثاره ، فإنّه باطنٌ ظاهرٌ ؛ تجلّى لكلّ شيءٍ بكلّ شيء ... " (1) .

ب . 11 . الحسن القمري :

هو الحسن بن نوح القمري ، يُكنّى بأبي منصور ، لا يُعرف تاريخ ميلاده و لا وفاته ، و لكنّ المتواتر أنّه كان حيّاً سنة 428 هـ ، هو طبيب فارسي ، وُلد في بُخارى ، ثمّ إنتقل إلى بغداد ، و عاش فيها بقية حياته ، يُعتبر من أشهر الأطباء الذين عرفهم العالم الإسلامي في زمانه ؛ نظراً لمنهجه العلمي الرّاقى في التدريس ، و طريقتة العلمية الرائعة التي إنتهجها في تأليف الكتب الطّبية ، و هو ما زاد من علوّ شأنه ، و كثرة تلاميذه ؛ إذ كان من بينهم أحد كبار أطباء الإسلام عبر عصوره المختلفة ، و هو الشيخ الرئيس " ابن سينا " ؛ الذي كان يُلازمه ، و يدرس عليه حتّى تفتنّ في الطبّ (2) .

لقد عُرف هذا الطبيب بسعة إطلاعه ، و غزارة علمه ، و كثرة مؤلّفاته ، و شهرته الكبيرة في ميدان الطبّ و مكانته المرموقة بين النّاس و أطباء زمانه ، و كذا قرّبه الكبير من الأمراء و ولاة الأمر ، و يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الصدد : " ... كان أبو منصور الحسن بن نوح القمري سيّد قومه ، و أوحد زمانه ، مشهوراً في الجوده في صناعة الطبّ ، محمود الطريقة في أعمالها ، فاضلاً في أصولها و فروعها ، و كان رحمه الله ؛ جيّد المعالجة و المداواة متميّراً عند الملوك في زمانه ، كثيري الإحترام له ... " (3) .

إنّ كثرة إطلاع الحسن القمري على مؤلّفات من سبقه من أطباء الأمم الأخرى ، و أطباء العرب و المسلمين زادت من توسيع ثقافته العلمية ، و إثراء معرفته الطّبية ، و فتحت له المجال للملاحظة و الشرح و التفصيل

(1) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 445 .

(2) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 315 .

(3) عيون الأنباء في ... ، ص. 435 .

و التّقد أحياناً ، و شجّعته على التّأليف ؛ و كما أشرنا إليه سابقاً ، فإنّ لهذا الطّبيب أسلوباً متميّزاً في التّأليف نال به إعجاب أطباء زمانه ، و وجد فيه تلاميذه سهولةً بالغةً في إستيعاب ما تحتويه مؤلّفاته من وصفٍ للحالات المرضية ، و طرق علاجها ، و يُعتبر كتابه : (التنوير في الإصطلاحات الطّبية) من أهمّ و أشهر تلك المؤلّفات و هو كتاب من عشرة أبوابٍ ؛ يحتوي على شرحٍ للمصطلحات العلمية التي كانت مُتداولةً بين الأطباء ، و كذا المعارف الضرورية التي يحتاجها الطّبيب الممارس ، و كذا طلبه العلوم الطّبية و الصيدلانية ؛ في تخصّصات مختلفة كعلم الأمراض ، و الصيدلة ، و الأوزان ، و المكييل ...⁽¹⁾ ، و ما يُلاحظ في هذا الكتاب ، أنّ الحسن القمري قد جمع آراء من سبقه من القدماء ، و كذا المعاصرين له ، و قدّمه بأسلوبٍ لغويٍّ سهلٍ و بسيطٍ ، بعيدٍ كلّ البعد عن التعقيد ؛ إذ أنّ التعريفات الخاصة بالمصطلحات كانت لاتزيد عن جملةٍ أو جملتين⁽²⁾ .

إضافةً إلى هذا الكتاب الثمين ، ألف ابن منصور القمري كتباً أخرى ، لا تقلّ أهميّةً عنه ؛ ظلّت مراجع هامة لطلاب العلوم الطّبية من بعده ، و من تلك المؤلّفات (مقالات في الطبّ) ، (أسامي العلل) ، (الغيّيّ و الميّيّ) (الشمسية المنصورية في الطبّ) ... إلخ⁽³⁾ .

ب . 12 . النجيب السمرقندي :

هو محمد بن علي بن عمر السمرقندي ، المكنّى بـ " أبي حامد " ، و يُلقب بنجيب الدّين ، وُلد في هراة⁽⁴⁾ عاش في أواخر العصر العباسي ؛ أي في مرحلةٍ صعبةٍ شهدتها الأمة الإسلامية ، طغت عليها الفوضى و اللإستقرار

(1) الدقّاع : رؤاد علم الطبّ ... ، ص. 315 .

(2) الدقّاع : المرجع نفسه ، ص. 313 ، 314 .

(3) المرجع نفسه ، ص. 315 .

(4) هراة : من أكبر ، و أجلّ ، و أحسن مدن خراسان ، كانت تُعرف بكثافة سُكّانها ، و شساعة بساطينها ، و وفرة مياهها ، و خيراتها ، و كثرة

عُلمائها ، الشيعيّ الذي جعلها غرضةً للغزاة المغول ؛ الذين دخلوها سنة 618 هـ ، فقتلوا أهلها ، و نهبوا أرضها ، و قضوا على علمائها . ياقوت

الحموي : معجم البلدان ، المجلّد 5 ، ص. 396 ، 397 .

و تمزّق الوحدة السياسية للدولة ، و تنامي الحركات الانفصالية في الأقاليم ، و كذا التكالب الأجنبي على الدولة إثر تواصل الخطر البيزنطي في الغرب ، و ظهور الخطر المغولي في الشرق . تُعتبر المنطقة التي عاش فيها النجيب السمرقندي من المناطق الأولى التي إستهدفها الزحف المغولي ، هؤلاء البرابرة ؛ أي المغول ، قاموا في عهد قائدهم " جنكيزخان " ⁽¹⁾ باجتياح الدولة الخوارزمية ⁽²⁾ في تركستان ، و بخارى ، و أجزاء هامّة من بلاد فارس ، و خرّبووا المراكز الإسلامية ، و أخرجوا الكتب و المخطوطات ، و إستهدفوا علماء الأُمَّة الإسلامية ؛ و النجيب السمرقندي واحد من هؤلاء ، فكان من بين الآلاف من الشهداء الذين قتلهم المغول في هراة سنة 619 هـ .

السمرقندي هو من أشهر الأطباء الذين عرفتهم بلاد فارس ، عُرف بثقافته الواسعة ، و خبرته الكبيرة في ميدان العلوم الطبيّة و الصيدلانية ، و أسلوبه الفريد في التأليف ، و دقّته ، و أمانته العلمية ، ممّا جعله يحظى بمكانة مرموقة

⁽¹⁾ جنكيزخان (1167 - 1227) : قائد مغولي ؛ اسمه الأصلي " تيموجين " ، و يُقال أنّ تسميته بهذا الاسم ؛ أنّ أباه " يكوساي " كان غائباً قبل ولادته ؛ إذ كان يُحارب التتار ؛ و قد قضى على زعيم لهم يُسمى " تيموجين " ، و لما عاد إلى دياره ؛ وجد زوجته قد أنجبت له ابناً ، و حينما فُحص الطفل ؛ لاحظ أنّ بداخل قبضة يده قطعة من الدّم المتجمّد ؛ فترأى للزعيم المغولي أنّ هذا الحدث يُشير إلى ما أحرّزه من نصرٍ على زعيم التتار و لذا أطلق على ابنه اسم هذا الزعيم ؛ تخليداً لإنتصاره . لقد كان لجنكيزخان الفضل في توحيد القبائل المغولية ، و توسيع نفوذ دولتهم ؛ ليشمل أجزاء هامّة من الصين و توسّع نحو الحدود الشرقية للدولة الإسلامية ؛ فتمكّن هذا القائد في الفترة الممتدة بين (1218 - 1224) من السيطرة على تركستان و بلاد ما وراء النهر ، و الإغارة على بلاد فارس ، توفي في أثناء حربه ضدّ " الشان " ، و قُسمت مملكته بين أبنائه الثلاث . عُرفت حروب جنكيزخان بالمذابح الزهيمية . لكنّه كان حاكماً بارعاً ، و بقيت إمبراطوريته قائمةً حتّى 1368 . الباز العربي : المغول ، دار التّهضة العربية ، بيروت 1406 هـ / 1986 ص. 24 ؛ محمد شفيق غرنال : الموسوعة العربية الميسرة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1965 ، مج. 1 ، ص. 650 .

⁽²⁾ الدولة الخوارزمية (470 . 628 هـ / 1077 . 1235 هـ) : هي إحدى الدول التي في بلاد ما وراء النهر ، دام وجودها مائة و ثمانية و ثلاثون سنةً ، و تعاقب على حُكمها عشرة ملوك ؛ أشهرهم " محمد بن أنوشتكين " الذي كان مملوكاً تركياً لبعض الأمراء السلاجقة . و نظراً لإخلاصه و خدمته للسلاجقة ؛ وُلّي على بلاد خوارزم ، و لُقّب : " خوارزم شاه " ؛ و خلّفه ابنه " أتسز " ؛ الذي دخل في نزاعٍ مع السلاجقة ، و استقلّ عنهم سنة 536 هـ ، و قد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمدّ رقعتهما ، و تُثبت أقدامها أكثر من قرنٍ ، و لم تسقط إلّا بعد الغزو المغولي . القرمانبي : المصدر السابق ، مج. 2 ، ص. 463 ؛ يوسف علي بديوي : المرجع السابق ، ص. 288 - 289 .

بين علماء زمانه ، و يكسب إحترام و تقدير من حوله (1) ، و في هذا الشأن ؛ يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه :
 " ... نجيب الدين أبو حامد بن علي بن عمر السمرقندي طبيب فاضل بارع ، و له كتب جليلة ، و تصانيف مشهورة ... و قُتِلَ مع جملة من الناس ؛ الذين قُتِلوا بمدينة هراة ، لما دخلها المغول ، و كان مُعاصراً للعلامة فخر الدين الرازي بن الخطيب ... " (2) .

إنّ هذا الطبيب ؛ كغيره من أطباء العرب و المسلمين ، عكف على مطالعة مؤلفات سابقه ، كابن سينا و الرازي ، و الأهوازي ، و الطبري ، و غيرهم ، و أثرها بالشرح و التفصيل ، و قدّم أفكاراً جديدةً ؛ معتمداً على الملاحظة و التجربة العلمية ، و ألف كتباً جديدةً في ميدان الطب ؛ صارت فيما بعد من المراجع المهمة للباحثين في هذا العلم ، و من أهمّ تلك المؤلفات : (الأسباب و العلاقات) ، (غاية الغرض في معالجة المرض) (في الطب) ، (الأدوية المفردة) ، (أصول تركيب الأدوية) ، (الأقراباذين الكبير) (الأقراباذين الصغير) (تركيب الأدوية القلبية) (تشريح العين) ، (أغذية المرضى) ، رسالة في مداواة وجع المفاصل (3) .

و ما يُمكن قوله في الأخير ؛ أنّ هؤلاء العظماء لم يقتصر إبداعهم في مجال الطب فحسب ؛ و إنّما تعدّى ذلك إلى العلوم العقلية و التقلية الأخرى ؛ كالأدب ، الفلسفة ، الشعر ، الكيمياء ، الفلك ، الجغرافيا ، التاريخ ... إلخ و هي ميزةٌ إشتراك فيها أغلب علماء الأمة الإسلامية ؛ عَرَبِيّمْ و عَجَمِيّمْ . و من حُسن حظّ هؤلاء أنّهم عاشوا في أزهى عصور الدولة العباسية ؛ أي العصرين الثاني و الثالث ؛ حين ازدهرت حركة الترجمة و التأليف ، و حرّصَ

(1) الدقاق : رؤاد ص. 411 .

(2) عيون الأنباء ... ، ص. 472 ؛ مارتين ليفي و نوري الخالدي : " الكيمياء في أقراباذين السمرقندي " ، مجلّة الأبحاث ، الدار الشرقية للطباعة و النشر بيروت ، السنة 17 . الجزء 1 ، آذار 1964 ، ص. 35 .

(3) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص. 472 ؛ الدقاق : رؤاد ص. 412 ؛ مارتين ليفي و نوري الخالدي : المرجع السابق ، ص. 35 .

خلفاء بني العبّاس و ملوك " بني بُويه " على تشجيع العلم ، و دفع عجلته إلى الأمام ، و هو ما دفع بهؤلاء الأعاجم إلى المشاركة في تنشيط الحياة العلمية إلى جانب العرب ؛ فعمت آثارهم الفكرية البلاد الإسلامية و كثرت إسهاماتهم العلمية في شتى العلوم ، فعكفوا على ترجمة المؤلفات الطّبية للأمم السّابقة ، و عملوا على إثرائها بالشرح و التحليل و النّقد ، و دأبوا على التصنيف و التّأليف ؛ ممّا مكّنهم من وضع معارف طبّية جديدة ، و إبتكار منهج علمي ؛ قائم على التجربة و الملاحظة و الإستقصاء .

الفصل الخامس

أثر أطباء العصر العباسي على الغرب المسيحي

1. السبق في إكتشاف الأمراض

2. طرق العلاج

3. الجانب الإنساني

4. المؤلفات

بعد استعراضنا لإسهامات بعض أطباء العصر العباسي ، و تعريفنا لأشهرهم ؛ لفت إنتباهنا أمورٌ عديدةٌ ، تميّز بها هؤلاء عن غيرهم من أطباء زمانهم و من سبقهم و من جاء من بعدهم ، فلم يكتفوا بالنقل و الإقتباس و الترجمة ، و إنما عكفوا على تحليل ، و شرح ، و نقد مؤلفات سابقهم ، و إرثائها بالآراء و الملاحظات ، إمّا بالترجيح ، أو الإعتراض في بعض الأحيان ، إعتياداً على ما توصّلوا إليه من نتائج ؛ بعد الملاحظة و التجربة طبعاً . و بالتالي تمكّنوا من تأسيس مناهج علمية خاصة بهم ، و إكتشاف معارف طبّية جديدة ، بل وصل بهم الأمر إلى السّبق في إكتشاف بعض الأمراض الخطيرة و المستعصية ؛ من خلال تشخيصها ، و شرح أسبابها و أعراضها ، و وصف العلاج المناسب لها ، و أساليب الوقاية منها ؛ و التي أثبت الطبّ الحديث صحتّها و نجاعتها ، و بذلك أعطت تلك المعارف دفعاً جديداً للعلوم الطّبية و الصيدلانية ، و وضعت حدّاً لمعاناة البشرية من بعض الأمراض الخطيرة ، و الحالات التي كان ميؤوساً منها ، كما كان لها الأثر البالغ فيما وصل إليه الطبّ الحديث .

أولاً : السّبق في إكتشاف الأمراض

إنّ السّبق في إكتشاف الأمراض و وصف العلاج لها ، جعل من هؤلاء الأطباء محلّ إحترام و إعجاب الجميع و جعلت من مؤلّفاتهم مراجع مهمّة لطلبة العلوم الطّبية و الصيدلانية في البلاد الإسلامية ، و محلّ إهتمام و ترجمة علماء الأمم الأخرى ؛ لاسيما في بلاد الغرب المسيحي ، و سأحاول بحول الله في هذا البحث المتواضع التطرّق إلى تلك الأمراض ، مبيّناً إكتشافات بعض الأطباء ؛ السابق ذكرهم في الفصل الرابع .

يُعتبر " الرّازي " واحداً من هؤلاء الأطباء الموالى ؛ الذين قدّموا خدماتٍ جليّةٍ للإنسانية ، بفضل ذكائه الفائق و حكمته النّادرة ، و مواهبه الكبيرة في ميدان الطبّ ؛ التي برزت عندما كان في البيمارستان العسدي (1) ببغداد

(1) الدقّاع : رُواد علم الطب ص. 212 .

فتوصل إلى إبتكارات علمية ؛ لم يسبقه إليها أحد من زملائه في المهنة ، و لعلَّ خير مثالٍ على ذلك ؛ تمكّنه من إكتشاف مرضي " الجدري " و " الحصبة " ؛ اللذان كان ميؤوساً منهما ، و حصداً ، و لا يزالان لحدّ الآن يحصدان أرواحاً بشريةً . فقد تمكّن هذا الطبيب الكبير من تشخيص أعراضهما ، و إعطاء وصفٍ دقيقٍ لهما ، و وصف العلاج المناسب لهما في القرن الرابع الهجري ؛ من خلال رسالة في الجدري و الحصبة ، كتبها لأمير بخارى " المنصور " ⁽¹⁾ ، و قد تُرجمت هذه الرسالة إلى اللاتينية في زمنٍ مُتقدّمٍ ، ثم نُقلت بعدها إلى لغاتٍ أُخرى عديدة ؛ لاسيما الإنجليزية ، حيث طُبعت بها حوالي أربعين مرّةً خلال الفترة الممتدّة بين (1498 . 1866) ، و بهذه الرسالة وصلنا أوّل وصفٍ دقيقٍ لهذين المرضين ⁽²⁾ .

لقد أبدع " الرّازي " في وصف مرضي الجدري و الحصبة ، إذ يرى أنّهما يشتركان في بعض الأعراض ، كالحمّى و وجع الظهر ، و حكاك الأنف ، و التفرّغ من التّوم ، و اشتعال اللّون ، و شدّة حمرة الوجنتين ، و إحمّار العينين و ثقل الجسد ، و كثرة التملّمل ، و التثاؤب ، و وجع في الحلق و الصدر ، و ضيق التنفّس ، و السّعلة و غلظ الرّيق ، و بحّة الصوت ... إلخ ، و بالرّغم من اشتراكهما في هذه الأعراض الكثيرة ؛ إلا أنّ " الرّازي " بفضل إطلاعه الواسع ، و ملاحظاته الدقيقة ، تمكّن من التفريق بينها ؛ إذ يرى أنّ القلق و الضجر و الكرب أكثر منه في الجدري ، و وجع الظهر في الجدري أخصّ منه بالحصبة . و بعد ذلك ؛ حاول هذا الطبيب وصف العلاج المناسب لهما ، و قدّم نصائح وافية لإعلاج البثور ، و إزالة تلك الندوب و الحفر الجلدية على البشرة ؛ بعد إنتهاء المرض ⁽³⁾ .

(1) حري عبّاس و حستان حلاق : المرجع السابق ، ص. 292 .

(2) أرلوند توماس و آخرون : المرجع السابق ، ص. 464 .

(3) نفسه .

إنَّ هذا الإكتشاف العظيم ؛ وضع حدّاً لأكثر الأمراض فتكاً بالنّاس ، و مهّد الطريق لطلبة العلوم الطّبيّة و الأطباء المسلمين الذين جاؤوا من بعده ؛ من تطوير أساليب علاج " الجدري و الحصبة " ، إذ استعملوا طريقة التطعيم للوقاية من الأمراض الوبائية ، فكانوا يُطعمون السليم بمادة مُستخرجة من بثره الجدري نفسه في بداية اليوم الثامن ، و بهذه الطريقة ؛ قلّت نسبة الوفيات بنسبةٍ كبيرةٍ في البلاد الإسلامية ، و أضحى هذا المرض الخطير مجرد مرضٍ بسيطٍ ؛ يُمكن مقاومته بالتطعيم .

إنَّ تأثير هذا الإكتشاف لم يقتصر على البلاد الإسلامية ، و إنّما تعدّاه إلى بلدانٍ أخرى ؛ لاسيما الغرب المسيحي . و في هذا الشّأن ؛ يسرد علينا أحمد شوكت الشّطي قصّة وصول هذا الإكتشاف العظيم إلى الغرب مُستنداً إلى رسالة كتبها " ماري مُنتاغو " . زوجة سفير إنجلترا في البلاد العثمانية . سنة 1717¹ ؛ إلى إحدى صديقاتها ، تُخبرها بأنّها لما زارت مدينة " أدرنه " ⁽¹⁾ ، وجدت أنّ مرض الجدري خفيف الوطأة فيها ، مقارنةً ببلادها ؛ أين لا يزال يفتك بالنّاس ، و أنّ هذا المرض الخطير لا يُخشى شرّه هنا ، لأنّهم اخترعوا علاجاً يُسمونه " التطعيم " ، و يُطعمون النّاس في شهر سبتمبر . أيلول . ؛ حينما تنخفض درجة الحرارة ، و قد يتطعمون في أرجلهم ، أو في مكانٍ لا يظهر من أذرعهم ، و أخبرت أنّها أنّها لم يُذكر أن مات أحد من التطعيم ، و أنّها تعتزم على تطعيم نفسها و ابنها ، و تجتهد في إذاعة هذا الإختراع في إنجلترا ⁽²⁾ ، و لما عادت " ماري مُنتاغو " إلى بلادها شرعت في إذاعة التطعيم ، و إتصلت ببعض الأطباء ، و حاولت إقناعهم بجدواه ، و رغم أنّ الحكومة البريطانية لم تُصادق عليه إلا بعد ستّين عاماً ، فإنّه شهد إقبالاً عظيماً من عامة النّاس ؛ لأنّهم جرّبوه ، و أدركوا مدى نفعه

⁽¹⁾ أدرنه : مدينة تركية ؛ تقع على نهر مارنيسيا ؛ قرب الحدود اليونانية ، كانت عاصمة العثمانيين في الفترة ما بين (1362 · 1453) ، فيها العديد من الآثار البيزنطية و الإسلامية ؛ أهمّها " جامع السليمية " . محمد أمين الخانجي : المرجع السابق ، ص. 172 ؛ أمانة أبو حجر : المرجع السابق ص. 254 .

⁽²⁾ تاريخ الطبّ ، أعلامه و آدابه ، ص. 223 .

بل إنَّ زوجة وليِّ عهد إنجلترا اقتنعت بفائدته ، و طعمت به أولادها أيضاً⁽¹⁾ .

و من الإكتشافات المهمّة للرازي في ميدان الطبِّ ؛ إكتشافه لخِيط الجراحة ؛ المصنوعة من أمعاء الحيوانات فكان هذا الإكتشاف نُقطة تحوّل حاسمة في تايخ الطبِّ الجراحي ، فأصبحت تُستعمل في جميع العمليات الجراحية في العالم الإسلامي ، ثمَّ بلاد الغرب المسيحي ؛ بل ما زالت لها دور مهمّ في علم الجراحة ، إذ أثبت الطبِّ الحديث أنّ الخيوط المعمولة من الأمعاء يمتصها الجسم و يقبلها ، فتصير جزءاً منه⁽²⁾ . و كما أشرنا إليه سابقاً ؛ فإنَّ الرازي هو أوّل من فرّق بين الجراحة و غيرها من الموضوعات الطبيّة ، و أوّل من جعل هذا العلم قائماً على التشريح و منافع الأغذية ، بل إنَّ طريقة خياطته لمختلف الأعضاء ؛ كانت فريدة ، و في غاية المهارة ، و محلّ إعجاب غيره من الأطباء ؛ مثال ذلك ، ما ذكرته " زبيد هونكه " : " ... إنّ الرازي علّم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكلٍ داخليّ ، لا يترك شيئاً منها ... " ⁽³⁾ ، و هو ما ذكرناه سابقاً .

و من الإنجازات العظيمة التي تُنسب إلى الرازي دون غيره من الأطباء ؛ هو تشخيصه لما تُسمّيه اليوم بـ " الأمراض الوظيفية " ، إذ أدرك الأصول النفسانية لإلتهاب المفاصل الروماتزمي ، و وصف طرقٍ جديدةٍ لإعلاجه و هو ما تطرّقنا إليه سابقاً ؛ أثناء سردنا لقصة علاجه لأمير بخارى ، و كذا الجارية ؛ التي تقوّست قامتها ، فأدرك بذكائه الفائق ، و حسّه الطبيّ العميق ؛ أن هذا الداء من الأمراض الجسدية النّاتجة عن اضطرابات نفسية ، و أكثر الناس عُرضةً له ؛ أولئك الذين يكظمون نوبات الغضب في أعماقهم ، لذلك اعتُبر مُبتكر الطبِّ النفسي⁽⁴⁾ .

(1) محمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 224 .

(2) الدقّاع : رُوّاد علم الطبِّ ، ص. 212 .

(3) شمس العرب تسطع من الغرب ، ص. 278 .

(4) الدقّاع : رُوّاد علم الطبِّ ، ص. 213 .

إنَّ ابتكارات الرَّازي و سَبَبُهُ لاكتشاف الأمراض و علاجها ؛ لم يقف عند هذا الحدِّ ، و إنما تعدَّاه إلى ابتكاراتٍ و إنجازاتٍ عظيمة ؛ كان لها الأثر الكبير فيما وصل إليه الطبُّ الحديث ، فهو أوَّل من عالج الحمى بالماء البارد ، كما استعمله في علاج الحروق ⁽¹⁾ ؛ و هي طريقة حديثة جداً ، و تُستعمل في الوقت الحاضر كإجراء إسعافٍ أوَّلٍ لحروق الأطراف ؛ حيث يوضع العضو المصاب في الماء البارد لمدة لا تقلَّ عن دقيقتين ، و قد أثبتت التجربة أنَّ هذه الطريقة تقلِّل من الألم في ظرفٍ وجيزٍ .

إضافةً إلى كلِّ هذا ؛ يُعتبر الرَّازي أوَّل من شخَّص أمراض المثانة تشخيصاً علمياً دقيقاً ، كما أنَّه قدَّم شرحاً دقيقاً لجراحة إستخراج الماء الأبيض من العين ، و اكتشف براءة تادرة البول السكري ، و استخدم الحقن الدوائية في علاج بعض الأمراض ، كما كان له الفضل الكبير في علاج مرض " الطاعون " ⁽²⁾ ؛ الذي يُعتبر من الأوبئة الخطيرة التي عانت منها البشرية في العصور القديمة و الوسطى ، كما كتب في أمراض الأطفال ، و حاول فصله عن طبِّ الكبار ⁽³⁾ .

أمَّا الشيخ الرَّئيس " ابن سينا " ؛ فإنجازاته و ابتكاراته الطَّبية لا تزال شاهدةً على عبقريته و حكيمته و دهائه و مهَّدت الطريق لعلاج العديد من الأمراض المستعصية آنذاك . فالمتصفح لكتاب (القانون) يُلاحظ أنَّ هذا الطيب كان سباقاً في تقديم أوصافٍ دقيقةٍ لكثير من الأمراض و العلل ؛ يصعبُ أن تُضيفَ إليها شيئاً في هذا العصر ، و عاجلها بطرقٍ تُضاهي ما يفعله الأطباء في زماننا .

(1) Gustave Le Bon : op . cit , p 452 .

(2) الطاعون : هو داء ورمي ، وبائي ، مُعدٍ ؛ يُصيب الجرذان ، و تنتقل عدواه بواسطة لدغ البراغيث ؛ التي تعيش مُتطفلةً على هذه الحيوانات . عبد الرحيم مارديني : المرجع السابق ، ص . 274 .

(3) الدفَّاع : زُواد علم الطبِّ ، ص . 213 .

إنَّ ابن سينا هو أوَّل من وضع تشخيصاً كاملاً للحمرة الفحمية ؛ التي تُعرف اليوم بـ "الجمرة الخبيثة" (1) و سَمَّى الحمى التي تنتج عنها بـ "الحمى الفارسية" ؛ و هو يقول في هذا الشأن : "... و أُطِيقَ إسم الجمرة على كلِّ ما يُسودُّ المكان ، و يُفحَّم العضو من غير رطوبة ، و يكون غائصاً ... و جميع ذلك يبتدئُ بحكَّةٍ كالجرَبِ و قد يتنفَّط بالنَّار الفارسية و الجمر ، و يسيل منه شيءٌ كما يسيل من المكاوي محترق يكوي الموضع ، رمادي في لونه ، و قد يكون مع هذه حميات شديدة الرِّداء قتالة ... (2) . كما أنَّه يُعتبر من الأوائل الذين خاضوا في علم الطُّفيليات ؛ من خلال وصفه لِداء "اليرقان" ، و كشفه للدودة التي تُسبِّبه ؛ التي تُسمَّى اليوم بـ "الأنكليلوستوما" (3) ، و قد ذكر محمد بن عبد الرَّحمن مرحبا في كتابه ، أنَّ أحد الأطباء المعاصرين ؛ لما اطَّلَعَ على الفصل الخاص بالدَّيدان المعوية من كتاب (القانون) ، و بعد أن دقَّق في محتواه ؛ تبَيَّن له أنَّ الدودة التي ذكرها ابن سينا هي ما تُسمِّيه اليوم بـ : "الأنكليلوستوما" (4) .

لقد أبدع ابن سينا في وصف الأعراض و أمراضها ، و صفراً لا نزال نأخذ بنصيبٍ وافرٍ منه حتَّى اليوم ؛ فهو أوَّل من وصف تصلُّب الرِّقبة ، و أوَّل من أعطى بعض التفاصيل لإستئصال اللُّوزتين ، كما قدَّم لنا شروحاتٍ مُفصَّلة لأنواع الأورام السرطانية ، و كيفية إستئصالها ؛ كسرطان الكبد ، و سرطان التَّدي ، و أورام داء الخنازير ، إضافةً إلى أنَّه

(1) الجمرة الخبيثة : مرض يُصيب المشية و الخيل ، يتميَّز بارتفاعٍ شديدٍ في درجة الحرارة ، و يظهر بُقع حمراء ؛ سرعان ما تتحوصل ، لِتُشبه الفقاعة و تُغطِّيها قشرة سوداء ؛ فاحمة من نزيفٍ أسودٍ كالفحم ، و يتوقَّى المريض في غُضون أسبوعٍ إذا لم يُعالج . محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ص. 297 .

(2) ابن سينا : القانون في الطبِّ ، مج. 3 ، ص. 1916 .

(3) عفيفي محمَّد الصادق : المرجع السابق ، ص. 177 .

(4) المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، ص. 297 .

من الأطباء الأوائل ؛ الذين وصفوا أعراض حصى المثانة ، و السكتة الدماغية ، و القرحة الدرنية ، و القولنج الكبدية و الكلوي ، و ذات الرئة ، و ذات الجنب ، و شلل الوجه (1) .

أمّا فيما يتعلّق بالطبِّ النفسي ؛ فإنّ لهذا العملاق إنجازاتٍ عظيمة ، و أساليب علاج فريدةً من نوعها إنتهجها الأطباء من بعده ، و لا يزال يعتمد عليها الطبُّ الحديث ؛ لاسيما فيما يتعلّق بالإضطرابات العقلية و النفسية ، و كذا طبِّ النفس الجسدي ، و الأمثلة عديدةً في هذا الشأن ؛ ذكرنا بعضها في الفصل الثاني من هذا البحث ، و سنذكر بحول الله بعضها الآخر في هذا الفصل . و كما قلنا سابقاً ؛ فإنّ هذا الحكيم قد خصّص أقساماً مستقلةً من كتبه للأمراض العقلية و النفسية ، و رنط بعضها بالتغيّرات الفسيولوجية ، و أثبت أنّ بعضها ينعكس على عملية التّبض ؛ من خلال تشخيصه لمرض العشق ، و قد ذكرنا قصّة علاجه لشابٍ معشوقٍ تعرّض لإضطراباتٍ نفسيةٍ أقدته الفراش (2) ، و يقول ابن سينا إنّ معرفة المعشوق تُفيد الطبيب المداوي و المريض نفسه ، و يُشبه هذا المنهج في العلاج النفسي التحليل النفسي المعاصر ؛ الذي يستهدف كشف القناع عن مكبوتات المريض ؛ المنسية و المتراكمة في أعماق اللاشعور ، و كان ابن سينا ينصح للشفاء من علّة العشق بالتّوم و الإهتمام بالتغذية ، و إلهاء المريض عن معشوقته ، و صرفه عنها ، و توجيهه إلى أمورٍ أخرى ، و هو منهج متّبع في الوقت الحالي ؛ إذ ينصح الأطباء مرضى العشق بالتفرّغ لنشاطاتٍ ؛ من شأنها أن تُنسيه معشوقته ، و تُقوي شخصيته ، و تُفيد المجتمع ؛ كالأنشطة الرياضيّة و الكشفية و العلمية و الثقافية ، و الإشتراك في مشاريع الخدمة العامة (3) ، كما عالج الإكتئاب و الوهم بطريقةً ذكيّةً نادرةً نالت إعجاب الأطباء من بعده ، و طبّقوها لعلاج مثل هذه الحالات ، و لا يزال الطبُّ النفسي الحديث يعتمد عليها ، و قد ذكرنا سابقاً ؛ كيف عالج ذلك الشّخص

(1) محمّد بن عبد الرحمان مرجبا : المرجع السابق ، ص. 297 .

(2) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 252 ، 253 .

(3) عبد الرحمن محمد العيسوي : علم النفس الإكلينيكي ، ص. 41 .

الذي توهم أنه بقرة ، و امتنع عن الأكل ، و كاد أن يهلك ، إضافةً إلى كلِّ هذا ؛ فإنَّ لابن سينا فضل السَّبَق في استخدام الأحلام في الكشف عن العلل و العقد النَّفسية ؛ إذ اعتبر أنَّ الأحلام الرديئة و المزعجة و المشوشة و تلك التي ينساها الفرد ؛ لكلِّ دلالته في الكشف عن المرض ⁽¹⁾ ، و هو بذلك سبق العالم المشهور " فرويد " ⁽²⁾ بمئات السنين في هذا المجال .

و كان لابن سينا فضل السَّبَق في التعرّف على ما نصِّفه الآن بفصام الشَّخصية ؛ فيصف أعراض هذا المرض و يُشير إلى إلى تخيُّل أشياء لا وُجود لها ؛ و هي تُعرف الآن باسم " الهلاوس السَّمعية " ؛ كسماع المريض أناساً يسبُّونه و يتَّهمونه ، أو " الهلاوس البصرية " ؛ كَرؤية أشياء غير موجودةٍ في الواقع ⁽³⁾ .

إنَّ عبقرية ابن سينا في الطبِّ النَّفسي لم تقف عند هذا الحدِّ ، و إنما توصَّل إلى حقائق مهمّة ؛ أثبت الطبُّ الحديث صحَّتها ، فهو أوَّل من تكلم عن وحدة النَّفس و الجسد ، و أثبت صحَّة رأيه ؛ من خلال نقله من الميدان النَّظري إلى التجريبي ، و لعلَّ تجربة " الحمل و الدُّب " من التجارب التي أثبتت نظريته ، و أذهلت أطباء الغرب المسيحي ؛ الذين توصَّلوا إلى هذه الحقيقة بعد مرور المئات من السنين ، فقد قام هذا الطبيب بِربط ذئبٍ و حملٍ في غرفةٍ واحدةٍ ، و حرص على أن لا يتمكَّن أحدهما من الإقترابِ من الآخر أو يُلامِسُه ، ثمَّ راح يُراقب ما يطرأ على الحمل من تغيّراتٍ ، فكانت النتيجة ؛ أن أُصيب الحمل بِهزالٍ شديدٍ ، أدَّى إلى وفاته ؛ بسبب ما كان يعتريه من الفزع و الخوف ، و ليتأكَّد من نتائج هذه التجربة ؛ أعادها مرَّاتٍ عديدةٍ ، و أفضت إلى نفس النتائج ⁽⁴⁾ ، و قد

(1) عبد الرحمن محمد العيسوي : علم النَّفس الإكلينيكي ، ص. 31 .

(2) فرويد سيجموند (1856 . 1939) : طبيب نمساوي ، مؤسس مدرسة التحليل النَّفسي ، وُلد في " مورافيا " ، و عاش معظم حياته في " فيينا " من أهمِّ كُتبه : (تفسير الأحلام) ، (مدخل إلى التحليل النَّفسي) ، (حياتي و التحليل النَّفسي) ... إلخ . كمال محمد الدسوقي و آخرون : المرجع السابق ، ص. 1746 .

(3) عبد الرحمن محمد العيسوي : علم النَّفس الإكلينيكي ، ص. 34 .

(4) محمد بن عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص. 302 .

حاول الدكتور " محمد بن عبد الرحمن مرحبا " مقارنة هذه التجربة ببعض تجارب القرن العشرين ؛ التي تُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ تجربة ابن سينا ، و أفضت إلى نفس النتائج ، و أثبتت تأثير الإضطرابات النفسية على الجسد .

ذكر الدكتور " محمد بن عبد الرحمن مرحبا " أنّ أحد علماء القرن العشرين ؛ قام بإسماع بعض الفئران لشريطٍ يُسجّل معركةً دائرةً بين قطّ و فأرٍ ، فكانت النتيجة ؛ إصابة بعض الفئران بالدّبحه القلبية ؛ بسببِ الملح و الخوف كما قام أحدهم بوضع قرّ في ماءٍ باردٍ ؛ ممّا أدّى إلى إصابته بالقرحة المعدية ؛ نتيج الخوف ، كما ذكر أنّ أحد العلماء ؛ قام بتسلّق أحد الجبال ، و أثناء هذه المغامرة ؛ سقط و كاد أن يهلك ؛ و نتيجةً لهذه الصّدمة النفسية أُصيب بإرتجافٍ شديدٍ ، و أضحى لا يقوى على الحركة ، إضافةً إلى إضطراباتٍ نفسيّة و عصبيةٍ أخرى ، و هو ما حمّله على دراسة أثر الإرهاق و الخوف على الحيوانات ؛ فلاحظ عليها الإضطرابات العصبية و الغددية ، و توصّل إلى ما توصّل إليه ابن سينا قبل أكثر من عشرة قُرونٍ ، و بالتالي فإن هذه الحقائق التي توصّل إليها هؤلاء العلماء من خلال تجاربهم ؛ أثبتت صحّة آراء و نظريات ابن سينا في ميدان طبِّ النفس الجسدي ، و أنّ إقدام هذا الطبيب العملاق على التجربة ؛ لم يكن وليد الصدفة ، بل هو وليد القصد و التوجيه (1) .

أمّا الطبيب المشهور " الحسن بن سوار " فهو الآخر كان له فضل السبق في الإختصاص بطبِّ المشايخ ؛ حين أدرك بذكائه الفائق أنّ بعض الأمراض التي تُصيب كبار السنّ ؛ تختلف عن تلك التي تتعرّض لها الفئات العمرية الأخرى ، و بذلك تميّز عن غيره من الأطباء المسلمين ؛ في كونه أبدى اهتماماً بالغاً بصحّة المسنّين ، و كما أشرنا إليه سابقاً ؛ فإنّ هذا الطبيب شرح ما توصّل إليه من أبحاثٍ حول الحالات المرضية التي تصيب كبار السنّ ، و طرق علاجها في كتابه : (تدبير المشايخ) ؛ على طريقة المسألة و الجواب ، و الذي أصبح مرجعاً مهمّاً لدى الباحثين و طلاب العلوم الطّبيّة ، و ظلّ كذلك لِفترَةٍ طويلةٍ من الزمن (2) .

(1) المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، ص. 303 .

(2) الدقّاع : رواد علم الطبِّ عند العرب و المسلمين ، ص. 260 .

و على غرار " الحسن بن سوار " ؛ أدرك " أحمد الطبري " أنّ الأمراض التي تُصيب الإنسان تختلف من فئةٍ إلى أخرى ، فقرّر التخصص في طبِّ الأطفال ، و كان له فضل السبق في فصله عن طبِّ البالغين ؛ إلى جانب الرّازي لأنّه كان مُقتنعاً بأنّ هناك بعض الأمراض التي تُصيب الطفل لا يتعرّض لها البالغ ؛ و هو ما يُميّزه عن غيره من أطباء العرب و المسلمين ، فنجدّه يُبدع في وصف أمراض الجرب ، و الإسهال ، و الكزاز ، و أمراض العين و الأنف و غيرها من الأمراض التي تُصيب الطفل ؛ منذ ولادته إلى غاية بلوغه سنّ الرشد . و قد أشرنا أنّ هذا الطبيب قد عارض سابقه و معاصره من الأطباء ؛ الذين اكتفوا بعلاج المرضعة دون الرضيع ، لذلك أصّر " الطبري " على ضرورة العناية بالرضيع ، و تنظيف الحبل السري لأنّ تلوثه يُسبب الكزاز ، و تغذيته إلى غاية نمو أسنانه ، إضافةً إلى استعمال لبن الأمّ للمولود ، و تفادي استخدام أدوية البالغين للأطفال ؛ لأنّ معدّتهم و مزاجهم لا يحتمل ذلك ⁽¹⁾ ، و هي نفس النّصائح التي يُقدّمها الأطباء في الوقت الحالي . إضافةً إلى كلّ هذا ؛ كان لابن ربن الطبري فضل السبق في إكتشاف للّقاح الميكروبي لداء الحكّة ⁽²⁾ .

أمّا ابن مسكويه ؛ فيعتبر أول من أعطى صورةً شاملةً لمرض الجذام ⁽³⁾ ؛ دون أن يربطه بغضب السماء أو عقاب الله ، بل صوّره كمرضٍ مُعدٍ ؛ اهتمّ به أطباء كثيرون غيره كابن الجزار من مدينة القيروان ؛ الذي قدّم شرحاً مُفصلاً لأسبابه و طُرُق علاجه ⁽⁴⁾ .

(1) الدقاع : رواد علم الطبّ ... ، ص. 241 .

(2) زجريد هونكه : المرجع السابق ، ص. 272 .

(3) الجذام : هو علة تتآكل منها الأعضاء و تنساقط . عبد الرحيم مارديني : المرجع السابق ، ص. 264 .

(4) زجريد هونكه : المرجع السابق ، ص. 273 .

ثانياً : طريقة العلاج

تكلّمنا سابقاً عن المنهج العلمي الذي اتّبعه الأطباء الموالى في معالجة مرضاهم ؛ و الذي يعتمد على التجربة و الملاحظة ، ثمّ وصف العلاج ؛ بناءً على ما توصّلوا إليه من نتائج ، خِلافاً للمنهج الفلسفي النظري الذي اتّبعه أطباء الأمم الأخرى ؛ لاسيما الفرس و اليونانيين ، فأمكنهم ذلك من اكتشاف معارف طبيّة جديدة ؛ أعطت لهذا العلم دفعاً جديداً نحو التطوّر ، و كان لها الفضل الكبير فيما توصّل إليه الطبّ الحديث .

إنّ طريقة العلاج التي إنتهجها الأطباء الموالى ؛ قوامها التحليل التجريبي الدقيق ، و عدم الرّكون إلى الخرافات و الأوهام و الأساطير ؛ التي لا تُجدي صاحبها شيئاً ، و مُحاربة كلّ مظاهر الدّجل و الشّعوذة و السّحر ؛ و نسب العلل و الأمراض إلى عوامل خفيّة و غيبية ، و سنأحاول بحول الله التذكير ببعض طرق العلاج ؛ التي إنتهجها بعض الأطباء الموالى ، مُركّزاً على الرّازي و ابن سينا ؛ باعتبارهما الأكثر تأثيراً على الغرب المسيحي دون غيرهم .

قبل التطرّق إلى طرق علاج الرّازي و ابن سينا ؛ لا بدّ نُشير إلى أنّهما اعتمدا على من سبقوهم من أطباء العالم الإسلامي ، و على رأسهم أستاذ الرّازي : " علي بن ربن الطبري " ؛ الذي قدّم لنا بعض الحكم و الأقوال التي تدلّ على تمكّنه في حقل الطبّ ؛ و التي ليست بعيدةً عن الأفكار و النّصائح الطبيّة الحديثة التي يُقدّمها الأطباء هذه الأيام ، و قد أشرنا سابقاً إلى بعضها ؛ لما عرّفنا بهذه الشّخصية ، و منها قوله : " السلامة غاية كلّ سُؤال " و " طول التجارب زيادةً في العقل " و " الطيب الجاهل مُستحثّ الموت " ... إلخ⁽¹⁾ ، و بالتّالي أثبت هذا الطيب أهميّة المنهج التجريبي في علم الطبّ ؛ و هو ما أدركه تلميذه " الرّازي " ؛ الذي سيُحدّث ثورةً حقيقيّةً في ميدان العلوم الطبيّة ، فكيف ذلك يا تُرى ؟

(1) الدقّاع : رُوّاد علم الطبّ في ... ، ص. 177 .

إنَّ طريقة علاج الرَّازي لمرضاه تعتبر نموذجاً للمنهج التجريبي الذي اتَّبعه الطبيب المسلم ؛ و الذي لا يختلف عمَّا هو مُتَّبِع في الطبِّ الحديث ، و نُحَسِّن من خلال قِراءتنا لملاحظاته و شُروحاته ؛ أننا أمام طبيبٍ من القرن العشرين و ليس من القرون الوسطى ، فقد اتَّسمت تجاربه بالدقَّة و المقاربة ، و قوَّة المقاربة ، و القدرة على تمييز الدلائل و تقويهما ، ثمَّ وصف العلاج المناسب للعِلل و الأمراض ؛ بناءً على النَّتائج التي توصلَ إليها ، كما عُرف عنه ؛ أنَّه كان يجري تجاربه على الحيوانات ، خاصةً القِرْدَة ؛ لِشِدَّة شَبهها بالإنسان ، فكان يختبر تأثير الأدوية فيها و يُسجِّل جميع ما يُشاهدُه ، كما كان لا يتردَّد في تجريبه في نفسه قبل المريض ؛ في حالة إصابته بِعِلَّةٍ مرضية (1) .

لقد أجمع الجميع ؛ بما فيهم علماء الغرب المسيحي ، أنَّ الرَّازي هو مُكتشف ما يُعرف بـ " الطبِّ السريري " المبنيُّ على الإحاطة بأحوال المريض في معيشته ، و مزاجه ، و نومِه ، و يقظته . و من هذا المنطلق ؛ كان الرَّازي يُلح على ضرورة الإنصات إلى المريض أثناء وصفِ شكواه ، و حُسنِ مُساءلته عن أحواله الشَّخصية ؛ فكان يدع المريض يسردُ قصَّته ، ثمَّ يسأله عن أحواله و بيئته ، ثمَّ يُدوِّن جميع ذلك ؛ للرجوع إليه عند الحاجة ، مع الحرص الشَّديد على مُلازمته ، و ملاحظة جميع أحواله (2) .

إنَّ عملية تدوين الملاحظات السريرية التي انتهجها الرَّازي لم تقتصر على أحوال المريض الشَّخصية ، و إنّما شملت أعراض الحالات المرضية ، و تاريخ الإصابة بالمرض ، و مراحل علاجه ، و علامات كلِّ مرحلة ، كما كان يذكر طبيعة العِلَّة ؛ سواء كانت قابلةً للعلاج ، أو ميؤوساً منها ، أو مُزمنةً ، إضافةً إلى وصف مزاج المريض و مهنته و عُمره و جنسه ، و بالتالي كان للرَّازي فضل السَّبق في تدوين الملاحظات السريرية ؛ التي لم يعرفها الغرب

(1) محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع السابق ، ص. 282 .

(2) نفسه .

المسيحي إلا سنة 1502 ؛ عندما جرَّها الطبيب الإيطالي " بنيفيتي " المعروف بـ " أنطونيو الفلورنسي " ، ثمَّ انتشرت في مناطق مختلفة من أوروبا (1) .

أمَّا فيما يتعلَّق بتشخيص العلل و الأمراض ؛ فقد اعتمد الرّازي طريقةً لا تزال مُتَّبَعَةً في الوقت الحالي ، و هي الإستدلال بالنَّبض و البول ، إذ أثبت الطبُّ الحديث إمكانية التفريق بين العلل ؛ من خلال النَّبض ، و مظاهر الأبول المختلفة ؛ كأنواع الرّسوب ، و ألوان البول ، و شُفُوْفِيَّتِهِ ، و عكارتِهِ . و إسْتِنَاداً إلى هذه المعطيات ؛ يُمكن وصف العلاج المناسب لكلِّ حالة (2) .

أمَّا الحكيم ابن سينا ؛ فلا تختلف طريقة علاجه لمرضاه عن تلك التي عُرف بها الرّازي ، فاستطاع بِذِكَائِهِ الخارق أن يستفيد من المجهودات التي بذلها سابقوه ، و عمِلَ على تطوير المعارف الطَّيْبِيَّة الموروثة ، و إثرائها بالإضافات و ذلك بِاستخدام الخبرة و التجربة العِلْمِيَّة . فنجدُه ؛ على غرار الرّازي ، يُدوِّن الملاحظات السريرية ، و يحرص على الإنصات إلى المريض أثناء بثِّ شكواه ، و السؤال عن أحواله الشَّخْصِيَّة ؛ و قِصَّتِهِ مع المرض ، و مُستوى معيشتِهِ و البيئة التي يعيش فيها ، و التعرّف على أُسْرَتِهِ ؛ و إْحْتِمَالِ إصَابَتِهَا بالمرض ... إلخ ، و بالتالي جرَّب ابن سينا الطبَّ السريري ، و أدرك هذه الأمور ؛ التي لا يزال يعتمد عليها الطبُّ الحديث (3) .

لقد أدرك الشيخ الرّئيس أهمية النَّبض و البول و الرُّبُز في الإستدلال (4) ؛ لِتشخيص مُختلف الأمراض و العلل و هي كما أشرنا ؛ لا تختلف كثيراً عمَّا هو مُتَّبَعُ في الوقت الحالي ، و بعد إطلاعي على تفسير ابن سينا لهذه الأمور الثلاثة ؛ تَبَيَّنْتُ أنَّ هذا الطبيب غير عادي ، فهل يُعقلُ أن يكون طبيباً من القرون

(1) محمد بن عبد الرحمن مرجبا : المرجع السابق ، ص. 283 .

(2) المرجع نفسه ، ص. 285 .

(3) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 249 .

(4) حربي عبّاس و حسان حلاق : المرجع السابق ، ص. 294 .

الوسطى ؛ مُطَّلِعاً على كلِّ هذه الحقائق الطَّبيَّة ؟ . بالفعل كان و لا يزال ابن سينا من أعظم الأطباء الذين عرفتهم البشرية .

دَرَس ابن سينا النَّبْضَ دراسةً وافيةً ، و رَتَبَ بين أحواله المتفاوتة و بين الأمراض المختلفة ، و دَكَّر حالته في كلِّ مرضٍ ، و أثبتَ اختلافه من شَخْصٍ لِآخَرَ ؛ حسب الفئات العمرية ، و بَيَّنَّ علاقته بالإضطرابات النَّفسية و شَرَحَ بالتفصيل تباينه و اختلافه في الحالا النَّفسية ؛ كالغضب ، و الخوف ، و الخجل ، و المنازعة العادية و المفاجئة ، و السرور ... إلخ⁽¹⁾ . أمَّا فيما يتعلَّق بالبول ؛ فقد اعتمد عليه ابن سينا ، و أستدلَّ به في تشخيص مختلف الأمراض ؛ من حيث قوامه و لونه ، و كثافته ، و الرواسب التي يُخَلِّفُهَا⁽²⁾ .

إضافةً إلى كلِّ هذا ؛ فإنَّ لابن سينا رأياً خاصاً في الحالة التي ينبغي أن يظهر بها الطبيب ؛ أثناء علاجِ للمريض ، فهو يرى أنَّ لوضع الطبيب و حالته المعنوية أثراً كثيراً في شفاء الأمراض ، فإذا كان الطبيب بشوشاً مُبتَسِماً ؛ وجد تجاؤباً كبيراً من المريض ، و يقول في هذا الشأن : " ... ينبغي للطبيب أن يكون دائماً مُبَشِّراً بالصَّحة ؛ فإنَّ للعوارض النَّفسانية تأثيرات عظيمة ... " ⁽³⁾ .

ثالثاً : الجانب الإنساني

إنَّ التعامل مع المريض يقتضي مُعاملةً خاصةً ؛ قوامها الرَّأفة و العطف ، و بثَّ روح الأمل ؛ و هذا ما أدركه الأطباء المسلمون ؛ الذين كانوا السَّباقين لهذه المعاملة دون غيرهم ، و سَأَحاول بحول الله التَّنَطُّقَ لِبعض مواقفهم و مُقارنتها بنظرة الطبيب الأوربي للمريض ؛ و تعامله معه . و بعد مُطالعتي للكثير من المراجع التي تحدَّثت عن هذا الموضوع ؛ أثرتُ أن أَسْتَدِلَّ بما قالته المستشرقة الألمانية " زيجريد هونكه " ؛ من مُنطلق مبدأ " و شهد شاهدٌ من

(1) الدَّقَاع : رُوَادِ الطَّبِّ ... ، ص. 301 .

(2) أحمد شوكت الشطبي : المرجع السابق ، ص. 249 .

(3) يوسف فرحات : المرجع السابق ، ص. 137 .

أهلها " . فالمتصفِّح لِكتاب (شمس العرب تسطع في الغرب) يُدرك أنّ هذه المستشرقة قد اتّسمت بالموضوعية و أنصفت المسلمين ، و أبرزت دورهم الحضاري على الغرب المسيحي ؛ لاسيما في ميدان الطبِّ .

لقد أكّدت " زجيريد هونكه " على الجانب الإنساني للطبيب المسلم ، و ذكرت بعض المواقف الإنسانية لبعض الأطباء الموالي ، فالرّازي مثلاً ؛ يُعتبر أوّل طبيبٍ فكّر في مُعالجة المرضى الذين لا أملَ في شفائهم ، و اهتمّ بهم اهتماماً كبيراً . و كما قلنا سابقاً ؛ فإنّ من أهمّ ما قاله الرّازي في هذا الشّأن : " ... يجب على الطبيب أن يوهم المريض بالصحة ، و يُرجيه بها ، و إذا لم يثق هو بذلك ؛ فمزاج الجسم تابعٌ لأحلاق النّفس ... " ⁽¹⁾ ، و يتجلّى من خلال هذا القول ؛ أنّ الرّازي كان إنسانياً إلى أقصى الدّرجات ، فبالرّغم من إدراكه أنّ حالة المريض ميؤوسٌ منها ؛ و لا علاج لها ، فإنّه كان يسعى إلى بثّ روح الأمل و قوّة الحياة فيه ⁽²⁾ ، و لكنّ هذه المواقف النبيلة للرّازي ؛ أحدثت مُعارضةً شديدةً من بعض علماء الغرب المسيحي ، إذ اعتبر بعضهم أنّ هذا العمل أحمقٌ و لا خُلقي ؛ باعتباره لا يلفت أنظار المريض إلى ما ينتظره من مصير ؛ يحول دون التّوبة و التّوجّه إلى الله ، و تسليم أمره لله ، و بالتّالي بيّنت هذه المواقف قسوة هؤلاء ، و تجرّدهم من إنسانيتهم ؛ في تعاملهم مع المرضى الميؤوس من حالتهم ، إذ كانوا لا يتردّدون في إخبار مرضاهم بمصيرهم ، و لا يحجمون عن قتلهم أحياناً ⁽³⁾ . كما أنّ الرّازي عُرف بتواضعه الكبير ، و رأفته بالضعفاء ، و حُبّه للفقراء ، و حُسن تعامله مع المرضى ؛ مهما كانت حالتهم و هو ما جعله يحظى بحُبّهم و احترامهم و تقديرهم .

أمّا الشيخ الرئيس " ابن سينا " ؛ فنجدّه على غرار الرّازي ، يتعامل مع مرضاه بإنسانية فائقة ، جعلته محلّ إعجاب و تقدير من حوله من النَّاس ، و لعلّ من أهمّ و أجلّ صُور شخصيته الإنسانية ؛ هو تعامله مع مرضى

⁽¹⁾ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص 115 .

⁽²⁾ زجيريد هونكه : المرجع السابق ، ص 253 .

⁽³⁾ المرجع نفسه ، ص 254 .

الأعصاب ؛ أو المجانين ، فقد كانت نظرته لهم نظرة إنسانية سامية ، فلم يعتبرهم مجرمين أو مُذنبين ، و إنما نظر إليهم كمرضى يحتاجون إلى العلاج ، و دعا إلى حُسن مُعاملتهم ، و اللُطفِ معهم ، و تحسين تغذيتهم و نومهم و شرايهم ، و تمتعهم بالرّاحة و الهواء الطّلق ، و سماع الموسيقى و الطرب ، كما كان يُعالجهم مجاناً ، و يتصدّق عليهم من ماله الخاص . هذا في الوقت الذي كان فيه المرضى المجانين في أوربا المظلمة حضارياً ؛ يُعاملون مُعاملة السُّجناء ، و يعيشون معيشة القطعان ، فكانت أيديهم و أرجلهم تُعلّ بالسلاسل الحديدية ، و كان النَّاس يَحْشَوْنَهُمْ ، و يشعرون بالعار و الخجل منهم⁽¹⁾ . و تقول زيجريد هونكه في هذا الشّأن : " ... و لنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى ، فنرى هؤلاء بشاعةً بالغين ؛ مبعثها الاعتقاد السائد آنذاك ، و الذي غدّته الدعاوى الدنيئة الخاطئة ؛ بأنّ هذا المريض لعنةٌ من السماء ؛ حلّت بصاحبها عقاباً له على إيّهم زعموا أنّه ارتكبه ، أو شيطاناً دخل في نفسه ، و بالتالي يجوز عذابه⁽²⁾ .

أمّا الطبيب الكبير " الأهوازي " ؛ فلا تقلّ معاملته الإنسانية لمرضاه عن تلك التي رأيناها عند الرّازي و ابن سينا ذلك أنّه كان ينصح الأطباء بالتواضع ، و رقة الكلام مع المرضى ، و الرّحمة و العطف على الفقراء ، و الإبتعاد عن اللّهو و شرب الخمر و الفجور ، و صفاء النّيّة في التّظر إلى النّساء ، و عدم وصف الأدوية القاتلة ، أو المساعدة على إسقاط الأجنّة ، و كثرة المداولة لأُمور المرضى ، و ملازمة البيمارستانات ، كي يسهّل الإتّصال به في حالة الضرورة⁽³⁾ .

(1) عبد الرحمن محمد العيسوي : علم النفس الإكلينيكي ، ص. 34 .

(2) شمس العرب تسطع من الغرب ، ص. 255 .

(3) الدقّاع : رواد علم الطبّ ... ، ص. 249 .

رابعاً : المؤلفات :

إنّ كلّ ما قيل حول إسهامات أطباء العصر العباسي في مختلف الإختصاصات الطّبية ؛ من حيث السّبق في إكتشاف العلل و الأمراض ، و وصف أعراضها و تشخيصها ، و المنهج المتّبع لعلاجها ، و الجوانب الإنسانيّة الرّاقية التي ميّزت تعاملهم مع مرضاهم ، ما كان ليصل إلينا ؛ لولا المؤلفات الكثيرة التي تركها هؤلاء ، و التي تركت بصماتهم في هذا المجال ، و أعطت دفعاً جديداً لعلم الطبّ ؛ فأضحت مراجع مهمّة لطلبة العلوم الطّبية و الصيدلانية في البلاد الإسلاميّة ، و كذا الغرب المسيحي ، إذ دأب الأوربيون على ترجمتها إلى لغاتهم و الإستفادة من المعارف الطّبية الثمينة التي تحتويها ، و ظلّت هذه الكتب لفترةٍ طويلةٍ ؛ ضمن الكتب الطّبية القليلة الموجودة في كُليّاتهم (1) .

إنّ المتصفّح لمؤلّفات هؤلاء العظماء ؛ يُدرك أنّ هؤلاء كانوا في قمّة الأمانة العلميّة ، من خلال نسب الآراء و الأفكار إلى أصحابها ؛ لاسيما الأقدمين من اليونانيين و الفرس ، فكان كلّ ما كتبه ؛ هو عبارة عن سردٍ لتلك الآراء ، و إثراء لها بالملاحظات و الإضافات ، و تعليقٍ عليها ؛ إمّا بالترجيح ، أو الإعتراض عليها و نقدها أحياناً وهذا ما أشرنا إليه سابقاً ، و سأحاول بحول الله في هذا المبحث ؛ التركيز على أشهر تلك المؤلفات و أكثرها تأثيراً على الغرب المسيحي .

يُعتبر كتاب (فردوس الحكمة) لابن سهل الطبري ؛ من الكتب التي لقيت إقبالاً كبيراً من طرف طُلاب العلم في زمانه ، و من بعده ؛ أمثال : تلميذه " الرّازي " ، و الحكيم " ابن سينا " و " ابن عباس الأهوازي " و غيرهم من أطباء العالم الإسلامي ؛ الذين إستفادوا كثيراً من هذه الموسوعة العلميّة ؛ التي إكتسبت طابعاً نظرياً و علمياً في آنٍ واحدٍ ؛ و هو ما زاد من القيمة العلميّة لهذا الكتاب ، إذ جمع فيه بين العلوم الطّبية و الأفكار و النّظريات

(1) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص. 230 .

الفلسفية لمن سبقوه من الأطباء و الحكماء ؛ خاصة أبقراط ، جالينوس ، أرسطو ، حنين بن إسحاق ، ثابت بن قُرة ، وغيرهم . و بالتالي ؛ اعتمد " ابن ربن الطبري " على هذه الآراء و الأفكار ، و أضاف إليها المعارف التي توصل إليها ؛ بعد التجربة و الملاحظة طبعاً (1) .

أمّا كتاب (الحاوي في الطبّ) للرازي ؛ فهو من أهمّ و أجلّ الكتب التي ألفها هذا الطبيب ، لما يحتويه من معارف طبّية قيّمة ؛ استفاد منها غيره ، و يذكر ابن أبي أصيبعة في هذا الشأن : " ... إنّ هذا الكتاب من أجلّ كتب الرازي ، و أعظمها في صناعة الطبّ ، و ذلك لأنّه جمع فيه كلّ ما وجدّه مُتفرّقاً في ذكر الأمراض و مُداواتها و متابعتها ؛ من سائر الكُتب الطّبيّة للمتقدّمين ، و من أتى بعدهم إلى زمانه ... ، و نسب كلّ شيءٍ نقله فيه إلى قائله ... " (2) ، و بالتالي ؛ كان هذا الكتاب موسوعاً علميةً شاملةً ، جمّع فيها الرازي كلّ ما توصل إليه الطبّ اليوناني و السرياني و العربي ؛ من معرفة و إكتشافاتٍ ، و هي عبارة عن عملٍ قام به و لم يُكمله ؛ بعد أن أدركه الموت ، فتكفل تلاميذه بذلك ، و وضعوه بشكله النهائي ، و لم يصلنا منه إلا عشرة مجلّدات من أصل عشرين مجلّداً . و يُعتبر الطبيب اليهودي : " فرج بن سالم " أول من ترجمه إلى اللاتينية سنة 1279 ، و إنتشر في القرون التالية على شكل مخطوطاتٍ ، ثمّ طُبِع سنة 1486 ، و ما إن حلّت سنة 1542 ؛ حتّى كان يوجد من هذا الكتاب التّفيس خمس طبعاٍ ؛ عدا أجزاءً منه كثيرة طُبعت مُنفصلةً ، لذا كان أثره في الطبّ الأوربي عظيماً (3) .

إضافةً إلى هذا الكتاب ؛ ألف الرازي كُتُباً أخرى لا تقلّ أهميّةً عن الحاوي ، و لعلّ أهمّها : كتاب (المنصوري في الطبّ) ؛ الذي ألفه للأمير " منصور بن إسحاق " ؛ و المتكوّن من عشر مقالاتٍ (4) . و نظراً لما

(1) الدقّاع : زوّاد علم الطبّ ... ، ص. 176 .

(2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص 125 .

(3) توماس أربولند و آخرون : المرجع السابق ، ص. 426 ؛ Gustave Le Bon : op . cit ، p 447

(4) . Gustave Le Bon : ibid ، p 446 .

يحتويه هذا الكتاب من معارف طبّية ثمينة ؛ فقد كان محلّ إعجاب أطباء الغرب المسيحي ؛ الذين دأبوا على ترجمته إلى لغاتهم للإستفادة منه ، و أوّل من ترجمه إلى اللاتينية " جيراردو الكريموني " ⁽¹⁾ ، و تمّ طبعه في ميلانو سنة 886 هـ ، و بقي من بين المراجع الرئيسية في جامعات أوروبا حتّى القرن السابع عشر الميلادي ⁽²⁾ . و لأبي بكر الرّازي كتاب (الجامع) الذي يحتوي على معارف طبّية في غاية الأهميّة ؛ تتعلّق بعلم الصيدلة ، و تصنيف و تفسير الأدوية البسيطة و المركّبة ، و منافع الأغذية ، و وصفات طبّية أخرى ؛ جمّعها من كُتب الأقدمين ، و من عاصريهم من الأطباء ؛ و بالتّالي كان لهذا الكتاب الأثر البالغ في تطوّر علم الصيدلة ⁽³⁾ .

و من الكتب النفيسة التي كان لها تأثير على الغرب المسيحي : كتاب (القانون في الطبِّ) لابن سينا ؛ الذي كان على غرار (فردوس الحكمة) و (الحاوي في الطبِّ) ؛ موسوعةً طبّية تادّرة ، فضّلتها طُلاب العلوم الطبّية و الصيدلانية على من سبّقه من مؤلّفات ؛ لما وجدوا فيه من حُسن التّبويب ، و سهولة الأسلوب ، و الدّقة الفائقة في تشخيص الأمراض و العلل ، و وصف العلاج لها ، و الشّرح المفصّل للعقاقير و الأدوية البسيطة و المركّبة و المفردات الطبّية التي تدخل في التداوي . و بالتّالي ؛ احتوى هذا الكتاب على المعلومات الضرورية التي يحتاجها طالب العلم و الطبيب و الهاوي ⁽⁴⁾ .

لقد جمع ابن سينا في هذه الموسوعة العلمية المتكاملة ؛ نظريات و آراء من سبّقه من الأقدمين و المعاصرين له و أضاف إليها المعارف التي توصل إليها ؛ بعد التجربة و البحث و الإستقصاء ، و هو ما زاد من قيمة هذا الكتاب النفيس ؛ الذي نال شهرةً عظيمةً ، و لقيَ إقبالاً كبيراً من ذوّي الإختصاص في البلاد الإسلامية و الغرب المسيحي

(1) جيراردو الكريموني (ت 611 هـ / 1214 م) : قضى معظم حياته في طليّة ، ترجم أزيد من سبعين كتاباً من الكتب العربية ؛ في علوم متعدّدة كالطبِّ و الرياضيات و الفلسفة و الفلك ... ، لذلك لُقّب بـ " أبي الترجمة و المترجمين " . أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص 256 .

(2) الدقّاع : رُوّاد علم الطبِّ ... ، ص. 220 .

(3) المرجع نفسه ، ص. 220 .

(4) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص. 128 ؛ الدقّاع : رُوّاد الطبِّ في ... ، ص. 306 .

بعد أن تُرجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي . و يُعتبر " جيراردو الكريمونتي " أول من ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، و نَقَلَهُ إلى أوربا ؛ بعد عناءٍ و مشقّةٍ كبيرين ، و يقول في هذا الصدد : " ... لقد قضيت أكثر من نصف قرنٍ في تعلّم العربية ، و ترجمة نفاثات الكتب العربية ، فكان أعظم كتابٍ لاقيتُ في تَقْلِهِ مشقّةً و عناءً ... " (1) . و بعد هذه الترجمة ؛ أضحى هذا الكتاب في وقتٍ وجيزٍ من أهمّ المصادر الطّبيّة في كُليّات الطبّ الأوربية ، و ظلّ كذلك حتّى أواسط القرن السّابع عشر الميلادي ، و قد تعرّض أصله العربي إلى الضياع و أُعيدت ترجمته من النّص اللاتيني إلى العربية في عام 1373 هـ في روما ، و طُبِع باللّغة اللاتينية أكثر من عشرين مرّةً في القرن السادس عشر الميلادي (2) .

إنّ الإقبال الذي لَقِيَهُ كتاب (القانون في الطبّ) في أوربا ؛ أكّد على عبقرية ابن سينا ، و تفوّقه في ميدان الطبّ و هي حقيقةٌ أدركها الأوربيون أنفُسُهُمْ ، بل إنّ بعضهم أنصف الرجل . و في هذا الصدد ؛ يذكر أحمد شوكت الشطّي ؛ أنّ مسؤولاً في قسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس تسمّى " دالبرني " كتبت عن أثر ابن سينا العلمي في أوربا ، حيث قالت : " ... إذا استعرضنا المخطوطات الموجودة لِكُتُبِ ابن سينا و رسائله ، و حَكَمْنَا على أهمّيّتها بعددِها ، فقد يكون كتاب القانون و رسالة التّفّس في كتاب الشّفاء من أعظم ما أعجّب به الباحثون و من أكثر ما دَرَسُوهُ ، و قلّ ما تجدُ مكتبةً من مكتبات أوربا ؛ لا تخلو من مؤلّفات ابن سينا ؛ الشّيء الذي جعله أكبر و أعظم شخصية في الطبّ عرفتها القرون الوسطى ... " (3) ، أمّا " وليم أوسلر " (4) ؛ فهو يعتبر أنّ كتاب (

(1) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 256 .

(2) الدقّاع : رُوَاد الطبّ ... ، ص. 303 .

(3) أحمد شوكت الشطّي : المرجع السابق ، ص. 259 .

(4) وليم أوسلر (1849 - 1919) : طبيب كندي ؛ درّس في العديد من الجامعات الكندية و الأوربية ، تحصّل على لقب " سير " سنة 1911

تتضمّن مُشاهداته الطّبيّة العديدة ما يختص بصفيحات الدّم ؛ و كلّ ما يتعلّق بكرينات الدّم الحمراء و البيضاء ، من أشهر مؤلّفاته (مبادئ ممارسة الطبّ

الباطني) ، (موجز في تاريخ الطبّ) . محمد شفيق غريال : المرجع السابق ، ص. 264 .

القانون) كان بمثابة الإنجيل الطبيّ؛ الذي ظلّ مُتداولاً في كليات الطبِّ الأوروبية لأطول فترةٍ من الزمن⁽¹⁾. و ممّا يدلّ على تأثير هذا الكتاب على الغرب المسيحي؛ هو أنّ الكثير من العقاقير التي وَصَفَهَا ابن سينا لمرضاه في هذا الكتاب؛ ظلّت محتفظةً بأسمائها العربية كالعنبر، الزعفران، الكافور المسك... إلخ⁽²⁾.

أمّا كتاب (كامل الصناعة الطبيّة) أو (الكتاب الملكي) لعلّي بن العباس الأهوازي؛ فلا تقلّ أهمّيته عن باقي الكتب السابق ذكرها، إذ حظي بتقدير مؤرّحي الطبِّ؛ من حيث عرضه الواضح، و تقدّمه و تقديره الصائب لمن سبّقه من الأطباء و الحكماء، و مُوازنته بين الطبِّ العملي و النظري، و شرحه المفصّل لمختلف الأمراض و العلل، و وظائف الأعضاء.

و كما أشرنا إليه سابقاً؛ حين تعريفنا لهذا الطبيب، فإنّ هذا الكتاب كان موسوعةً طبيّةً شاملةً آنذاك و واحد من المؤلفات الشهيرة و المهمة في الطبِّ الإسلامي في القرن الرابع الهجري⁽³⁾، و تفوّق على جميع الكتب المعروفة يومذاك، إذ فضّله طلاب العلوم الطبيّة على كتاب (المنصوري) للرازي، و (فردوس الحكمة) لابن ربن الطبري، و بقي كذلك حتّى ظهور كتاب (القانون في الطبِّ) لابن سينا فتحولوا إليه؛ و قد أشرنا إلى ما قاله القفطي في هذا الصدد؛ حين قال: "... و صتّف للملك عضد الدولة "فخناسرو بن بويه" كَنَاشَه المسمّى بالملكي، و هو كتاب جليل في كَنَاشِ نبيل، إشمتم على علم الطبِّ و عمله، حسن الترتيب، مال النَّاس إليه في

(1) الدقّاع: رُوَاد الطبِّ ... ، ص. 306 .

(2) محمد بن عبد الرحمن مرجبا: المرجع السابق، ص. 297 .

(3) الدقّاع: رُوَاد علم الطبِّ ... ، ص. 247 .

وقته ، و لزموا دراسته إلى أن ظهر كتاب القانون في الطبِّ لابن سينا ، فمالوا إليه ، و تركوا الملكي بعض التَّرك ... " (1) .

و على غرار كتب (فردوس الحكمة) و (الحاوي في الطبِّ) و (القانون) و (المنصوري) و غيرها ؛ فقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، و لقيَ إقبالاً كبيراً من أطباء الغرب المسيحي ، و لكنَّ طريقة انتقال كتاب (الكتاب الملكي) إلى بلاد الغرب المسيحي ؛ تختلف عن نظيراتها في الكتب السابق ذكرها ؛ ذلك أنَّها كانت غريبةً إذ تعرَّض ابن العباس الأهوازي إلى السرقة العلمية من طرف مُترجمي كتابه إلى اللاتينية ؛ و على رأسهم " قسطنطين الإفريقي " الذي قام بترجمة الكتاب ضمن مجموعة من الكتب العربية في القرن الحادي عشر ، و نسبهُ إليه ، ثمَّ ظهر الكتاب أيضاً في مجموعة ترجمات الكتب العربية لـ " إسحاق بن سليمان الإسرائيلي " ، و ظلَّت قضية نسب هذا الكتاب و عدد آخر من الكتب المترجمة يُحيطها الغموض ، و هكذا أصبح الكتاب مُتداولاً بين النَّاس على أنَّه من تأليف شخصين مُختلفين ؛ إلى أن تمكَّن " إسطفان الأنطاكي " من إنصاف الرَّجل (2) ؛ حين إكتشف بعد ترجمته للكتاب أنَّه من تأليف " الأهوازي " و ليس " قسطنطين الإفريقي " .

إنَّ هؤلاء الحكماء الذين ورد ذكرهم في هذا العمل ؛ هم عيِّنة بسيطة من الأطباء الذين عرفهم العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ؛ عرَّجهم و أعجبههم ؛ من المسلمين و أهل الذمَّة ؛ و سأحاول بحول الله مستقبلاً التطرُّق إلى عظماء الطبِّ الإسلامي الذين لم يرد ذكرهم في هذا العمل ؛ أمثال : أبو جعفر الغافقي (ت. 561 هـ) ، ابن رشد (ت. 595 هـ) ، ابن البيطار المالقي الأندلسي (ت. 646 هـ) أحمد بن مفرج الأموي ؛ المعروف بابن الرومية (ت. 637 هـ) ، ابن ميمون ، أبو القاسم الزهراوي ، ابن التلميد ، ابن النفيس و غيرهم .

(1) تاريخ الحكماء ، ص. 332 .

(2) Gustave Le Bon : op. cit , p 447 .

الخاتمة

حاولت خلال هذا البحث أن أستعرض أهم الخدمات الصحيّة في الفترة العبّاسية ؛ و كما أشرتُ إليه سابقاً فإنّ الطبّ الإسلامي قد بلغ درجةً كبيرةً من التطوّر في العصر العبّاسي ؛ فازدهرت هذه الصنعة ، و تنوّعت الخدمات الصحيّة و تحسّنت ، و زادت إبدعات الأطباء العبّاسيين و تضاعف عدد البيمارستانات ، و فُتِح المجال للجميع لممارسة مهنة الطبّ ؛ بما فيهم أهل الذمّة و الموالي ؛ اللّذين كان لهم الأثر البالغ فيما وصلت إليه هذا الصنعة من مكانة ؛ بفضل إسهاماتهم في مختلف التخصصات الطبيّة . و بالتالي ساهم الجميع في الإزدهار الحضاري الذي شهّدته الدولة الإسلامية في العصر العبّاسي .

و قد توصلتُ من خلال هذا العمل إلى النتائج التّالية :

1 . إنّ الطبّ في الإسلام قام على أسسٍ و ضوابطٍ شرعيةٍ ، تستند إلى القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة و التي ظلّت أساس الخدمة الصحيّة طيلة العصور الإسلامية ؛ بما في ذلك الفترة العبّاسية . هذه الأسس التي وُضعت حدّاً للتداوي بكلّ ما من شأنه أن يضرّ بصحة الإنسان ، أو يمسّ عقيدته ؛ فكان تحريم التداوي بالخمر و التّجاسة و الكيّ و السّحر و الدجل و الشعوذة ، و التوجّه نحو الطبّ النبوي الذي أقرّه الرسول صلّى الله عليه و سلّم ، و الذي كان قائماً على التداوي بالرقية الشرّعية و الحجامة و الختانة و العسل و التمر و بعض الأعشاب الطبيعيّة .

2 - لقد أعطى أطباء العصر العبّاسي نموذجاً رائعاً للقيّم الإنسانيّة ؛ في تعاملهم مع مرضاهم ؛ من خلال تواضعهم مع النَّاس ، و رقة الكلام معهم ، و الرّحمة و العطف على الفقراء ، و الإبتعاد عن اللّهو و شرب الخمر و الفجور و صفاء النّيّة في النّظر إلى التّساء ، و عدم وصف الأدوية القاتلة ، أو المساعدة على إسقاط الأجنّة ، و كثرة المداولة لأموال المرضى ، و ملازمة البيمارستانات ، كي يسهّل الإتّصال به في حالة الضرورة ، إضافةً إلى الفرق الكبير بينهم و بين أطباء الغرب المسيحي ؛ في تعاملهم مع المصابين بالأمراض العقليّة ، فقد كانت نظرهم لهم نظرةً إنسانيّةً ساميةً ، فلم يعتبروهم مجرّمين أو مُذنبين ، و إنّما نظروا إليهم كمرضى يحتاجون إلى العلاج ، فبنّت لهم

الدولة بيمارستانات خاصة بهم ، و دَعَت إلى حُسن مُعاملتهم ، و اللُطفِ معهم ، و تحسِين تغذيتِهِم و نومِهِم و شراهِم ، و تمتعِهِم بالرّاحة و الهواء الطّلق ، و معالجَتِهِم بِجَناناً ، و التصدّق عليهم .

3. لقد أعطى فقهاء العصر العبّاسي من المذاهب السنيّة الأربعة نموذجاً رائعاً للقيَم الإنسانية الرّاقية ؛ المستمَدّة من تعاليم ديننا الحنيف ؛ من خلال تَوْصِيَتِهِم بتقدّم الرّعاية الصحيّة للمساكين و الإحسان إليهم ، و بذل ما يحتاجونه من طعامٍ و شرابٍ و لباسٍ ، و تمكينِهِم منها حتّى يعيشوا حياةً إنسانيةً تُساعدُهُم على إصلاح أحوالِهِم و تقويم سلوكِهِم و تحقيق المقصود من سجنِهِم . فقد رأينا كيف أفتوا بعدم جواز قفلُ باب السجن على المحبوس و لا جعله في بيتٍ مظلمٍ و لا إيذاءهُ بأيّ حالٍ من الأحوال ؛ كتعريضهِ للحرّ و البرد الشديدين ، و حبسهِ في مكانٍ سيّئ التهوية ، و تعذيبهِ وضرب وَجْهِهِ ، و محاولة إثارة الرّعب في نَفْسِهِ ، أو تحقيرهِ و هدم توازنه النّفسي ؛ من خلال اللّعن و الشتم و منع زيارة أقاربه ؛ و غير ذلك ممّا يؤذي السجين في بَدَنِهِ و نَفْسِهِ و يَحُطّ من معنوياتِهِ أو يمسّ من كرامتِهِ . كلّ هذه التوجيهات التي أوصى بها الفقهاء لاقت تجاوباً كبيراً من بعض أولي الأمر في العصر العبّاسيّ ؛ سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو وزراء .

4. كان لنظام الحسبة الأثر البالغ في تحسِين الخدمة الصحيّة و حفظ الصحة العامة ؛ فقد رأينا كيف أنّ الدولة العبّاسية لم تغفل عن كلّ صغيرة أو كبيرة ؛ من شأنها أن تُهدّد صحة النّاس و تُلحق الضرر بهم ؛ فوسّعت من صلاحيات المحتسب ليشمل الجانب الصحيّ ؛ من خلال ردع و معاقبة من يتسبّب في ذلك ؛ سواء تعلق الأمر بالمهن ذات الصلة بصناعة الطّب ؛ كالأطباء ، الصيادلة البيطرة الحجامين ، الفصّادين ، الكحّالين... إلخ ، أو بائعِي الأَطعمة و الأشربة ، و كلّ ما يتعلّق بالبيئة و الآداب العامّة .

5. لم يكن أطباء العصر العبّاسي نقلةً لِثَرثِ الأمم السابقة في ميدان الطّب ، و لم يكتفوا بترجمة و إقتباس مؤلّفات الأقدمين فحسب ؛ و إنّما تناولوا ما تناقلوه بالتقد و التحليل ، و عكفوا على إثرائهِ بالشرح و الملاحظة و الإضافة فكانت آراؤُهُم إمّا ترجيحٌ للنّظريات و الأفكار السابقة ، أو إعتراضٌ عليها ؛ ممّا مكّنهُم من إبتكار معارف جديدة

في مختلف الإختصاصات الطبيّة ، و تأسيس منهجٍ علميٍّ قائم على الملاحظة و التجربة و الإستقصاء ، و بالتّالي أعطوا لعلم الطبّ دفعاً جديداً ؛ من خلال إخراجِه من الجانب النظري إلى الجانب التجريبي التطبيقي ؛ و أبدعوا في هذه الصنعة على مدار عصور حضارتهم الزّاهرة ؛ فكانت إسهاماتهم على نحوٍ غير مسبوقٍ ؛ شمولاً و تميّزاً و تصحيحاً للمسار ، و لم يكن هناك حرج في أن يأخذوا من غيرهم ، إذ كانوا يعتبرون هذه العلوم ميراثاً إنسانياً يستفيد منه الجميع ، بما في ذلك الأُمَّة الإسلاميّة

6 - إنّ تطوّر صنعة الطبّ في العصر العبّاسي كان بفضل جهود كلّ من يعيش في كنف الدولة الإسلاميّة بما في ذلك الموالي ؛ فقد كانت تلك العناصر الأعجميّة أقدّر على التدوين و التّأليف بسبب ميراثهم الحضاري ، فلمّا تعلّموا العربيّة ؛ كان تأليفهم بها سهلاً ميسوراً ؛ فأتقنوا هذه اللّغة و أبدعوا في التّأليف بها ، بل إنهم تمكّنوا من التفوّق على بعض العرب في الفصاحة و البلاغة ؛ و هو ما تجلّى في مؤلّفاتهم الكثيرة .

7 . لقد تمكّن أطباء العصر العبّاسي من الجمع بين علم الطبّ و علومٍ أخرى ؛ كالأدب ، و الفلسفة ، و الشعر و الفلك ، و الكيمياء... إلخ ؛ فكان كلّ طبيبٍ يُمثّل موسوعةً علميّةً في حدّ ذاته .

8 - كان لأطباء العصر العبّاسي فضل السّبب في إكتشاف بعض الأمراض و العلل التي تُصيب الجسد و تشخيصها و وصف العلاج لها ؛ و هو ما خلّصَ البشريّة من أمراضٍ كانت مُستعصيةً آنذاك ؛ كالجذري و الحصبة و الطاعون... إلخ ، أمّا الأمراض التي عجزوا على شِفائها ؛ فقد أعطوا وصفاً دقيقاً لها ؛ مهّد الطريق لمن جاء من بعدهم من أطباء العالم الإسلامي و الغرب المسيحي ؛ من الوصول إلى العلاج المناسب لها ؛ بل إنّ بعضها لا يزال الطبّ الحديث عاجزاً على شِفائها ؛ على غرار مرض السرطان .

9 - تمكّن أطباء العصر العبّاسي من وضع معارف طبيّةٍ جديدةٍ ، و إنتهاج طرقٍ و أساليب علاجٍ نادرةٍ ؛ أعطت دفعاً جديداً لهذا العلم ، و أثّرت بشكلٍ واضحٍ على الغرب المسيحي ، و لا يزال بعضها مُتّبِعاً عند الأطباء في الوقت الحالي .

10 - لقد كانت المؤلفات الطبيّة التي تركها هؤلاء الأطباء على غرار كتب : فردوس الحكمة ، الحاوي في الطبّ القانون في الطبّ ، المنصوري ، كامل الصناعة الطبيّة ، و غيرها من الكتب ؛ بمثابة موسوعات طبيّة شاملة ، إستفاد منها كثيراً طلبة العلوم الطبيّة و الصّيدلانية في البلاد الإسلاميّة ، و تأثّر بها أطباء الغرب المسيحي ؛ الذين عكفوا على ترجمتها ، و الإستفادة من المعارف الطبيّة النادرة التي تحتويها .

إنّ كلّ ما قيل في هذا البحث ؛ عن تطوّر الخدمات الصحيّة في العصر العباسي ؛ ما هو إلا محاولة متواضعة من بين محاولاتٍ سابقةٍ حاولت الخوض في هذا الموضوع ، و مهما قيل عن جهود الدولة أو إسهامات أطباء العصر العباسي في مختلف التخصصات الطبيّة ؛ إلا أنّنا لا نستطيع أن نُنصف هؤلاء العظماء ، أو أن نُعطي لهم حقّهم أو أن نُلمّ بكلّ ما قدّموه للأمة الإسلاميّة من خدماتٍ جليّةٍ ، و إنجازاتٍ علميّةٍ خالدةٍ ؛ كان لها الأثر الكبير في إنجاز أعظم حضارة عرفتتها العصور الوسطى .

الملاحق

الملحق رقم 01 : في وصف بيمارستان الرّشيد

عندما جاء عهد الخليفة " هارون الرّشيد " (170 هـ . 185 هـ) اهتمّ أكثر ببناء البيمارستانات ، و زاد من تطويرها ؛ فأقام بيمارستاناً كبيراً في بغداد ، و ألحقّ به مكتبة علمية ضخمة هو على غرار البيمارستانات الفارسية ، و رشّح لِرئاستِهِ " ماسويه الخوزي " ، و تولّى الطيب " جبرائيل بن بختيشوع " أمر المرضى . و البيمارستان المذكور صورة محسنة و مكبرة عن بيمارستان جنديسابور ، و يُعدّ عهد الرّشيد فاتحة خير لانتشار عشرات البيمارستانات في الدولة الإسلامية فيما بعد (1) .

الملحق رقم 2 : في وصف البيمارستان الصاعدي أو العتيق .

هذا البيمارستان أنشأه الخليفة العباسي " المعتصم " في بغداد ، و قد أشرف عليه بنفسه ، و أوكلَ ببنائه إل الطيب المشهور " أبي بكر الرّازي " ؛ بعد تحديد موضعه الملائم للظروف البيئية ، و كان الخليفة يخرج كلّ يوم عشرة دنانير يومياً نفقات للبيمارستان و الأطباء و يُعطي الأرزاق للأطباء و الكحالين ، و اهتمّ بالخدم الذين يخدمون المغلوبين على عقولهم (المجانين) ؛ كما كان يتكفل بأثمان الأطعمة و الأشربة و الخبازين ، و من يتكفل بالمؤن (2) .

(1) القفطي : المصدر السابق ، ص . 46 .

(2) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص . 416 .

الملحق رقم 03 : في وصف البيمارستان المقتدري

و في عهد الخليفة " المقتدر " (295 هـ . 320 هـ) ارتقت مهنة الطب ، و ازداد بناء البيمارستانات و أصبح امتحان الأطباء شرطاً أساسياً لمزاولة مهنة الطب ، و خاصة لما عَلِمَ الخليفة بأن أحد الأطباء أخطأ في تشخيص حالة أحد مرضاه ، وَ وَصَفَ له العلاج فمات على إثر ذلك ؛ فَأَمَرَ الخليفة المحتسب بأن يَمْنَعَ جميع الأطباء من ممارسة المهنة حتّى يُخَضِعَهُمْ لِلامتحان ؛ الذي أشرف عليه الطبيب المشهور " سنان بن ثابت بن قرة " ؛ و هو ما أشرنا إليه في الفصل الثالث في هذا البحث . هذا الطبيب أشار إلى الخليفة بأن يبني بيمارستاناً في بغداد في منطقة باب الشام (¹) فكلفه بذلك خدمةً للمسلمين . و تخليداً لذكراه ؛ سمّاه " البيمارستان المقتدري " و أنفق عليه الأموال الطائلة و النفقات الكثيرة من مال الخلافة بما يُقارب مائتي دينار شهرياً (²) .

الملحق رقم 4 : في وصف البيمارستان العضدي

" ... في صَفَر من سنة 372 هـ فُتِحَ البيمارستان العضدي ؛ الذي أنشأه " عضد الدولة بن بويه " في الجانب الغربي من بغداد ، و رتّب فيه الأطباء و الحَدَم و الوكلاء و الحُزَن ، و نَقَلَ إليه من الأدوية و الأشربة و العقاقير شيئاً كثيراً و من كلّ ما يُحتاج إليه ... " (³) .

(¹) القفطي : المصدر السابق ، ص. 86 .

(²) المصدر نفسه ، ص. 86 .

(³) بك أحمد : المرجع السابق ، ص. 187 ؛ الأشقر : المرجع السابق ، ص. 332 ، 333 .

الملحق رقم 05 : في وصف البيمارستان الناصري (الصلاحي)

" ... لما مَلَكَ السلطان " صلاح الدين الأيوبي " الديار المصرية سنة 567 هـ / 1171 م ، و إستولى على قصر الفاطميين ؛ كان في القصر قاعة كبيرة بناها " العزيز بالله " سنة 384 هـ ، فَجَعَلَهَا " صلاح الدين البيمارستاناً و هو البيمارستان العتيق في القصر ، و أَمَرَ بِمُتَّحِهِ للفقراء و المرضى و الضعفاء ... " (1) .

الملحق رقم 06 : وصف ابن ربن الطبري لعِلَلِ العَيْن

" ... إِنَّ المرضَ إِذَا أَن يُصِيبَ نَفْسَهُ ، و إِذَا قُوَّتَهُ ، و إِذَا أَشْيَاءَ الَّتِي تَحْدَمُهُ ، فَالَّذِي يُصِيبُ البَصَرَ نَفْسَهُ أَرْبَعُ عِلَلٍ ؛ إِذَا تَبَسَّعَ مجرى النور أو ينزل كله عن موضعه ، أو يميل شيئاً ، فإن مالت الرطوبة الجانبية . و هي الحدقة . إلى فوق أو أسفل رأى الشخص شخصين ، و إن مالت إلى شيئٍ منه ؛ أعني إلى جانبٍ منه لم يضر ذلك بالبصر وإن اتسع مجاري النور من الجبلّة في الرّحم ، أو من تمدّد ، أو من علّةٍ أُخرى ؛ تبدّد لذلك النور و ضَعُفَ ، و أن ضاق مجرى النور ، و كان ذلك من الجبلّة فإنه محمود ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ الرّوحَ النوري كما وصفنا آنفاً ... و إن ضيقها من قبل نقصان الرطوبة البيضية أضرّ ذلك بالجليدية ، و من عِلَلِ الرطوبة البيضية أتمّها إذا كثرت حالت بين الحدقة التي هي الجليدية و بين البصر ، و إن قلت البيضية جفت الجليدية ؛ لِأَنَّ الجليدية إِذَا تَغْتَذِي مِنْهَا ، و إن غلظت البيضية غلظاً قليلاً ؛ لم يرى الناظر الشيء البعيد منه رأساً ، و رأى ما قَرَّبَ مِنْهُ رُؤْيَةً ضَعِيفَةً ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَدَّ بَصَرَهُ إِلَى البُعد لطف تلك المادة و تفرقت ، و لذلك صار من نظر من فوق جبلٍ لا يقدر أن يرى من رفع بصره إلى السماء لِأَنَّ الرطوبات الغليظة تتراجع إلى خلف ، و إن كانت المادة الغليظة في البيضية كلها ذهب البصر ، و يُسمى ذلك نزول الماء ، و إن كانت تلك المادة في وسطها فقط ؛ رأى كلّ شيءٍ يراه كُؤَةً ، لِأَنَّهُ يُحِيلُ إِلَيْهِ أَنَّ مَا لَا يُدْرِكُهُ بصره من ذلك الشيء عميق ، و إن لم تكن تلك المادة إلّا حوالي البيضية لم ير شيئاً كثيراً في دفعةٍ واحدةٍ ، و احتاج إلى

(1) بك أحمد : المرجع السابق ، ص. 76 ، 77 .

أن ينظر إلى كلِّ شيءٍ على حَدِّته ، و إن كانت تلك شيئاً كثيراً في دفعةٍ واحدةٍ ، و احتاج إلى أن ينظر إلى كلِّ شيءٍ على حَدِّته ، و إن كانت تلك المادة متفرقةً فيها رأى بين يديه أشياء على لون تلك المادة ... " (1) .

الملحق رقم 07 : العلل التي تُصيب الرَّحم (أسبابها و علاماتها)

" ... أمّا العلل العارضة في الرحم ؛ فهي النزف ، و احتباس الطمث ، و العلة المعروفة باختناق الرحم ، و النَّفخ و الرياح العارضة له ، و الأورام ، و العسلة المعروفة بالرجاء ، و العلة المعروفة بالقبّ ، و البواسر ، و الشقاق و سائر القروح ، و استرخاء الرَّحم و خروجه خارج ، و ميله إلى جانبٍ ، و انقلاب فَمِ الرَّحم ، و بُطلان الحمل و كثرة إسقاط الأجنّة ، و عسر الولادة ، و القروح الحادثة فيه . فأما احتباس الطمث فينبغي أن تعلم أولاً درور الطمث الطبيعي و إنقطاعه ، و ذلك أنّ الطَّمث للمرأة يكون عند ثمان سنين ، و أكثر من ذلك في أربعة عشر سنة ، و أمّا إنقطاعه ؛ فقد ينقطع عند بعضهنّ في السنة السادسة و الثلاثين ، و في بعضهنّ فيما بعد ذلك إلى تمام الستين سنة ، و الخنثى من النساء لا تطمث ... و احتباس الطمث يكون إما بسبب علةٍ في الرَّحم ، و إما بسبب غلظ الدم ، و إما بسبب ضربةٍ تقع بالرَّحم ، و إما بسبب علةٍ تكون في جميع البدن أو في عضوٍ واحدٍ ... و أمّا النَّزف فهو كثرة خروج الدم من الرحم ، و حدوثه يكون إما من إفراط استفراغ دم الطَّمث ؛ و هذا يكون إما من ضعف القوّة الماسكة ، و إما من رقة الدم و لطافته و حَدِّته ، و إما من كثرة الدم ، و إمتلاء العروق و تمدُّدها و إما من إنخراق بعض العروق ؛ بسبب خلطٍ حادٍ و تآكلٍ ... " (2) .

(1) الطبري ، علي ابن ربن : فردوس الحكمة ، ص. 161

(2) الأهوازي ، علي بن العباس الجوسي : كامل الصناعة الطبيّة ، ص. 384 .

الملحق رقم 08 : وصف السمرقندي لبعض الشيفات للأمراض التي تُصيب العين .

" ... و أمّا الشيفات الحادّة تتخذ من مثل الزاج ، و الفلفل ، و الزنجبار ، و الدمنج ، و الشادنج ، و الزرنبخ و النوشادر ، و زيد البحر ، و البورق ، و الاشقّ ، و الزنجرف ، و السكبينج ، و الغريون ، و شحم الخنظل و الدار فلفل ، و الزنجبيل ، و الملح الهندي ، و الشنج المحرّق ، و بعر الضبّ ، و قشور البيض ، و المراتات ... و لا ينبغي أن تخلو الأدوية الحادّة من اللينة المسكنة للحدّة ؛ مثل النشا و الصمغ ، و أسفيداج الرصاص بمقدار الحاجة ؛ إلى تسكين حدّتها ، و حفظ العين من حرارتها ... و يطول زمان إستعمالها أولى إلى السلامة من تهيج العين و إيجاعها ... و أمّا الشيفات المتعملة في قروح العين فهي المتخذة من غير لذع ؛ لحاجة القروح إلى ذلك و لذكاء حاسة العين ، و لما كانت قروحها لا تنجو من ورم و شدّة وجع ؛ فتحتاج من ذلك إلى المسكّنات و المغريات . أمّا الأولى ؛ أعني التي تجلو و تُخفّف من غير لذع مثل : التوتيا ، الرصاص المحرّق ، الابار المحرّق ، الكحل ، الكندر المصقّى و غير المصقّى ، الأنزروت . و أمّا الأخرى ؛ أي المسكّنات المغريات فمثل : الماميثا الصمغ ، بزر الورد ، الزعفران ، الأفيون ... و على الطبيب التركيب بحسب حالات القروح و أوقاتها على التدرج و الترتيب ، و الجمع بين الشيفات اللينة و الحادّة ... " (1) .

الملحق رقم 09 : تدبير من خرج من جنينها الرجل قبل الرأس :

" ... يجب أن تتلطّف ، و تردّ الرجل ، و تُقلّبه بلطفٍ حتّى يستوي قاعداً ، و تُشيل ساقيه قليلاً حتّى ينزل على رأسه . فإن لم يُمكن شئ من ذلك ، شدّ الجنين بعُصابات ، و أخرج . فإن لم يُمكن إلاّ القطع فعَل ذلك على قياس ما قيل في الجنين الميت ... " (2) .

(1) النجيب السمرقندي ؛ نقلاً عن مارتن ليفي و نوري الخالدي : الكيمياء في أقراباذين السمرقندي ، مجلّة الأبحاث ، ص. 41 .

(2) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1660 .

الملحق رقم 10 : تدبير من يخرج من جنينها على جنينها :

" ... هو قريب من ذلك ، و يُسوّى بالرفع إلى فوق ، و بالإجلاس و التّكس بالرفق ... " (1) .

الملحق رقم 11 : عسر الولادة و أسبابها :

" ... عسر الولادة إمّا أن يكون بسبب الحبلى ، أو بسبب الجنين ، أو بسبب الرّحم ، أو بسبب المشيمة ، أو

بسبب المجاورات و المشاركات ، و إمّا بسبب وقت الولادة ، و إمّا بسبب القابلة ، و إمّا بأسبابٍ بادية ... " (2) .

صفة دواء يمنع الإسقاط :

" ... يُؤخذ درونج ، و زرنباد ، و جند بيدستر ، و حلتيت ، و سكّ ، و مسك ، و عفص ، و طباشير ؛ من كلّ

واحدٍ درهم ، زنجبيل عشرة دراهم ، الشربة كلّ يومٍ مثقال بماءٍ باردٍ ، و حقن مسخّن من قبيل هذه ... و ممّا ينفع

فيه الصعتر ، و البابونج ، و الحلبة ، و الشبث ... " (3) .

الملحق رقم 12 : أسباب الإسقاط :

" ... أسباب الإسقاط ؛ إمّا بادية من سقطه ، أو ضربة ، أو رياضة مفرطة ، أو وثبة شديدة ؛ و خصوصاً إلى

خلف ، فإنّها كثيراً ما تُنزل المنيّ العالق بحاله ، أو شيئاً من الآلام التّفسانية ؛ مثل غضبٍ شديدٍ ، أو خوفٍ ، أو

حُزنٍ ، و من برد الأهوية ، و حرّها المفرطين ؛ و من هذا القبيل يُكره للحبالى مطاولة الحّمّام ... " (4) .

(1) ابن سينا : القانون في الطبّ ، ص. 1660 .

(2) المصدر نفسه ، ص. 1658 .

(3) المصدر نفسه ، ص. 1650 .

(4) ابن سينا : القانون في الطبّ ، مج. 2 ، ص. 1647 ، 1648 .

الملحق رقم 13 : تدبير من تلد و في رحمها ورم :

" ... يُستعمل عليها القيروطيات ، و الأدهان ، و تعمل بها ما رُسم أن يعمل بالسّمان ؛ من هيئة الولادة و غيرها ... " (1) .

الملحق رقم 14 : تدبير إخراج الجنين الميت :

" ... و أعلم أنّه إذا تعسّرت الولادة أربعة أيّام فقد مات الجنين ؛ فاشتغل بحياة الوالدة ، و لا تشتغل بحياة الجنين بل اجتهد في إخراجّه ، و الإسقاط قد تفعله حركات ، و قد تفعله أدوية ... و الأدوية تفعل بأن يقتل الجنين و بأن تدرّ الحيض بقوّة ، و قد تفعله بالإزلاق . و القاتلة للجنين هي المرّة ... و من الحركات الفصد ؛ و خصوصاً الرياضة ، و الوثبات الكثيرة ، و حمل الحمل الثقيل ، و التقيئة ، و التعطيس . و من التدبير الجيّد في ذلك أن يُدخل في فم الرّحم من الجبلى كاغد مفتول ، أو ريشة ، أو خشبة مبرية ؛ فإنّها تُسقط لا محالة ؛ و خصوصاً إذا لُطّخت بشييء من الأدوية المسقطة ؛ كالقطران ، و ماء شحم الحنظل ، و نحوه (2) .

الملحق رقم 15 : في وصف الآلات التي ينبغي للطبيب أن يحوزها .

" ... و أمّا الجراحيون، فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات و المرآهم و أيضاً كتاب الزهراوي في الجراح، و أن يعرفوا التشريح و أعضاء الإنسان، و ما فيه من العصل و العروق و الشرايين و الأعصاب، ليتحنّب الجراح ذلك في وقت فتح الموادّ و قطع البواسير... و يكون معه دسّ المباحض، فيه مباحض مدوّرات الرّأس، و المورّيات، و الحرّيات ، و فأس الجبّه، و منشأ القطع، و مجرّف الأذن ، و وزدّ السّلع و دواء الكندر القاطع للدّم ، الذي قدّمنا صفته ... و قد يُبهرجون على النّاس بعظام تكون معهم فيدسّونها في

(1) ابن سينا : المصدر السابق ، مج. 2 ، ص. 1661 .

(2) المصدر نفسه ، مج. 2 ، ص. 1660 ، 1661 .

الجُرْح ، ثُمَّ يُخْرِجُونَهَا مِنْهُ بِمَحْضَرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَدْوِيَتَهُمْ الْقَاطِعَةَ أَخْرَجَتْهَا... وَمِنْهُمْ مَنْ يَضَعُ مَرَاهِمَ مِنَ الْكِلْسِ الْمَغْسُولِ بِالزَّيْتِ ، ثُمَّ يَصْبُغُ لَوْنَهُ أَحْمَرَ بِالْمَعْرَةِ ، أَوْ أَخْضَرَ بِالْكُرْكُمِ وَالنَّيْلِ ، أَوْ أَسْوَدَ بِالْفَحْمِ الْمَسْحُوقِ ؛ فَيَعْتَبِرُ عَلَيْهِمُ الْعَرِيفُ جَمِيعَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ... (1) .

الملحق رقم 16 : وصف العروق الموجودة في جسم الإنسان

" ... و أما عروق الرّجلين فأربعة ، منها عرق النّسا و يُفَصِّدُ عند الجانب الوحشي من الكعب ؛ فإن خَفِيَ فليُفَصِّد في الشعبة التي بين الخنصر و البنصر ، و منفعة ذلك عظيمة سيّما في النقرش (2) ... و منها عرق الصّافن ؛ و هو على الجانب الأيسر ، و هو أظهرُ من عرق النّسا و فَصْدُهُ ينفع من البواسير و بدر الطّمث ، و ينفع الأعضاء التي تحت الكبد ... و منها عرق مابض الرّكبة ؛ و هو مثل الصّافن (3) في النّفع ... و منها عرق خلف العرقوب ؛ و كأنه شعبة من الصّافن ، و منفعة فصده مثل الصّافن ، و الذي يجوز فصده على الأكثر شريان الصدغين و الشريان الذي بين الإبهام و السّبابة ... (4) .

الملحق رقم 17 : في وصف عمل الرّؤاسين .

" ... أما الرّؤوس و الأكارع فيجوز بيّعها نيأً و مشويأً ، و وجهه ظاهر ، و أما المسموط الحقيق بالأكارع ، لأنّ الجلد منه في حكم جزءٍ من اللّحم ؛ إذ يُؤكَل معه ، و قال الإمام إنّ كان مشويأً فكما قال ، و إنّ كان نيأً ففيه إحتمالٌ ؛ فحينئذٍ يأمرهم بنظافة سمط الرّؤوس و الأكارع بالماء الشديد الحرارة ، و جودة نتف الشّعْر عنها ، ثمّ

(1) الشيرزي : المصدر السابق ، ص. 101 ، 102 .

(2) النقرش : ورم في المفاصل . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص. 99 .

(3) الصّافن : عرق في السّاق الخوارزمي : المصدر السابق ، ص. 154 .

(4) ابن الأحوّة : المصدر السابق ، ص. 250 ، 251 .

يُغسَل بعد ذلك بالماء البارد ، غير الذي سُمِطَ فيه و يشقّ خياشيم البهيمّة بعد أن يقذف مُقدّمها و ينزل ما فيه من الغذاء و الوسخ و الدّود المتولّد ؛ إن كان هناك منه شيءٌ ... " (1) .

(1) ابن الأخرّوة : المصدر السابق ، ص. 172 .

البيولوجيا الجزيئية

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : قائمة المصادر .

إبن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبي العباس الحزرجي (ت. 668 هـ / 1269) :

1 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د س ط) .

إبن الأثير ، أبو الحسن علي الشيباني (ت. 630 هـ / 1232 م) :

2- الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1997 .

ابن الأخوة ؛ محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت 762 هـ) :

3 - معالم القرية في طلب الحسبة ، تحقيق : محمد محمود شعبان و صديق أحمد عيسى المطيعي ، الهيئة المصرية

للكتاب 1976 م / 1408 هـ .

الأنطاكي داوود (ت. 1008 هـ / 1599 م) :

4 - تذكرة أولي الألباب و الجامع للعجب العُجاب ، شرح و تعليق : علي شيري ، مؤسسة عزّ الدين للنشر

بيروت 1411 هـ / 1991 م .

الأهوازي ، علي بن عباس الجوسي (ت 384 هـ / 994 م) :

5- الكامل في الصناعة الطّبية ؛ المعروف بـ : الملكي ، نقلاً عن موسوعة الطبّ الإسلامي ، معهد التاريخ

العربي الإسلامي ، فرانكفورت (ألمانيا) 1996 ، المجلد 28 .

ابن أبيّك ، أبي بكر بن عبد الله الدوداري :

6 - كنز الدرر و جامع الغرر ؛ نشر و تحقيق : سعيد عبد الفتّاح عاشور ، القاهرة 1391 هـ / 1972 م .

ج 7 .

البُخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي (ت. 256 هـ / 869 م) :

7- **الجامع الصحيح المختصر** ، تحقيق : مصطفى ديب البُعا ، دار الهدى ، عين أمليلة (الجزائر)
1992.

ابن بسّام ؛ محمّد بن أحمد المحتسب (عاش في القرن التاسع الميلادي) :

8 - **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** ، تحقيق : حسام الدّين السامرائي مطبعة المعارف ، بغداد 1968 م .
البُستي ، أبو الحاتم محمد بن حَبّان (ت 354 هـ) :

9- **تاريخ الصحابة** ، تحقيق : بوران الضّناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1408 هـ / 1988 م .

البكري ، أبو عبد الله الأندلسي (ت 487 هـ / 1094 م) :

10- **معجم ما أستعجم من أسماء البلدان و المواضيع** تحقيق : جمال طُلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت
1418 هـ / 1988 م .

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (279 هـ / 892 م) :

11- **فتوح البلدان** ، تحقيق : شوقي أبو خليل ، منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق 1997 .

إبن بلبان ، علاء الدين الفارسي (ت. 739 هـ) :

12- **صحيح ابن حَبّان بترتيب ابن بلبان** ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1414 هـ /
1993 م ، الطبعة الثانية .

البَلدي ، أحمد بن محمّد بن يحيى :

13 - **تدبير الحبالى و الأطفال و الصبيان و حفظ صحّتهم و مداواة الأمراض العارضة لهم** ، وزارة الثقافة
و الإعلام العراقية ، بغداد (العراق) 1980 م ، الطبعة الأولى .

- البنداري ، الفتح بن علي الأصفهاني (ت 643 هـ / 1245 م) :
- 14- تاريخ دولة آل سلجوق** ، دار الآفاق الجديد ، بيروت 1980 ، الطبعة الثالثة .
- ابن البيطار ، أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين (ت 647 هـ) :
- 15 - الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1412 هـ / 1992 م .
- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت. 458 هـ) :
- 16- شُعَبُ الإِيمَان** ، تحقيق : محمد السعيد بسيوي زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1410 هـ / 1990 م .
- البيهقي ، ظهر الدين (ت. 565 هـ / 1169 م) :
- 17- تاريخ حُكَمَاء الإسلام** ، تحقيق : محمد كرد علي ، مطبعة الترقّي ، دمشق 1365 هـ .
- الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي (ت. 279 هـ / 892 م) :
- 18- الجامع الصحيح** ، تحقيق : أحمد محمد شاكر و آخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د س ط) .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلّيم تقيّ الدين :
- 19- الفتاوى** ، جمعها : عبد الرّحمان بن قاسم العاصمي : الرياض (المملكة العربية السعودية) 1398 هـ .
- الطبعة الأولى ، الجزء 35 .
- ثابت بن قرّة :
- 20. الذخيرة في الطب** ، المطبعة الأميرية ، القاهرة 1938 م
- ابن جبير ؛ محمد بن أحمد بن جبير الكتّاني الأندلسي (ت 614 هـ) :
- 21- رحلة ابن جبير** ، تحقيق : مصطفى زيادة ، بيروت ، (د س ط) .

- ابن الجزّار أحمد بن إبراهيم القيرواني (ت 369 هـ) :
- 22 - سياسة الصبيان و تدبيرهم ، تحقيق : الحبيب الهيلة ، تونس 1979 .
- ابن جلجل ، سليمان بن حسّان الأندلسي (عاش في القرن الرابع الهجري) :
- 23- طبقات الأطباء و الحكماء ، تحقيق : فؤاد سيّد ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار ، القاهرة 1955 .
- الجهشياري ، أبي عبد الله محمد بن عبدوس :
- 24- كتاب الوزراء و الكُتّاب ، تقديم : حسن الزين ، دار الفكر العربي بيروت 1988 .
- إبن الجوزي ، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت. 597 هـ / 1201 م) :
- 25- المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية ، بيروت 1992 .
- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله الرّومي (ت. 1067 هـ / 1656 م) :
- 26- كشف الظنون في أسامي الكتب و الفنون ، دار الكتب العلمية بيروت 1413 هـ / 1992 م .
- ابن الحشاء :
- 27- مفيد العلوم و مبيد الهموم ، تحقيق : جورج س كولان ، ه ب ج رونو ، المطبعة الإقتصادية مصطفى بن عبد الله ، الرباط (المغرب) 1941 .
- الحموي ، شهاب الدّين الرّومي البغدادي (ت. 626 هـ / 1228 م) :
- 28- معجم الأدباء ، المسمى : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1993 .
- 29- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1995 ، الطبعة الثانية .

الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم :

30- الرّوض المعطار في خَبَر الأوطان ، تحقيق : إحسان عبّاس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1980
الطبعة الثانية .

الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) :

31 - تاريخ بغداد أو دار السلام ، مطبعة السعادة ، القاهرة (مصر) 1319 هـ / 1931 م . الجزء 1 .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد أبوزيد (ت 808 هـ) :

32- مقدّمة ابن خلدون ؛ و هي الجزء الأوّل من كتاب :تاريخ ابن خلدون ؛ المعروف بـ : العِبْر و ديوان
المتبدأ و الخَبْر ؛ في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق : خليل
شحاذاة و سهيل زكار ، دار الفكر العربي بيروت 1431 هـ / 1001 م .

الخوارزمي محمّد بن أحمد بن يوسف (ت 387 هـ) :

33- مفاتيح العلوم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1409 هـ / 1989 م ، ط 2.

أبو داوود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت 275 هـ) :

34- سنن أبي داوود ، تعليق : عزّت عبيد الدّعاس ، دار ابن حزم ، بيروت 1418 هـ / 1997 م .

الذهبي ، الحافظ أحمد بن عثمان (ت . 748 هـ / 1347 م) :

35- الإعلام بوفيات الأعلام ، تحقيق : مصطفى بن علي عوض و ربيع أبو بكر عبد الباقي ، مؤسسة الكتب
الثقافية ، بيروت 1413 هـ / 1993 م .

الزّازي ، أبوبكر محمد بن زكريا (ت . 320 هـ / 932 م) :

36 - الحاوي في الطبّ ، تحقيق : هشام طعيمي ، دار إحياء التراث ، بيروت 2002 .

37 - أخلاق الطبيب ، تحقيق : عبد اللطيف محمد العبد ، المكتبة العصرية ، بيروت 1400 هـ / 1980 ، ط 2 .

38 - كتاب المرشد أو الفصول ، تحقيق : ألبير زكي اسكندر ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة 1995 ط 2 .

39 - كتاب المنصوري ، نقلاً عن موسوعة الطب الإسلامي ، معهد التاريخ العربي الإسلامي ، فرانكفورت (ألمانيا) 1996 ، المجلد 26 .

40 - منافع الأغذية و دفع مضارها ، دار صادر ، ط 1 ، المطبعة الخيرية 1305 هـ .

الزهراوي ، إسحاق بن علي (القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي) :

41 - أدب الطبيب ، تحقيق : كمال السامرائي و داوود سليمان علي دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1992 .

الزهراوي ، أبو القاسم خلف بن عباس (ت 404 هـ) :

42 - التصريف لمن عجز عن التأليف ، تحت إدارة : أبو الحسنات قطب الدين أحمد ، المطبع العام الكائن ببلدة الكنؤ ، 1326 هـ / 1908 .

السندي ، أبي الحسن الحنفي :

43 - شرح سنن ابن ماجة القزويني ، دار الجليل ، بيروت (د س ط) .

إبن سينا ، أبو علي الحسين بن عبد الله :

44 - القانون في الطب ، تقديم : علي زيغور ، تحقيق : إدوار القشّ ، مؤسسة عزّ الدين للطباعة و النشر بيروت 1993 .

- 45 - الأدوية المفردة ، من كتاب : القانون في الطب ، شرح : جبران جبّور تعليق : أحمد شوكت الشطّي ، دار المعارف 1404 هـ / 1984 م ، ط 4 .
- السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت . 911 هـ / 1505 م) :
- 46 - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة 1969 ط 4 .
- السيوطي ، شمس الدين بن أحمد المنهاجي (القرن التاسع الهجري) :
- 47 - جواهر العقود و معين القضاة و الموقعين و الشهود ، مطبوع على نفقة : محمّد سرور الصبّان ، المملكة العربية السعودية (د س ط) ، ط 2 ، ج 2 .
- الشيرازي ؛ عبد الرحمان بن نصر (ت 590 هـ / 1194 م) :
- 48 - نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر : الباز العريبي ، إشراف : محمّد مصطفى زيادة ؛ مطبعة التأليف و الترجمة و النّشر ، القاهرة 1365 هـ / 1946 م .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ) :
- 49 - تاريخ الأمم و الملوك ؛ المعروف بـ " تاريخ الطبري " ، تحقيق : أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية (د س ط) .
- الطبري ، علي بن ربن (ت 232 هـ / 850 م) :
- 50 - فردوس الحكمة ، تحقيق : محمد زبير الصديقي ، مطبع أقتاب ، برلين (ألمانيا) ، 1928 .
- طيفور ، أحمد بن أبي طاهر (ت . 280 هـ / 893 م) :
- 51 - كتاب المستوعب لفترة خلافة المأمون ، تحقيق : هنس كلّر ، دار الجنان ، بيروت (د س ط) .

العسقلاني ؛ ابن حجر الحافظ أحمد بن علي :

52 - بذل الماعون في فضل الطاعون ، تحقيق : أحمد عصام عبد القادر الكاتب ، دار العاصمة ، الرياض

(د س ط) .

إبن عمراني ، محمد بن علي بن محمد :

53 - الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : قاسم السامرائي ، دار الآفاق العربية القاهرة 1991 .

إبن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم :

54 - المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة 1934 ، ط 4 .

القرماني ، أحمد بن يوسف (ت . 1019 هـ) :

55 - أخبار الدول و آثار الأول في التاريخ ، تحقيق : أحمد حطيظ و فهمي سعد ، عالم الكتب 1412

هـ / 1992 م .

القفطي ، أبو الحسن يوسف جمال الدين (ت . 646 هـ / 1248 م) :

56 - تاريخ الحكماء ، من كتاب : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تحقيق : جوليوس ليارت ، لايبزيغ

(ألمانيا) 1903 .

ابن القيم الجوزية ، شمس الدين بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت 751 هـ) :

57 - الطب النبوي ، تعليق : عادل الأزهرى و عبد الغنى عبد الخالق دار الفكر ، بيروت (د س ط) .

58 - زاد المعاد في هدي خير العباد ، دار المنار ، القاهرة 1424 هـ / 2003 م ، ط 1 ، المجلد 2 ، ج 3 .

ابن كثير ؛ الحافظ عماد الدين القرشي الدمشقي (ت 774 هـ) :

59 - البداية و النهاية ، تحقيق : عبد الرحمن بن عبد الله المحسن التركي ، دار هجر 1418 هـ / 1998 م

ط 1 ، ج 10 .

المزري ، جمال الدين أبي الحجاج يوسف (ت. 742 هـ) :

60- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق : بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1408 هـ / 1988 م ، ط 1 .

المسعودي ، علي بن الحسين (ت. 346 هـ / 957 م) :

61- مروج الذهب و معادن الجواهر ، تعليق : قاسم وهب ، دمشق 1988 .

مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد (ت. 421 هـ / 1030 م) :

62 - تجارب الأمم ، طبعة أمدرود ، القاهرة 1919 .

مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين النيسابوري (ت 284 هـ / 897 م) :

63 - صحيح مسلم ؛ بشرح النووي ، إشراف : حسن عباس قطب ، دار عالم الكتب ، الرياض (المملكة العربية السعودية) 1424 هـ / 2003 م ، ط 1 .

المقريزي ، تقي الله أبي العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ / 1441 م) :

64 - السلوك لمعرفة الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1418 هـ / 1997 م ، ط 1 ، ج 1 .

المنذري ؛ عبد العظيم بن عبد القوي الحافظ (ت 656 هـ) :

65 - مختصر سنن أبي داود ، تحقيق : الشيخ الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض (المملكة العربية السعودية) 1431 هـ / 2010 م ، ط 1 ، ج 1 .

إبن منظور (ت 711 هـ / 1311 م) :

66 - لسان العرب ، تعليق : محمد شيري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1988 .

إبن التميمي ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت. 385 هـ / 995 م) :

67 - الفهرست ، تحقيق : رضا المازندراني ، دار المسيرة ، طهران (إيران) 1988 ، ط 3 .

التّسائي ؛ عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن عليّ :

68 - المجتبي من السنن ؛ المشهور ب : سنن التّسائي " ، تحقيق : الشيخ الألباني ، بيت الأفكار الدولية

الرياض (المملكة العربية السعودية) 1420 هـ / 1999 م .

ابن نظيف ، أبو الفضائل محمد بن عليّ الحموي :

69 - التاريخ المنصوري ، تلخيص : الكشف و البيان في حوادث الزمان ، تحقيق : أبو العبد دود

مطبعة الحجاز ، دمشق (د س ط) ، ج 1 .

ابن هبيرة يحيى لن محمد ؛ أبو المظفر الوزير (ت 560 هـ) :

70 - الإفصاح عن معاني الصحاح ، نشر مؤسسة السعيد بالرياض ، طبع بمطبعة الدجوي ، القاهرة 1978 م

ج 1 .

إبن هشام ، أبي محمد بن عبد الملك :

71 - السيرة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1419 هـ / 1998 م .

إبن وردان ، حسين بن محمد (ت . 1172 هـ)

72 - تاريخ العبّاسيين ، أو : دولة الرّشيد من بني العبّاس و بنيّه تحقيق : منحي الكعبي ، دار الغرب الإسلامي

بيروت 1993 .

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت 284 هـ) :

73 - البلدان ، المكتبة المرتضوية ، النّجف (العراق) 1337 هـ / 1918 م .

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ) :

74 - الخراج ، ط 4 ، المطبعة السلفيّة ، القاهرة 1392 هـ .

قائمة المراجع :

أ. المراجع العربية :

إبراهيم بن مراد :

1 - بحوث في تاريخ الطبّ و الصيدلة عند العرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1991 .

أحمد الخانجي :

2 - منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ، المجلد التاسع ، ج 1 ، مطبعة محمد إسماعيل القاهرة

1325 هـ / 1907 م ، ط 1 .

أحمد الشايب :

3 - تاريخ الشعر السياسي ، دار القلم ، بيروت 1987 ، ط 5 .

أحمد أمين :

4 - ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1343 هـ / 1935 م ، ط 10 .

أحمد جبار :

5 - علماء الحضارة العربية الإسلامية و مساهماتهم ، كليك للنشر ، الجزائر 2011 ، ط 1 .

أحمد عبد الحليم عطية :

6 - دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة 1991 .

أحمد فؤاد باشا :

7 - التراث العلمي للحضارة الإسلامية و مكائنه في تاريخ العلم و الحضارة ، دار المعارف 1403 هـ /

1983 م ، ط 1 .

أحمد موراني :

8 - تاريخ العلوم عند العرب ، دار المشرق ، بيروت 1989 .

آدم متز :

9 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب : محمد عبد الهادي أبو ريده ، دار الكتاب العربي

بيروت 1387 هـ / 1967 م ، ط 4 .

الأشقر ، عمر سليمان عبد الله :

10 - مختارات من سير أعلام النبلاء و تاريخ الإسلام للذهبي ، دار التفائس ، عمّان (الأردن) 1436 هـ

/ 2015 م ، ط 1 .

أمين رويحة :

11 - أمراض الجهاز البولي ، دار القلم ، بيروت 1983 ، ط 3 .

الباز العريني :

12 - المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت 1406 هـ / 1986 .

بديوي ، يوسف علي :

13 - عصر الدويلات الإسلامية في المغرب و المشرق ، دار الأصالة ، الجزائر 1431 هـ / 2010 م .

بك ، أحمد عيسى :

14 - البيمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي 1401 هـ / 1981 م .

بول غليونجي :

15 - قطوف من تاريخ الطب ، دار المعارف ، القاهرة 1987 .

الترمانيني ، عبد السلام :

16 - أحداث التاريخ الإسلامي ، دار طلاس ، دمشق 1411 هـ / 1991 م .

توماس أربولوند و آخرون :

17 - تراث الإسلام ، ترجمة : جورجيس فتح الله ، دار الطليعة ، بيروت 1972 ، ط 2 .

الجابري ، محمد عابد :

18 - الكليات في الطبّ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1991 .

جلال محمد عبد الحميد موسى :

19 - منهج البحث العلمي عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت 1988 .

جميل صليبا :

20 - تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت 1415 هـ / 1995 م ، ط 3 .

جودت فرج :

21 - البرامكة ، سلبياتهم و إيجابياتهم ، دار الفكر العربي ، بيروت 1990 .

حري عبّاس عطيتو محمود ، و حسن حلاق :

22 - العلوم عند العرب ، أصولها و ملامحها الحضارية ، دار النهضة العربية ، بيروت 1995 .

حسن حلاق :

23 - مقدّمة في تاريخ العلوم و التكنولوجيا ، الدار الجامعية 1990 .

حسين إبراهيم حسن :

24 - تاريخ الإسلام ، دار الجيل ، 1991 ، ط 13 .

حنان قرقوني :

25 - من العلوم عند المسلمين ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت
1427 هـ / 2006 م .

حنيفة الخطيب :

26 - الطبّ عند العرب ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت 1988 .

الخضري ؛ محمّد بن عفيفي الباجوري :

27 - اتمام الوفا في سيرة الخلفاء : تحقيق : عبد المجيد طعمه حلبي ، دار المعرفة ، بيروت (لبنان) 1419 هـ
/ 1998 م .

الدقّاع ، علي بن عبد الله :

28 - إسهام علماء العرب و المسلمين في علم الحيوان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 ، ط 1 .

29 - رواد علم الطبّ في الحضارة العربية الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1419 هـ / 1998 م
ط 1 .

30 - روائع الحضارة الإسلامية في العلوم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1998 ، ط 1 .

الدمرداش ، أحمد سعيد :

31- تاريخ العلوم عند العرب ، دار المعارف ، القاهرة 1977 .

راغب السرجاني :

32 - قصّة العلوم الطّبيّة في الحضارة الإسلامية ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة 2009 .

أبو رغدة حسن :

33 - أحكام السجن و معاملة السجناء في الإسلام ، مكتبة المنار ، الكويت 1406 هـ / 1987 م ط 1.

الرفاعي أنور :

34 - الإسلام في حضارته و نُظْمِهِ ، دار الفكر العربي ، دمشق (سوريا) (د س ط) .

الزركلي ، خير الدين :

35 - كتاب الأعلام ، قاموس و تراجم الرّجال و النّساء من العرب و المستعربين و المستشرقين ، دار العلم

للملايين ، بيروت 2002 ، ط 15 .

زهير حمدان :

36 - أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية و التطبيقية ، مكتبة الأسد ، دمشق 1995 .

زيجريد هونكه :

37 - شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون و كمال الدسوقي ، منشورات المكتب التجاري

للطباعة و النّشر ، بيروت 1969 ، ط 2 .

السرطاوي فؤاد عبد اللّطيف :

38 - كتاب البيئة و البعد الإسلامي ، دار المسيرة ، عمّان (الأردن) 1420 هـ / 1999 م ، ط 1 .

السيد الجميلي :

39 - الإعجاز الطّبي في القرآن ، تقديم : محمّد متولّي الشعراوي ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت ، 1999 م

الشنطّي ، أحمد شوكت :

40 - الحضارة العربية الإسلامية ، مطبعة جامعة دمشق ، 1383 هـ / 1993 م .

41 - تاريخ الطبّ ، أعلامه و آدائه ، مطبعة طربين 1967 .

طقوش محمد سهيل :

42 - التاريخ الإسلامي (الوجيز) ، دار النَّفائس ، بيروت 1432 هـ / 2011 م ، ط 5 .

عامر النَّجار :

43 - في تاريخ الطبّ في الدولة الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة 1969 ، ط 3 .

عبد الحلّيم منتصر :

44 - تاريخ العلم و دور العلماء في تقدّمه ، دار المعارف ، الإسكندرية 1969 ، ط 3 .

عبد العزيز اللَّبدي :

45 - تاريخ الجراحة عند العرب ، دار الكرمل للنّشر و التوزيع ، عمّان (الأردن) 1992 م .

عبد الكريم شحادة :

45 - صفحات من تاريخ التراث الطّبي العربي الإسلامي ، منظمة الصّحّة العالمية ، دار أكاديميا ، بيروت

(لبنان) (د س ط) .

عرقسوسي ، محمد حسن :

46 - ابن سينا و النّفس البشرية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986 ، ط 2 .

العشماوي ، محمد سعيد :

47 - الخلافة الإسلامية ، دار سينا للنّشر ، القاهرة 1992 ، ط 2 .

عفيفي ، محمّد الصّادق :

48 - تطوّر الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1997 م .

العقيقي ، نجيب :

94 - المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة 1965 ، ط 4 .

العلي محي الدين طالو:

50- تطوّر الجنن و صحة الحامل ، دار الهدى ، عين امليلة ، الجزائر 1987 .

علوان عبد الله ناصح :

51 - معالم الحضارة في الإسلام و أثرها في النهضة الأوربية ، دار السلام للطباعة و النشر ، القاهرة

1966 م ، ط 2.

علي شلق :

52 - العقل العلمي في الإسلام ، منشورات جرّوش برس ، طرابلس (لبنان) 1413 هـ / 1992 م .

العيدروس محمد حسن :

53 - تطوّر الحياة الإجتماعية و الإقتصادية و الفكرية في العصر العبّاسي ، دار الكتاب الحديث

القاهرة 1432 هـ / 2011 م .

العيسوي ، عبد الرحمن محمد :

54 - علم النفس الإكلينيكي ، الدار الجامعية ، بيروت 1992 .

55 - علم النفس الطّبي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية (د س ط) .

فراج عزّ الدين :

56 - فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د س ط) .

الفنجري ، أحمد شوقي :

57 - الطبّ الوقائي في الإسلام (تعاليم الإسلام الطّبية في ضوء العلم الحديث) ، الطبعة الثالثة ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1991 م .

قدري حافظ طوقان :

58 - العلم مع الحياة ، مكتبة المعارف ، بيروت 1407 هـ / 1987 م ، ط 2 .

قنواي :

59 - تاريخ الصيدلة و العقاقير في العهد القديم و العصر الوسيط ، القاهرة 1954 .

الفتنجي ، صديق بن حسن (ت 1307 هـ) :

60 - أبجد العلوم ؛ المعروف بـ " الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم " ، منشورات وزارة الثقافة

و الإرشاد دمشق (سوريا) 1978 م ، ج 2 .

الكتّاني عبد الحيّ :

61 . التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية ، شركة الأرقم بن الأرقم ، بيروت (لبنان) د س ط ، ط 2

ج 1 .

اللّهيي ، مؤيد عيدان كاطع :

62 - الإتجاهات الفكرية و السياسية في العصر العباسي ، دار مُحَاكاة للدراسات ، دمشق (سوريا) 2012 .

ماتيو ج أورلاند :

63 - الطرق الحديثة في معالجة الأمراض الباطنية ، ترجمة : مازن طليمات ، دار طلاس ، دمشق 1992

محمد ألتونجي :

64 - مشاهير العالم ، إشراف : إميل يعقوب ، دار الجيل ، بيروت (د س ط) .

محمد بن عبد الرحمن مرجبا :

65 - المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الجيل ، بيروت 1998 .

محمد عابد الجابري :

66 - الكليات في الطبّ ، مع معجم بالمصطلحات الطبية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1991 .

محمد عمارة :

67 - العطاء الحضاري للإسلام ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة 1425 هـ / 2004 م .

محمد كرد علي :

68 - الإسلام و الحضارة الإسلامية ، دار الكتب المصرية ، 1354 هـ / 1937 م .

محمود الحاج قاسم :

69 - الطبّ عند العرب و المسلمين . تاريخ و مساهمات ، الدار السعودية للنّشر 1987 . ط 1 .

الملاّ ، أحمد عليّ :

70 - أثر العلماء المسلمون في الحضارة الأوربية ، دار الفكر ، 1401 هـ / 1981 م ، ط 2 .

هاشم يحي الملاح و آخرون :

71 - حضارة العراق ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1984 .

هاني سعادة نادية :

72 - حفریات طبّ الرّازي ، دار الغرب للنّشر و التوزيع ، وهران 2005 .

يوسف فرحات :

73 - علماء العرب ، الشركة المشرقية للمطبوعات ، (د م ط) 1986 .

ج . الموسوعات و المعاجم :

إبراهيم القرشي و آخرون :

1 - الموسوعة العربية العالمية ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر و التوزيع ، الرياض (المملكة العربية السعودية)

1416 هـ / 1996 م .

أحمد راتب عرموش :

2 - موسوعة الأديان ، ط 4 ، دار التفائس ، بيروت 1428 هـ / 2007 م .

أحمد مختار عمر :

3 - معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة 1429 هـ / 2008 م ، ط 1 ، المجلد 1 .

آمنة بوحجر :

4 - موسوعة المدن الإسلامية ، ط 2 ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، عمّان (الأردن) 2010 .

ألتونجي محمد :

5 - مشاهير العالم . الموسوعة الثقافية العامة . دار الجيل ، بيروت (د س ط) .

البعليكي منير :

5 - معجم أعلام المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت 1413 هـ / 1992 م .

البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ) :

6 - معجم ما أشتعجم من أسماء البلدان و المواضع ، مج 2 ، تحقيق : جمال طلبة ، ، دار الكتب العلمية

بيروت ، لبنان ، 1418 هـ / 1998 م .

الخطيب ، مصطفى عبد الكريم :

7- معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1416 هـ / 1997 م .

راغب السرجاني :

8 - الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ، ط 1 ، ج 1 ، مؤسسة إقرأ ، القاهرة 1426 هـ / 2005 م

السّمّك ، محمد هشام :

9 - موسوعة العلوم الحيوية ، دار المعرفة ، دمشق ، 1413 هـ / 1992 م .

سيفمند ستيف لمر :

10 - الموسوعة الطّبية الكاملة للأسرة ، ترجمة : أنس الرفاعي ، دار الفكر العربي ، دمشق 1408 هـ /

1987 م .

شاكِر مصطفى :

11 - موسوعة دول العالم الإسلامي و رجالها ، دار العلم للملايين ، بيروت 1993 .

فايز الدّاية :

12 - معجم المصطلحات العلمية العربية ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق (سوريا) 1410 هـ / 1990 م .

قنسنك و آخرون :

13 - دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : محمد ثابت الفندي و آخرون ، القاهرة 1352 هـ / 1933 م .

عبد المنعم مصطفى :

14 - الموسوعة الطّبية العائليّة ، المؤسسة العربيّة للدراسات و النّشر ، بيروت 1408 هـ / 1987 م .

علي أكبر ولايتي :

15 - موسوعة الإسلام و إيران ، مج. 1 ، دار الهادي ، بيروت ، 1427 هـ / 2007 م .

علي بن هاديّة و آخرون :

16 - القاموس الجديد للطلاب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1411 هـ / 1991 .

عبد الرحيم مارديني :

17 - موسوعة كنز المعلومات ، دار البدر ، المحمدية ، (الجزائر) د س ط .

كمال محمد الدسوقي و آخرون :

18 - الموسوعة العربية الميسرة ، ط 2 ، دار الجيل ، بيروت 2001 .

محمد أمين فرشوخ :

19 - موسوعة عباقرة الإسلام في العلم و الأدب و الفكر و القيادة ، دار الفكر العربي ، دمشق (سوريا)

1413 هـ / 1992 م .

محمد شفيق غربال :

20 - الموسوعة العربية الميسرة ، مج. 1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1965 م .

هشام نشابة و آخرون :

21 - موسوعة أعلام العلماء و الأدباء العرب و المسلمين ، دار الجيل ، بيروت ، 1425 هـ / 2004 م .

هولو زامبارو :

22 - معجم الأنساب و الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : سيّدة إسماعيل و آخرون دار التراث

العربي بيروت 1400 هـ / 1980 م .

وديع جبر :

23 - معجم النباتات الطبيّة ، دار الجيل ، بيروت 1408 هـ / 1987 م .

يُسرَى عبد الغنيّ عبد الله :

24 - معجم المؤرخين المسلمين ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1411 هـ / 1991 م .

ج . الجرائد و المجلات

1 - إحسان صدقي العمدة :

الطبّ النَّفسي عند العرب و المسلمين ، مجلة العربي ، العدد 333 ، أوت 1987 ، الكويت .

2 - سلمان قطاية :

" قسطنطين الإفريقي مرّةً أخرى " ، مجلة العربي ، العدد 333 ، أوت 1986 .

3 - عادل البكري :

الطبّ الوقائي عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العربي ، العدد 2 (أبريل 1970) ، دمشق .

4 - عبد الحق حميش :

حفظ الصّحة في الإسلام ، جريدة الخبر (الجزائر) ، العدد 7396 ، الإثنين 07 جمادى الثانية

1435 هـ / 07 أبريل 2014 م .

5 - عبد العزيز عبد الله :

تعليم الطبّ بالمغرب و العالم الإسلامي ، مجلة الأكاديمية ، العدد 5 ، ربيع الثاني 1409 هـ /

ديسمبر 1988 م .

6 - عبد العزيز خضر عباس :

الطبّ العباسي ، مجلة آفاق التراث و الثقافة ، مركز جمعة ماجد للثقافة و التراث ، دبي (الإمارات

العربية المتّحدة) ، العدد 34 ، 1422 هـ / 2001 م .

7 - مارتن ليفي و نوري الخالدي :

الكيمياء في أقراباذين السمرقندي ، مجلّة الأبحاث ، الدار الشرقية للطباعة و النشر ، بيروت
السنة 17 ، الجزء 1 ، آذار 1964 .

8 - محمد فؤاد الذاكري :

الصناعة الطّبية في بلاد الشام ، مجلّة : آفاق الثقافة و التراث ، العدد 40 ، شوال 1423 هـ /
يناير 2003 م .

9 - محمد ياسر زكور :

رسالة أبي بكر الرّازي في الزكام التحسيسية ، مجلّة آفاق التراث و الثقافة العددان 22 ، 23
1419 هـ / 1998 م .

10 - نشأت الحمارنة :

فضل دمشق في تطوّر الطبّ بين العصرين النوري و المملوكي ، مجلّة التراث العربي العدد 55 ،
دمشق (سوريا) ذي القعدة 1414 هـ / 1994 م .

د - المراجع الأجنبية :

- 1 - André Miquel : **l'islam est sa civilisation** , Armand _ Colin , Paris, 2003 .
- 2 - Dominique Sourdel : **Histoire Des Arabes** , çinquième edition , presses unversitaire de France , paris 1976
- 3 - Fuad Sezin : **Islamic Medcine** , Institute for history of Arabic islamic , science at johann wolfgang goethe university , Frankfurt Germany 1996
- 4 - Gustave Le Bon : **La civilization des arabes** , Casbah - édition , Alger 2009.
- 5 - H . A .R GIBB : **The Encyclopedia Of Islam** forth impression , vol 2 LEIDEN , E . J . BRILL , 1986 .
- 6 - Madleine Michaux : **Histoire du Moyen Age** , Edition Eprolles , Paris 2007 .
- 7 - Pierre Vallas : **Dictionnaire de civilisation musulmane** , Larousse Paris 2001 .
- 8 - Rosdi Rashed : **Histoire des sciences arabes** , édition du Seuil Paris 1997 .

الرسائل الجامعية :

أسماء يوسف آل ذياب :

1 . الرعاية الصحيّة و الطّبيّة في القرن الأوّل الهجري (رسالة ماجستير) ، جامعة الشارقة ، الإمارات العربية المتّحدة ، 1432 هـ / 2011 م .

خولة المقبل :

2 - العمل الدّعوي عند حلول الكوارث ، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام " محمّد بن سعود " ، كليّة الدعوة و أصول الدّين قسم الدعوة و الإحتساب .

صالح بن عبد الله بن محمّد الزهراني :

3 - الكوارث الطبيعيّة و آثارها في بلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة أمّ القرى ، المملكة العربية السعودية 1432 هـ .

الفهارس

فهرس الأعلام

.أ.

أبقراط : 28 ، 85 ، 91 ، 113 ، 140 ، 155 ، 163 ، 190 .

ابن أبي أصيبعة : 46 ، 142 ، 144 ، 145 ، 153 ، 155 ، 157 ، 160 ، 167 ، 170 ، 190 .

إبن أبي الأشعث : 143 ، 144 ، 145 ، 146 .

ابن الأخوة : 126 ، 133 .

أرسطو : 161 ، 163 ، 190 .

أسامة بن زيد : 55 .

أسامة بن شريك : 24 .

أفلاطون : 163 .

الأنطاكي (إتيان) : 152 ، 194 .

أنطونيوس الفلورنسي (بينيفيتي) : 185 .

الأهوازي ، علي بن عباس : 69 ، 85 ، 88 ، 138 ، 150 ، 151 ، 152 ، 155 ، 188 ، 189

. 193 ، 194 .

إبراهيم الخليل عليه السلام : 15 .

إبراهيم بن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم : 15 .

إبراهيم بن محمد بن بطحا : 110 .

إبراهيم الموصللي : 51 .

الإسرائيلي ، إسحاق بن سليمان : 194 .

الإسكندر المقدوني : 46 .

إقليدس : 163 .

. ب .

بختيشوع : 31 ، 100 .

بديع الزمان الهمذاني : 149 .

ابن بسّام : 108 ، 118 ، 121 ، 124 ، 132 .

البلدي : 93 .

بولص : 115 .

. ت .

ابن التلميذ : 111 .

ابن تيمية : 45 ، 52 .

. ث .

ثابت بن سنان بن قرّة : 48 ، 52 ، 111 ، 112 .

ثمّامة : 44 .

. ج .

جابر بن عبد الله : 24 ، 55 .

الجاحظ : 101 .

جالينوس : 28 ، 85 ، 138 ، 140 ، 144 ، 163 ، 190 .

الجبائي ، أبو منصور : 163 .

جبرائيل بن يحيى : 61 .

ابن جبير : 41 ، 42 .

ابن الجزار القيرواني : 91 ، 92 ، 93 .

جلال الدين القزويني : 102 .

جنكينخان : 169 .

جيراردو الكريمونتي : 192 .

· ح ·

الحارث بن كلدة : 25 ، 30 .

حستان بن ثابت : 15 .

الحسن القمري : 167 . 168 .

الحسن بن سوار : 152 ، 153 ، 154 ، 181 ، 182 .

حفصة زوجة النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : 20 .

حنين بن إسحاق : 51 ، 95 ، 114 ، 138 ، 190 .

· خ ·

خوارزم شاه : 154 .

· د ·

أبو الدرداء رضي الله عنه : 17 .

الدميري أبو البقاء : 102 .

دوفريس هوغو : 84 .

• ر •

الـرّازي : 29 ، 30 ، 36 ، 63 ، 64 ، 65 ، 70 ، 71 ، 72 ، 79 ، 80 ، 88 ، 89 ، 95 ، 98

99 ، 100 ، 103 ، 113 ، 114 ، 119 ، 138 ، 139 ، 140 ، 142 ، 143 ، 144 ، 151

156 ، 173 ، 174 ، 175 ، 176 ، 177 ، 183 ، 184 ، 185 ، 187 ، 189 ، 190 ، 191

. 193

الـرّازي ، فخر الدّين : 170 .

رفيدة الأنصارية : 24 .

• ز •

الـزهرراوي : 86 ، 87 ، 88 .

زيجريد هونكه : 42 ، 64 ، 186 ، 187 ، 188 .

• س •

إبن سينا : 29 ، 42 ، 63 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 72 ، 73 ، 74 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84

85 ، 88 ، 89 ، 95 ، 97 ، 98 ، 99 ، 104 ، 105 ، 149 ، 150 ، 161 ، 162 ، 163

164 ، 165 ، 166 ، 167 ، 177 ، 178 ، 179 ، 180 ، 181 ، 183 ، 185 ، 186 ، 187

. 189 ، 191 ، 192

سبكتكين : 154 .

الـسرخسي : 52 .

سعد بن أبي وقاص : 25 ، 30 .

سعد بن معاذ : 24 .

السمرقندي ، النّجيب : 169 ، 168 ، 101 .

سنان بن ثابت بن قرّة : 49 ، 110 ، 111 .

سيرين : 15 .

· ش ·

الشنطّي ، أحمد شوكت : 175 .

الشيرزي : 109 ، 118 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 131 .

· ص ·

صلاح الدّين الأتويبي : 42 ، 51 .

· ط ·

الطبري ، أحمد بن محمد : 155 ، 156 ، 181 .

الطبري ، علي بن ربن : 74 ، 78 ، 88 ، 95 ، 102 ، 103 ، 137 ، 138 ، 150 ، 183 ، 190

. 193

· ظ ·

الظاهر بأمر الله : 50 .

· ع ·

عائشة زوجة النّبي محمّد صلّى الله عليه و سلّم : 55 .

عبد الملك بن مروان : 61 ، 62 .

عضد الدولة البويهبي : 35 ، 36 ، 142 ، 144 ، 148 ، 150 ، 152 .

علاء الدين (الأمير) : 163 ، 166 .

عليّ بن عيسى الجراح : 41 ، 49 .

عليّ بن هندو البغدادي : 158 ، 159 ، 160 ، 161 .

. غ .

غالب (المحتسب) : 111 ، 112 .

. ف .

الفارابي : 161 .

فرويد : 180 .

الفضل بن يحيى البرمكي : 47 .

إبن الفقيه : 56 .

. ق .

القاهر (الخليفة العبّاسي) : 49 .

قسطنطين الإفريقي : 152 ، 194 .

ابن القفّ الكرّكي : 86 .

القفطي : 111 .

ابن القيمّ الجوزية : 14 ، 15 ، 55 .

. ك .

كسرى : 15 .

المأمون (الخليفة العبّاسي) : 60 ، 139 .

ماريا القبطية ، زوج النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : 15 .

ماري مونتاغو : 175 .

الماوردي : 45 .

المتقي (الخليفة العبّاسي) : 49 .

المتوكل (الخليفة العبّاسي) : 51 ، 62 .

محمد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : 13 ، 15 ، 17 ، 18 ، 19 ، 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 25 ،

26 ، 30 ، 36 ، 44 ، 55 ، 89 ، 108 ، 109 ، 114 ، 125 .

المستضيئ (الخليفة العبّاسي) : 60 .

إبن مسعود رضي الله عنه : 24 .

إبن مسكويه : 105 ، 106 ، 147 ، 148 ، 182 .

المعتصم (الخليفة العبّاسي) : 48 ، 118 ، 137 .

المعتضد (الخليفة العبّاسي) : 48 ، 52 ، 111 ، 139 ، 193 .

المقتدر بالله (الخليفة العبّاسي) : 35 ، 48 ، 49 ، 58 ، 110 ، 111 .

المقتفي (الخليفة العبّاسي) : 49 .

ابن مقلة : 48 .

المقدسي : 61 .

إبن مندويه : 157 ، 158 .

المنصور ، أبو جعفر (الخليفة العبّاسي) : 61 ، 62 ، 118 .

المنصور (أمير بخارى) : 70 ، 142 ، 174 ، 190 .

المهدي بن المنصور (الخليفة العبّاسي) : 51 ، 60 .

. ن .

إبن التّفيس : 28 ، 120 .

نور الدّين زنكي : 41 .

. ه .

هارون الرّشيد : 35 ، 46 ، 48 ، 51 ، 139 .

هبة الله بن ملكا البغدادي : 75 .

ابن هبيرة : 45 ، 49 .

هرقل : 15 .

أبو هريرة رضي الله عنه : 54 ، 56 ، 59 .

. و .

الواثق بالله (الخليفة العبّاسي) : 48 .

الوليد بن عبد الملك : 59 .

وليم أوسلر : 192 .

. ي .

يحيى البرمكي : 47 .

يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي : 88 .

يوسف النّبيّ عليه السلام : 54 .

أبو يوسف القاضي : 47 .

فهرس الأماكن

. أ .

. أدرنة : 175 .

. أرمينية : 146 .

. أصفهان : 148 ، 157 .

. الإسكندرية : 26 .

. أمريكا : 53 .

. الأندلس : 136 .

. أوربا : 42 ، 53 ، 185 ، 191 ، 192 .

. إنجلترا : 175 .

. ب .

. بخارى : 142 ، 161 ، 167 ، 169 .

. بغداد : 35 ، 40 ، 49 ، 75 ، 109 ، 137 ، 138 ، 142 ، 157 ، 173 .

. بلاد الزنج : 56 .

. بلاد فارس : 97 ، 143 ، 146 ، 157 ، 158 ، 169 .

. البلاد العثمانية : 175 .

. ت .

. تركستان : 169 .

· ج ·

جنديسابور : 26 .

· ح ·

حمص : 57 ، 58 .

· د ·

دمشق : 28 ، 52 ، 59 .

· ر ·

الريّ : 139 .

· س ·

سامراء : 137 ، 138 .

· ص ·

صور : 26 .

· ع ·

العراق : 56 ، 57 .

عمواس : 56 .

· ف ·

فلسطين : 57 .

. ق .

القاهرة : 42 ، 51 .

قبااء : 19 .

. م .

مصر : 54 .

مكة : 57 .

المصيصة : 56 ، 61 .

الموصل : 56 ، 62 ، 143 ، 144 .

. ه .

هراة : 168 .

فهرس الطوائف و الأجناس و الدول القبائل

المحتوى

. أ .

الأمويين : 40 ، 60 .

أهل الذمة : 37 ، 39 .

. ب .

البيزنطيين : 111 .

. ح .

الحمدانيون : 144 .

. د .

الدولة العباسية : 108 ، 109 ، 149 .

الدولة السامانية : 163 .

الدولة الخوارزمية : 169 .

. س .

السمانيين : 72 .

. ع .

العباسيين : 27 ، 32 ، 39 ، 40 ، 60 ، 70 .

العرب : 27 ، 39 ، 114 ، 120 .

.غ.

الغرب المسيحي : 44 ، 53 ، 69 ، 70 ، 138 ، 141 ، 151 ، 173 ، 174 ، 175 ، 176

. 183 ، 184 ، 187 ، 189 ، 191 ، 193 ، 194 .

.ف.

الفرس : 29 ، 62 ، 63 ، 183 .

.م.

المسلمون : 13 ، 14 ، 16 ، 17 ، 18 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 31 ، 34 ، 36 ، 37 ، 45 ، 50

. 53 ، 58 ، 63 ، 69 ، 70 ، 94 ، 118 ، 121 ، 136 .

المغول : 169 ، 170 .

الموالي : 37 ، 39 .

.ن.

التصاري : 30 ، 31 .

.ه.

الهنود : 33 ، 62 ، 63 ، 78 .

.ي.

اليهود : 30 .

اليونانيين و الإغريق : 26 ، 27 ، 29 ، 33 ، 62 ، 63 ، 78 ، 111 ، 183 .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	أ.....
الفصل الأول : لمحة عن تطوّر الطبّ الإسلامي (من العهد النبوي إلى نهاية العصر العبّاسي)	
أولاً . التعريف بالطبّ الإسلامي	13
ثانياً : أقسام الطبّ الإسلامي :	
أ . الطبّ الإيماني	14.....
ب . الطبّ الروحاني	16.....
ج - الطبّ الوقائي .	18.....
ثالثاً : الحثّ على المعالجة و البحث عن الدواء الصحيح	23.....
رابعاً : تطوّر صنعة الطبّ في العصر العبّاسي	25.....
1 . المناهج الطبيّة عند أطباء العصر العبّاسي	28.....
2 . مكانة الأطباء في العصر العبّاسي	31.....
3 . أجور أطباء العصر العبّاسي	32.....
4 . المستشفيات في العصر العبّاسي	33.....
الفصل الثاني : أهمّ الخدمات الصحيّة في العصر العبّاسي .	
أولاً : رعاية المجانين	38.....

42.....	ثانياً : الاهتمام بصحة المساجين
52.....	ثالثاً : رعاية ضحايا الأوبئة و الكوارث الطبيعية
52.....	أ . نظرة الإسلام إلى الأوبئة و الأمراض المُعدية
54.....	ب . جهود الدولة العباسية في مواجهة الأوبئة و الكوارث الطبيعية
55.....	1 . الطاعون
57.....	2 . الجذام
59.....	3 . الزلازل
61.....	رابعاً : الجراحة :
68.....	خامساً : الطبّ النفسى
74.....	سادساً : طبّ النساء و الولادة
86.....	سابعاً : طبّ الأطفال
93.....	ثامناً : طبّ العيون
100.....	تاسعاً : طبّ الحيوان
108.....	الفصل الثالث : دور الحسبة في حفظ الصحة العامة
109.....	أولاً : الحسبة على المهن ذات الصلة بصناعة الطبّ
109.....	أ . الحسبة على الأطباء
115.....	ب . الحسبة على الفصّادين و الحجّامين

ج . الحسبة على الصيادلة 117

د . الحسبة على البيطرة 121

ثانياً : الحسبة على صانعي الأطعمة و الأشرية :

أ . الحسبة على الدقّاقين 122

ب . الحسبة على الحَبّازين 123

ج . الحسبة على الجزّارين و القصّابين 124

د . الرّقابة و الإشراف على الشوّائين 127

هـ . الرّقابة و الإشراف على الرّوّاسين 128

و . الرّقابة و الإشراف على النّفائقيين 128

و . الرّقابة و الإشراف على قلائّي السمك 128

ي . الرّقابة و الإشراف على السّمّانين 130

ثالثاً : تنظيم الأسواق 131

الفصل الرّابع : تراجم لأشهر أطباء العصر العبّاسي :

1 . علي بن ربن الطبري 136

2 . أبوبكر الرّازي 138

3 . ابن أبي الأشعث 142

4 . أحمد بن علي مسكويه 146

149.....	5 . علي بن عبّاس الأهوازي
151.....	6 . الحسن بن سوار
154.....	7 . أحمد بن محمد الطبري
156.....	8 . ابن مندويه الأصفهاني
157.....	9 . علي بن هندو
160.....	10 . ابن سينا
166.....	11 . الحسن القمري
167.....	12 . التّجيب السمرقندي

الفصل الخامس : أثر الطبّ العبّاسي على الغرب المسيحي

172.....	أولاً . السّبق في إكتشاف الأمراض
182.....	ثانياً . طرق العلاج
185.....	ثالثاً . الجانب الإنساني
188.....	رابعاً . المؤلّفات
195.....	الخاتمة
200.....	الملاحق
210.....	قائمة المصادر و المراجع

الفهارس

- 237..... فهرس الأعلام
- 246..... فهرس الأماكن
- 249..... فهرس الأجناس و القبائل و الدول
- 251..... فهرس المحتويات